ARSÈNE LUPIN

GENTLEMAN CAMBRIOLEUR





أرسين لوبين

اللص الظريف

ترجمة

إسراء يونس

موريس لوبلان

الرواق للنشر والتوزيع

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أرسين لوبين
اللص الظريف

موريس لوبلان
ترجمة: إسراء يونس

نبذة عن الرواية..

يعرفه العالم باسم أرسين لوبين، والجمهور يتابع مغامراته بشغف، لأن حيله طريفة وما يفعله بخصومه مسلٍّ، وسيختلف الأمر بالتأكيد إذا كنتَ ضحيته، فعندها لن يعود الأمر مضحكًا على الإطلاق!

لا أحد يعرف اسمه الحقيقي، أو حتى شكله، له ألف وجه وألف اسم، إذا قرّر أن يسرق لوحة ثمينة أو تحفة أثرية أو عقدًا من اللؤلؤ، فهو لابدّ سيصل لما يريد، حتى لو تواجد المفتش جانيمار في المكان، أو حتى المحقق العظيم شرلوك هولمز نفسه!بين يديك الآن الترجمة الكاملة والأمينة للكتاب الأول من مغامرات أرسين لوبين، والذي صدر في فرنسا لأول مرة عام 1907، ويحوي المغامرات التسعة الأولى لأرسين لوبين كما كتبها موريس لوبلان، والتي تشتمل على مواجهة أرسين لوبين الأولى مع غريمه الإنجليزي شرلوك هولمز، والتي لن تكون الأخيرة!

☆ ☆ ☆

مقدمة..

ربما لا توجد شخصية خيالية نافست شخصية المحقق الشهير شيرلوك هولمز- على ما حققته من نجاح وشهرة عالمية- سوى شخصية أرسين لوبين، اللص الفرنسي الذي يهوى المغامرات!

في ١٥ يوليو سنة ١٩٠٥ وجد قراء جريدة Je sais tout الفرنسية أنفسهم أمام قصة قصيرة لكاتب شاب يدعى موريس لبلان (١٨٦٤ـ١٩٤١)، بعنوان «اعتقال أرسين لوبين». نعرف من خلال القصة أن أرسين لوبين هو لص شهير، دوّخ شرطة العالم دون أن يستطيعوا القبض عليه، وهو مشهور بين العامة، اسمه يحمل رهبة، ووجوده كفيل بإرعاب الناس، رغم ما هو واضح من خفة ظله. عدوه الأهم هو مفتش الشرطة الفرنسية جانيمار، المفتش العجوز الذي يسخر منه لوبين دومًا ويستمتع بجعله أضحوكة أمام الناس. يسرق لوبين الأغنياء والنبلاء، ويُركّز بالذات على التحف ذات القيمة، من لوحات وأثاث، بالإضافة بالطبع للنقود والمجوهرات!

لم يكن موريس لبلان عندما كتب هذه القصة ينوي كتابة المزيد منها، ولا تحويل شخصية أرسين لوبين لبطل دائم لسلسلة من رواياته، لكنّ النجاح والصدى الذي حققته قصة «اعتقال أرسين لوبين» دفعه للتفكير في استثمار هذا النجاح وكتابة قصة أخرى لأرسين لوبين، نُشرت في نفس الصحيفة بعد عدّة شهور، تحديدًا في ١٥ ديسمبر ١٩٠٥، وحملت عنوان «أرسين لوبين في السجن»، والتي يستكمل فيها ما وقع للوبين بعد القبض عليه، وبعدها بشهر نشر قصة «هروب أرسين لوبين»، ثم أخذ ينشر كل شهر أو شهرين قصة لأرسين لوبين، حتى أتمّ تسع قصص، جُمعت بعدها سنة ١٩٠٧ فيما عُرف بأول كتب أرسين لوبين، والذي حمل عنوان «أرسين لوبين اللص الجنتلمان»- وهو الكتاب الذي نضعه بين يديك اليوم بعنوان «أرسين لوبين اللص الظريف»- والذي يحوي- بالإضافة لقصة القبض على أرسين لوبين وسجنه ثم هروبه من السجن- بعض مغامرات اللص الشهير في الاستيلاء على أموال ومجوهرات الأغنياء، وقصة أول مواجهة دارت بينه وبين شرلوك هولمز، والتي حملت عنوان «شرلوك هولمز يصل متأخرًا».

ظلّ موريس لبلان يكتب قصص وروايات أرسين لوبين حتى وفاته عام ١٩٤١، فكتب ١٦ رواية و٥ مجموعات قصصية لهذه الشخصية، بالإضافة لخمس مسرحيات.

لم تُترجم للعربية من قصص الكتاب الأول سوى ثماني قصص من أصل تسع، وعلى فترات متباعدة، ولم تُجمع من قبل في كتاب واحد، بل كان يُترجم منها ثلاث أو أربع قصص فقط وتُوضع في كتاب واحد مع مجموعة أخرى من قصص أرسين لوبين التي تنتمي لمجموعات قصصية أخرى، أو يُوضع معها قصص لشخصيات أخرى، كالقديس، باعتبارها قصصًا لأرسين لوبين، لكنّها- حسب ما وصل إلينا- لم تُوضع سويًا في كتاب واحد بنفس ترتيبها في الأصل الفرنسي،

خصوصًا وأن قصة «اللؤلؤة السوداء» لم تُترجم من قبل.

لذلك ارتأينا أن نقدّم للقارئ العربي، للمرة الأولى، الترجمة الكاملة الأمينة لأول كتب أرسين لوبين، ليطّلع على هذه القصص بترتيبها الأصلي، ولنواجه ظاهرة من أغرب الظواهر غرابة في تاريخ ترجة الأدب الغربي، والتي خدعت كثيرًا من القراء، وهي أن الغالبية العظمى من الأعمال المترجمة باعتبارها من مغامرات أرسين لوبين، والتي انتشرت منذ الخمسينيات من القرن الماضي وحتى التسعينيات؛ لا علاقة لها بأرسين لوبين! أغلبها في الأصل ينتمي لسلسة «القديس» التي كان يكتبها الروائي الإنجليزي ليسلي تشارتيس، وتم ترجمتها بعد أن استبدلوا اسم القديس باسم «أرسين لوبين»، لأنه الأشهر لدى القارئ العربي. وهكذا امتلأت المكتبة العربية بعشرات الروايات المترجمة التي تحمل اسم أرسين لوبين ومكتوب عليها أنها من تأليف موريس لبلان، في حين إنها في الواقع من مغامرات القديس وتأليف ليسلي تشارتريس. هذا أدى إلى أننا صرنا نرى أرسين لوبين في بيئات غريبة وغير معتادة على عالمه، نجده مثلًا في أمريكا، نجده في روسيا، نجده في أزمان تلت الحرب العالمية الثانية، وفي أجواء أكثر حداثة من الأجواء المعتادة في مغامراته، نجده يميل لمغازلة النساء وإقامة علاقات معهن، في حين أن كل هذا ليس سوى سيمون تمبلر المعروف بالقديس!

وربما قد حان الوقت للقارئ العربي العزيز أن يقرأ لأرسين لوبين ويتعرف على عالمه المختلف، في ترجمة كاملة مخلصة للأصل الفرنسي، دون تلاعب أو اختصار.

(بيير لافاييت)

«إلى صديقي العزيز، لقد أخذتني في طريق لم أكن أعتقد أنني سأغامر بالخوض فيه يومًا ما، ولقد وجدت الكثير من التوفيق والمتعة الأدبية في هذا الطريق؛ لذلك بدا لي أنه من الصواب كتابة اسمك على رأس هذا المجلد الأول، للتأكيد على مشاعري الممتلئة بالامتنان الصادق تجاهك».

م. ل

اعتقال (أرسين لوبين)

يا لها من رحلة عجيبة! على الرغم من بدايتها الهادئة، فالبنسبة لي لم أستمتعْ برحلة مثلها قط؛ «البروفانس» باخرة سريعة ومُريحة، تُبحر بقيادة أكثر الرجال مهارة، بداخلها نشأت صداقات حميمة، وقامت حفلات ترفيه متنوعة، كان لدينا هذا الشعور الرائع بالانفصال عن العالم والاختلاء كل منا بنفسه في جزيرة معزولة، وبالتالي وجدنا أنفسنا مضطرين للتعارف والتقرب من بعضنا البعض؛ وهذا ما حدث بالفعل.

هل جال بخاطرك للحظة، عزيزي القارئ، ماذا يمكن أن يحدث لهؤلاء المسافرين، الذين كانوا منذ ليلة واحدة لا يعرف أحدهم الآخر؟ وسيبقون مجتمعين معًا بضعة أيام بين رحب السماء الشاسعة ومياه البحر المهولة، مس-تأنسين كل منهم بالآخر يتحدون معًا غضب المحيط وهدير الأمواج المُرعب بسبب شدة العواصف، وهدوء الماء الراكد الموحش في بعض الأحيان أيضًا. في الحقيقة تُذكرني هذه الرحلة بواقع الحياة المأساوي الذي نعيشه، تجسيد متميز للحياة نفسها؛ بغضبها وعظمتها، رتابتها وأيضًا تنوعها، ولهذا السبب، عشنا هذه الرحلة القصيرة بمُتعة شديدة يتخلَّلها إثارة جامحة، وكان من السهل إدراك نهايتها منذ لحظة البداية.

منذ عِدَّة سنوات حدث شيء فريد أضاف الكثير من المُتْعة للرحلات البحرية، فما زالت هذه الجزيرة النائية، التي ظننا أننا معزولون بداخلها عن العالم الخارجي، مرتبطة بشكل ما بكل ما في الجهة الأخرى، وذلك عن طريق «التلغراف اللاسلكي».

نداء من العالم الخارجي نستقبل من خلاله الأخبار بأغرب الطرق، فلا يمكن لأحد أن يتصور كيف تمر الأصوات من خلال أسلاك حديدية دقيقة بهذه السرعة، الأمر في غاية الغموض، لكنه مُحاط بشيء من الشاعرية أيضًا، فلا يمكننا تفسير حدوث هذه المعجزة الجديدة حتى لو أستعنَّا بسرعة الريح.

منذ الساعات الأولى ونحن نشعر بأن هناك صوتًا يتبعنا ويهمس لنا من آنٍ لآخر، فقد نقل لي هذا الصوت حديث صديقين، عشرة، بل عشرين أرسلوا إليَّ تحياتهم الحارة وأمنياتهم برحلة سعيدة.

في اليوم التالي على بُعد خمسمائة ميل من السواحل الفرنسية، بعد ظهر يوم عاصف، تلقينا رسالة عبر التلغراف اللاسلكي تتضمن التالي:

«(أرسين لوبين) على متن باخرتكم، يجلس بالدرجة الأولى،

ذو شعر أشقر، لديه جرح في بداية ساعده الأيمن تحت اسم ر....».

في تلك اللحظة تحديدًا دوت السماء المظلمة برعد عنيف، انقطعت على إثره الموجات الكهربائية، فلم تصلنا باقي الرسالة، لم نستطع معرفة الاسم الذي انتحله (أرسين لوبين)، أدركنا فقط أنه يبدأ بالحرف.. ر.

لو كان ذلك خبر آخر، فليس لديَّ أدنى شك في أنه سيظل سرًّا محفوظًا بعناية لدى موظفي محطة التلغراف، وكذلك قبطان السفينة ومساعده، ولكن هذا الخبر واحد من تلك الأخبار التي تتحدى الكتمان مهما كانت قوته، ففي نفس اليوم تيقنًّا جميعًا أن (أرسين لوبين) يختبئ بيننا، ولم ندرك كيف انتشر هذا الخبر بهذه السرعة.

(أرسين لوبين) بيننا! اللص المراوغ الذي تتحاكي عن براعته الصحف منذ شهور! هذه الشخصية الغامضة التي ما انفك جنيمار العجوز ـأفضل محقق لدينا- يطاردها وسيظل يطاردها حتى الموت، (أرسين لوبين) الجنتلمان المخادع، من يسرق فقط القصور والصالونات، الذي يُحكى عنه طرائف ومغامرات عِدَّة؛ من بينها أنه في إحدى الليالي عندما اقتحم قصر البارون شورمان تركه خالي الوفاض وترك فقط بطاقته مُزينة بهذه الكلمات:

«سوف يعود (أرسين لوبين) عندما تكون هذه التحف أصلية.»

(أرسين لوبين) الرجل ذو الألف وجه، السائق، المطرب، صاحب مكتب المراهنات، حفيد العائلة المرموقة، المراهق، العجوز، التاجر من مرسيليا، الطبيب الروسي ومصارع الثيران الإسباني!

ولنكن على عِلم بهذا، (أرسين لوبين) يتنقل في جزء مُحدد نسبيًّا من سطح الباخرة، وهو ذلك الركن الصغير من الدرجة الأولى، حيث نلتقي جميعًا في أغلب الأوقات، غرفة الطعام، غرفة المعيشة، وأيضًا غرفة التدخين هذه، من المحتمل أن يكون هو هذا الرجل...، أو ذاك، من يجلس بجانبي على الطاولة، ربما رفيقي في المقصورة.

صاحت الآنسة (نيللي أندردون): هل يستمر هذا لمدة أربعة وعشرين ساعة أخرى؟ هذا أمر غير مُحْتَمل، أتمنى أن يستطيعوا القبض عليه!

واسترسلت قائلة وهي تنظر نحوي: ماذا ترى يا مستر (أندريزي)، من يكون؟

لديك علاقة طيبة مع القبطان، ألا تعرف شيئًا؟

تمنيت أن أعرف شيئًا لأرضيها، فهي واحدة من تلك المخلوقات الرائعة التي تجذب انتباه الجميع إليها أينما تجلَّت، جمالها المتوهج بجانب ثرواتها المبهرة يدفع الجميع لكسب ودها.

نشأت في باريس على يد أُمٍّ فرنسية، ثم انضمت إلى والدها الثري (أندردون) بشيكاغو، وترافقها دائمًا إحدى صديقاتها تُدعى السيدة (جيرلاند).

منذ أن وقعت عليها عيني عزمتُ على التقرُّب منها، ولكني تراجعت وارتبكت أمام جو الصداقات الأخوية السريعة هذا.

أشفقت على حالي كلما التقت عيناي بعينيها السوداوين الساحرتين، مع ذلك فقد استحْسَنَتْ ثنائي عليها، أخذت تبتسم بلطف لكلماتي الطيبة

وحكاياتي، وصارت تُبدي اهتمامًا بحديثي، فشعرت من جانبها بشيء من الانجذاب، يُساير شغفي تجاهها.

ربما كان هناك منافس واحد فقط يقلقني وهو فتى وسيم ومُتحفِّظ إلى حد ما، كان يبدو لي في بعض الأحيان أنها مُعجبة بطبعه الهادئ وغموضه أكثر من طريقتي الباريسية في إظهار الاهتمام الزائد.

لقد كان واحدًا من أولئك المُحيطين بالآنسة (نيللي) عندما كانت تسألني، كنا جالسين بأريحية على المقاعد الوثيرة على سطح الباخرة، بعدما جعلت عاصفة البارحة السماء صافية فأصبح الجو صحوًا مبهجًا.

أجبتها قائلًا: لا أعرف شيئًا محددًا يا آنستي، لكن ليس من المستحيل أن نقود نحن هذا التحري بأنفسنا، مثلما يفعل (جانيمار) العدو اللدود لـ(أرسين لوبين).

- أوه! أوه! أنت تُحرز تقدُّمًا كبيرًا هنا.

- لماذا؟ هل الأمر معقد إلى هذا الحد؟

- معقد جدًّا.

- هل نسيتِ الأدلة التي نمتلكها لتحليل الحدث؟

- وما هي هذه الأدلة؟

- أولًا: (لوبين) يسافر تحت اسم مستعار يبدأ بحرف (ال ر).

- وصف مبهم بعض الشيء.

- ثانيًا: يسافر وحده.

- هل هذه معلومة كافية؟

- ثالثًا: أنه أشقر.

- وماذا بعد؟

- فقط علينا الرجوع لقائمة الركاب والبدء في الاستبعاد.

وكانت لديَّ هذه القائمة في جيبي فأخرجتها وبدأت العمل.

- أولًا: ألاحظ أنه يوجد ثلاثة عشر شخصًا تُثير أسماؤهم انتباهنا.

- ثلاثة عشر فقط؟

- في الدرجة الأولى نعم، وعلى وجه التحديد هناك تسعة أشخاص يسافرون برفقة زوجاتهم وأبنائهم أو خدمهم، ويبقى أربعة أشخاص بمفردهم: (الماركيز ريفيردان) .... قاطعتني (نيللي) قائلة: الوزير، آه إني أعرفه.

- (الرائد روسون) قال أحدهم: إنه عمي.

- السيد (ريفولتا).

- أنا هنا! صاح أحدهم، وهو إيطالي يختفي وجهه تحت لحية من الشعر الأسود الناعم، انفجرت آنسة (نيللي) ضاحكة وعلقت قائلة:

- ليس أشقر كفاية.

ثم استأنفت قائلًا: لذا فإننا مضطرون للاقتناع بالاستنتاج الأخير وهو أن من تبقى في آخر القائمة هو هدفنا المنشود.

- وهذا يعني؟

- هذا يعني السيد (روزين)، هل يعرف أحدكم من هو السيد (روزين)؟

ساد صمت ثقيل، لكن الآنسة (نيللي) التفت إلى الشاب الجالس بجوارها والذي يزعجني حضوره الدائم: لمَ لا تجيب؟!

التفتنا إليه جميعًا، لقد كان أشقر.

في الواقع شعرت بشيء من صدمة، ونظرًا للصمت المُحرج الذي خُيم علينا شعرت بأن كل الحاضرين انتابهم نفس شعوري، لقد كان موقفًا سخيفًا، فلا يوجد شيء في سلوك هذا الشاب يوحي بالارتياب.

قال بارتباك:

- لماذا لم أرد؟ لأني قمت بتحقيق مماثل تقريبًا لما قمتم به الآن، وبالنظر إلى اسمي ولون شعري وسفري بمفردي وصلت لنفس نتيجتكم تقريبًا، فمن رأيي أن تهموا بالقبض عليَّ!

قال هذه الكلمات بحس فُكاهي ليجعلنا نضحك، بينما انسحب الدم من شفتيه الرقيقتين، وصعِد مباشرةً إلى عينيه التي استحال لونها إلى أحمر قاتم.

كان يمزح بكل تأكيد، ومع ذلك فإن ملامح وجهه المرتبكة وموقفه الضعيف أثَّر فينا، سألته الآنسة (نيللي) بكل سذاجة: ولكن ليس لديك جرح، أليس كذلك؟

قال: صحيح، فإن الجرح ينقصني، وبحركة عصبية رفع كمه كاشفًا عن ذراعه، على الفور صدمتني فكرة، والتقت عيني بعين الآنسة (نيللي)، لقد كشف ذراعه اليسرى! هممت بالتحدث عندما أقبلت السيدة (جيرلاند) صديقة الآنسة (نيللي) وهي تركض تجاهنا، كانت منفعلة للغاية فأسرعنا نحوها متلهفين، وبعد عناء لم تستطع أن تنطق سوى جملة واحدة:

- مجوهراتي، سُرقت مجوهراتي كلها.

وكما اكتشفنا لاحقًا فلم يأخذ السارق كل المجوهرات بل فعل شيئًا أكثر إثارة للفضول، لقد انتقى نجمة ماسية، قلادة من أحجار الكابوشون وبعض الياقوت، جميع القلائد والأساور مكسورة، ليست المجوهرات الأكبر حجمًا ولكن الأثمن

والأرقى، تلك التي تمثل أعلى قيمة وفي ذات الوقت لا تأخذ مساحة كبيرة، كانت الهياكل مُحطَّمة ومُلقاة على الطاولة، رأيناهم جميعًا أمامنا وقد جُردوا من جواهرهم مثل الزهور الملونة التي انتُزعت منها بتلاتها الجميلة.

ولكن لكي يُنجَز مثل هذا العمل فكان لا بد أن يقع خلال الساعة التي تتناول فيها السيدة (جيرلاند) الشاي في وضح النهار، وكان عليه تحطيم باب الكابينة والبحث سريعًا لإيجاد حقيبة صغيرة مُخبأة بعناية في أعماق عُلبة كرتونية خاصة بقبعة، ثم عليه فتحها والانتقاء منها.

بعدما علم كل الركاب بعملية السرقة، توصلوا إلى نتيجة واحدة، أنه (أرسين لوبين).

في واقع الأمر لقد كان هذا هو أسلوب (أرسين لوبين) المُعقَّد الغامض، وأيضًا المنطقي المُتقن؛ إذ كان من الصعب جدًّا إخفاء هذه الكمية الضخمة من المجوهرات الثمينة، فإن من الأسهل له أخذ الأشياء الصغيرة المنفصلة كل منها عن الآخر والتي من بينها لؤلؤ وزمرد وياقوت.

أثناء العشاء كان السيد (روزين) يجلس وحيدًا، وظل المقعدان عن يمينه وشماله فارغين، فلم يرغب أحد في الجلوس بجواره، وعرفنا في المساء أنه استُدعي بواسطة القبطان.

كان أعتقاله الذي لم يعترض عليه أحد مطلقًا مصدر راحة حقيقة لنا جميعًا، فتنفسنا الصعداء وأخذنا نمرح الليل بأكمله، رقصنا ولعبنا ألعابًا صغيرة مُسلِّيَة.

أبدت الآنسة (نيللي) ابتهاجًا مذهلًا جعلني أشك في إعجابها به منذ البداية، فهي بالكاد تذكر أمره حاليًّا، هزمتني أناقتها وسِحرها وبحلول منتصف الليل وتحت ضياء القمر الهادئ أعلنتُ لها بإخلاص مشاعري، بدا لي أن كلماتي قد راقتها حقًّا.

ولكن في اليوم التالي، وتحت دهشة الجميع أعلن إطلاق سراح السيد (روزين) لعدم كفاية الأدلة، لقد استطاع إثبات أنه نجل تاجر كبير في بوردو بأوراق سليمة تمامًا، وإلى جانب ذلك لم يكن لديه أي إصابة في ذراعيه أبدًا.

صاح أعداء (روزين): أوراق وشهادات ميلاد! يستطيع (أرسين لوبين) تزوير أي أوراق يريدها، والجرح لعله لم يكن لديه أصلًا، وإنها معلومة مُضللة أو أنه أجاد إخفاء جرحه.

المسئولون اعترضوا على هذه التكهنات، وأعلنوا إثبات حُجة غياب السيد (روزين) عن مسرح جريمة السرقة وقت حدوثها، وأنه كان على سطح المركب، ردوا على ذلك بحِدَّةٍ:

- وهل (أرسين لوبين) بحاجة إلى الحضور في مسرح أي جريمة لإثبات ارتكابها؟!

بصرف النظر عن أي اعتبارٍ آخر، كانت هناك نقطة لم يستطع معظم المُشكِّكين توضيحها، من يوجد باستثناء السيد (روزين) يسافر بمفرده وأشقر واسمه يبدأ بحرف (ال ر)؟ من الذي يقصده التلغراف إن لم يكن هو؟

وعندما سار السيد (روزين) نحونا للانضمام للغذاء بكل جرأة، نهضت الآنسة (نيللي) والسيدة (جيرلاند) وابتعدتا، فقد كانتا خائفتين حقًّا.

بعد ساعة تم تداول منشور مكتوب بخط اليد بين الركاب والعاملين بالباخرة ينص على:

«أعلن السيد (روزين) عن مكافأة قدرها عشرة آلاف فرنك لمن يكشف أمر (أرسين لوبين) أو المجوهرات المسروقة».

كما قال السيد (روزين) للقبطان أيضًا:

- إذا لم يساعدني أحد في الكشف عن هذا اللص سيكون له شأن معي.

(روزين) ضد (أرسين لوبين)، أو بالأصح (أرسين لوبين) ضد (أرسين لوبين)، كان صراعًا مثيرًا للاهتمام استمر لمدة يومين، شاهدناه خلالهما يتجول شاردًا يمينًا ويسارًا منخرطًا بالأحاديث مع الموظفين سائلًا كل كبير وصغير، حتى ظله، رأيناه ليلًا يتسكع وحيدًا.

أبدى القبطان حماسًا زائدًا من ناحيته، فجرى البحث في «البروفانس» من أعلاها لأسفلها، كما فُتِّشت كل المقصورات دون استثناء، مُعللين ذلك بأن الأشياء المسروقة قد تكون مُخبأة في أي مكان عدا غرفة السارق.

سألتني الآنسة (نيللي):

- سنصل لشيء في آخر الأمر، أليس كذلك؟ فحتى لو كان ساحرًا لا يستطيع أن يحول الياقوت واللؤلؤ لشيء غير مرئي.

- هذا صحيح، أجبتها، وإلا سيتوجب عليهم تفتيش بطانات قبعاتنا وستراتنا وكل ما نرتديه.

عرضت عليها آلة التصوير الخاصة بي ماركة (كوداك)، فكنت أحملها معي دائمًا، ولم أكفَّ عن تصويرها بها في كل مكان وكل موقف.

- انظري مثلًا إلى هذه الآلة الصغيرة، ألا تعتقدين بأنها تحتوي على مكان مناسب لإخفاء مجوهرات السيدة جيرلاند، فليس على المرء سوى التظاهر بالتقاط بعض الصور.

- لكني سمعتُ أن لا وجود للص لا يترك وراءه دليل ما، مهما كانت مهارته.

- لماذا؟

- لأنه لا يصُب تركيزه على السرقة فقط، ولكنه ينشغل أيضًا بكل الظروف المحيطة التي يمكن أن تُعرِّضه للخطر.

- كنتِ على ثقة بمهارته أكثر من ذلك في البداية.

- حتى رأيته يعمل.

- وما رأيك؟

- إنهم يُضيّعون وقتهم.

في الواقع لم تُسفر التحقيقات عن شيء، بل بالعكس اكتُشف شيء يخالف كل تلك المجهودات المبذولة، سُرِقت ساعة القبطان، الذي هاج وماج مستشيطًا من الغضب ومضاعفًا جهوده، أخذ يراقب عن كثب السيد (روزين) الذي كان قد تبادل الحديث معه عدة مرات؛ في صباح اليوم التالي وبمفارقة عجيبة عُثِر على الساعة بين طيات ياقة قميص مساعد القبطان، بدا الأمر وكأنه مُزحة نكتشف من خلالها شخصية (أرسين لوبين) الظريفة، بالطبع مُحتال ولكنه مُحترف، يعمل بموهبة عالية وجُنوح وأيضًا من أجل الاستمتاع، يعطي انطباعًا بأنه ممثل موهوب يجيد دوره في المسرحية التي يلعبها، بينما يقف ضاحكًا بحرارة خلف الكواليس لدهائه وطرافة مواقفه المُبتكرة.

هو فنان فريد من نوعه بالتأكيد؛ عندما كنت أراقب (روزين) وجدته كئيبًا متشبثًا برأيه، وفكرتُ في الدور المزدوج الذي تلعبه هذه الشخصية الغريبة بلا شك.

في الليلة قبل الأخيرة سمع ضابط المراقبة أنينًا خافتًا في مكان حالك الظلمة على سطح الباخرة، اقتربَ، كان هناك رجل مُقيَّد، رأسه ملفوف بوشاح رمادي ثقيل للغاية ومعصماه مربوطان بحبل رفيع، حرَّره من قيده وأنهضه مغدقًا عليه بالعناية اللازمة، كان هذا الرجل السيد (روزين)!

لقد اعتُدِي على السيد (روزين) في أثناء واحدة من نوباته الاستطلاعية الليلية، ضُرِب وجُرِّد من ملابسه بأكملها، ووجدت بطاقة مثبتة بدبوس على ملابسه المُلقاة تحمل هذه الكلمات: «يقبل (أرسين لوبين) العشرة آلاف فرنك بكل امتنان».

في الحقيقة احتوت حافظة النقود المسروقة على عشرين ألف فرنك.

وبطبيعة الحال اتُّهم هذا الرجل البائس بتصنع هذا الهجوم على نفسه، بغضِّ النظر عن حقيقة استحالة تقييد نفسه بهذه الطريقة، وثبت أن الخط على البطاقة يختلف كليًّا عن خط السيد (روزين)، وعلى العكس يشبه تمام الشبه خط (أرسين لوبين) الذي نُشِر في صحيفة قديمة وُجِدت على متن الباخرة.

بناءً على ذلك لم يعُد السيد (روزين) هو (أرسين لوبين)، السيد (روزين) هو (روزين) نجل أحد كبار تجار بوردو، وتأكد وجود (أرسين لوبين) الحقيقي مرة أخرى على متن الباخرة ولكن بطريقة مؤسفة.

كان الوضع مُرعبًا، لم يعد أحد يجرؤ على البقاء بمفرده داخل مقصورته ولا المجازفة بالوجود في أماكن بعيدة ومُظْلِمة، دفع الحرص الأشخاص الواثقين

من بعضهم البعض على البقاء في تجمُّعات دائمًا، كما فرق الحذر الفطري بين أشد الأصدقاء؛ لأنهم ليسوا مُهدَّدين من قِبَل شخص منعزل ومعلوم، والذي قد يكون أقل خطورة، ولكن الشك صوَّر لنا أن كل الأشخاص هم (أرسين لوبين).

خيالنا المشوب بالخوف نسب إليه قوة خارقة وقدرات غير محدودة، افترضنا أنه قادر على التنكُّر في أي صورة يريد، فمن الممكن أن يكون الرائد (روسون) أو الماركيز (ريفيردان)، لم نعد نتوقف كثيرًا عند الحرف الأول من اسمه، أو أنه يسافر وحيدًا بلا زوجة أو أطفال، فكل الاحتمالات واردة؛ على حد علمنا لم تعطِ الإرساليات التلغرافية أي شيء جديد، ولم يكن هذا الصمت بالشيء المُطمئن على الإطلاق.

بدا اليوم الأخير لا نهاية له، عِشْناه بصبر وانتظار مُقلِق مُتأهبين لوقوع أي كارثة، فهذه المرة لن تكون مجرد سرقة أو اعتداء بل ستكون جريمة ساحقة، قتل، فشخص مثل (أرسين لوبين) لن يكتفي بهذه الاختلاسات التافهة، فهو السيد المُتحكِّم في السفينة الآن بعد أن وقفت السلطات عاجزة عن الإمساك به، لم يكن ينقصه سوى الرغبة، ويصبح كل شيء طوع بنانه، أما بالنسبة لي فكانت هذه ساعات مُبهجة، كسبت ثقة الآنسة (نيللي) بجدارة، فقد تأثرت بكثير من الأحداث المُخيفة في الآونة الأخيرة، فأخذت تستمد الطمأنينة والحماية بشكل تلقائي من البقاء بجانبي طوال الوقت، هذا الأمان الذي طالما كنت سعيدًا بتقديمه لها؛ في أعماقي كنت أشكر (أرسين لوبين)، أليس هو من جَمَعَنا؟ ألم يكن هو صاحب الفضل في جعلي أعيش أجمل أحلامي؟ أحلام الحب؟ أهي أحلام خيالية؟ لماذا لا أستطيع التشبث بها؟ «آل أندريزي» من أنبل العائلات ولكنها أفلست منذ فترة، ومع ذلك فإن شعار النبالة الخاص بهم وشهرتهم مقنعين إلى حد ما، لم يكن من الغريب أن يفكر رجل نبيل مثلي في استعادة البريق المفقود لاسمه.

شعرت بأن أحلامي هذه لا تُغضب (نيللي) على الإطلاق، ساعدتني عيناها الباسمتان أن أغوص في أحلامي أكثر، وشجعتني رِقَّة صوتها على التمني أكثر وأكثر؛ حتى اللحظة الأخيرة كنا ملتصقين ببعضنا البعض متكئين على درابزين الباخرة بينما يقترب أمامنا الساحل الأمريكي.

توقفت عمليات البحث وبدءوا في جمع الركاب من كل درجات الباخرة، كنا بانتظار اللحظة الحاسمة حين تُكشف شخصية (أرسين لوبين)، تحت أي قناع يختبئ؟ تحت أي اسم يسافر بيننا؟!

جاءت تلك اللحظة المَهيبة، فلو عشت مائة عام لا يمكنني أن أنسى أدق تفاصيلها؛ قلت لشريكتي التي ترتكز على ذراعي بوهن ملحوظ:

- ما بكِ؟ لماذا تُبدين شاحبة إلى هذه الدرجة؟

- وأنت! ـفاجأتني قائلةـ أنت أيضًا شاحب!

- بالتأكيد، هذه لحظة مثيرة وأنا سعيد للغاية بأنني أحياها معك يا آنسة

(نيللي)، يبدو أن ذكراك ستظل باقية معي.

لم تكن مُصغية إليَّ، كانت تلهث متوترة، أُنزِل جسر العبور ولكن فجأة قبل أن يُتاح لنا حرية عبوره، صعِد بعض الرجال في لِباس رسمي، رجال جمارك ورجال في زي عسكري؛ تلعثمت آنسة (نيللي) قائلة:

- لو علمت الآن بأن (أرسين لوبين) هرب في أثناء الرحلة فلن أتفاجأ.

- لعله فضل الموت على العار، غاص في أعماق المحيط الأطلسي بدلًا من إلقاء القبض عليه.

- لا تسخر، قالت منزعجة.

انتفضت فجأة مشيرًا:

- أترين هذا الرجل المُسِن هناك، الواقف على آخر درجة في سلم الباخرة؟

- هذا الذي يحمل مظلة ويرتدي سترة خضراء؟

- إنه (جانيمار).

- (جانيمار)؟

- نعم، المحقق البوليسي الشهير الذي أقسم على أن نهاية (أرسين لوبين) ستكون على يديه يومًا ما، آه! لقد عرفت الآن لماذا لم تصلنا أي أخبار ومعلومات من هذا الجانب من المحيط؛ لأن (جانيمار) هنا، ولا يحب أن يتدخل أحد في شئونه الصغيرة.

- إذن أنت مُتأكد الآن من أنه سيُلقى القبض على أرسين لوبين؟

- من يدري؟ فـ(جانيمار) على ما أعتقد لم يرَ (أرسين لوبين) أبدًا سوى مُتنكر، إلا إذا كان يعرف الاسم المستعار الذي ينتحله.

- آه- قالت بفضول أنثوي واضحـ لو بإمكاني مشاهدة هذا الاعتقال.

- فلنصبر قليلًا، من المؤكد أن (أرسين لوبين) لاحظ وجود عدوه وسيفضل الخروج مع آخر ركاب الباخرة، عندما تكل عينا الرجل المُسِن من المراقبة والتتبع.

بدأ الآن نزول الركاب، وبمظهر غير مبالٍ متكئًا على مظلته بدا (جانيمار) غير منتبه للحشد الهابط الذي يمر بين درابزين الباخرة، وقد لاحظت ضابطًا يقف خلفه، يلقي عليه بالمعلومات من حين إلى آخر.

هبط الماركيز (ريفيردان) ثم النبيل (راوسون)، فالإيطالي (ريفوتا) وغيرهم الكثير والكثير، ورأيت السيد (روزين) يقترب، يا للمسكين! لا يبدو أنه تعافى من حادثه المؤسف.

أخبرتني (نيللي):

- ربما يكون هو، ما رأيك؟

- أعتقد أنه سيكون مثيرًا للاهتمام بأن يكون (جانيمار) و(روزين) في نفس الصورة؛ لذا إليكِ بهذه الكاميرا، فيدي مشغولة.

أعطيتها الكاميرا ولكن فات أوان استخدامها، لقد مر (روزين) بكل سهولة، انحنى الضابط إلى أذن (جانيمار)، هز الأخير كتيفيه، في حين سار (روزين) بجوارهما وتجاوزهما.

- ولكن كيف هذا؟ يا إلهي! فمن إذن (أرسين لوبين)؟

- نعم- صاحت (نيللي) بصوت مسموع- من هو؟

لم يبقَ سوى حوالي عشرين شخصًا، راقبتهم (نيللي) بخوف مُرتبك مع أنه لم يكن واحدًا من أولئك العشرين.

- لا يمكننا الانتظار أكثر من ذلك، تقدَّمت (نيللي) وتبعتها، لم نَسِر عشر خطوات حتى اعترض (جانيمار) طريقنا.

- إذن، ما الأمر؟ صحت قائلًا.

- لحظة سيدي، لماذا أنت متعجل هكذا؟

- أنا أسير برفقة الآنسة.

- انتظر لحظة واحدة، كرر بإلحاح.

حدجني بعمق، ثم ثبت عينه على عيني قائلا: (أرسين لوبين)، أليس كذلك؟

شرعت في الضحك، ثم استطردت قائلًا: لا، (برنارد داندريزي) بكل بساطة.

- (برنارد داندريزي) مات منذ ثلاث سنوات بمقدونيا.

- لو مات (برنارد داندريزي)، لما كنت ستجدني في عالم الأحياء الآن أقف أمامك، ها هي أوراقي.

- إنها أوراقه بالضبط، أما عن كيفية حصولك عليها فسوف يسعدني أن ألقي علي مسامعك القصة بأكملها.

- أأنت مجنون؟ (أرسين لوبين) يسافر تحت اسم يبدأ بحرف الـ (ر).

- نعم أعرف، إنه دليل زائف ألقيت به للتضليل، أنت ذكي جدًّا يا صديقي ولكن خانك الحظ هذه المرة، هيا يا لوبين أظهر روحك الرياضية، فأنت لاعب متمرس.

ترددت ثانية، ففجأني بضربة قوية على ساعدي الأيمن، أطلقت صرخة ألم على إثرها، فقد ضربني على جرحي الذي لم يندمل بعد، الذي ذكره التلغراف.

لم يعد هناك مفر، كان لا بد من الاستسلام، التفت إلى (نيللي) التي كانت تستمع وهي شاحبة تترنح، التقت عيناها بنظراتي، ثم بإيماءة مفاجئة

خفضت بصرها نحو الكاميرا التي بين يديها، أعطتني انطباعًا بأنها فهمت كل شيء، نعم، فهناك في هذه الكاميرا الصغيرة، التي حَرِصت على وضعها في إيدي (نيللي) قبل القبض عليَّ، تقبع العشرون ألف فرنك الخاصة بروزين والآلئ الخاصة بالسيدة (جيرلاند).

آه! أقسم بأني في تلك اللحظة وبينما أنا مُحاط بـ(جانيمار) ومساعديه الاثنين عن يميني ويساري لم أكن أبالي بأي شيء، اعتقالي، كراهية الناس لي وخوفهم مني، لا شيء على الإطلاق سوى القرار الذي ستتخذه (نيللي) حيال ما اعترفتُ لها به، هذا الدليل المادي القاطع الذي لا أستطيع دحضه، هل ستقدمه (نيللي) إلى (جانيمار)؟ هل ستخونني؟ ستكون سبب ضياعي؟ هل ستتصرف كعدو لا يرحم أم كامرأة تُحب، ويخفف تعاطفها الفطري من ازدرائها تجاهي؟ مرت أمامي وودعتها بإيماءة بسيطة دون أي كلمة اختلطت بالركاب وسارت نحو الدرابزين مُمسكة بآلة التصوير خاصتي، لا شك بأنها لا تجرؤ على تسليمها على الملأ، ستسلمها في غضون ساعة، أو على أسوأ تقدير خلال بعض لحظات، ولكن عندما وصلت منتصف الجسر اصطنعت تعثرًا بسيطًا تاركة الكاميرا تسقط من بين يدها بين جدار الرصيف وجانب الباخرة، ثم مضت بعيدًا، طيفها الجميل اختفى وسط الحشد، كل شيء انتهى، وإلي الأبد.

للحظة بقيت متجمدًا حزينًا، ثم تنهدت بعمق مثيرًا دهشة (جانيمار) الذي قال ساخرًا:

- إنه لشيء مؤسف ألا يكون المرء شريفًا، أليس كذلك (لوبين)؟

في إحدى أُمسيات الشتاء أخبرني (أرسين لوبين) قصة اعتقاله هذه، وشاءت الصُّدْفة التي سأتحدث عنها يومًا ما بكل تأكيد، بأن تربطنا صداقة عميقة؛ هل قلت صداقة؟ نعم، أستطيع القول الآن بأن (أرسين لوبين) يشرفني بصداقته، وبدافع هذه الصداقة يأتي أحيانًا إلى منزلي في زيارات مفاجئة، يدلف إلى مكتبي مُنتزعًا الصمت بمرحه الشبابي وحماسه المُتَّقد وروح الدعابة الممتعة الذي أغدق عليه القدر بها.

صورته! كيف أستطيع وصفها؟ لقد رأيت (أرسين لوبين) عشرين مرةً، في كل مرة كان مختلفًا عن الأخرى، أو بالأحرى: رأيت رجلًا تعكس المرأة له أشكالًا مختلفة، لكل صورة منهم نفس عينيه وهيئة وجهه حتى نفس حركاته، أفضى إليَّ ذات مرة قائلًا: إنني لم أعد أعرف نفسي، فكلما نظرت في المرآة أتساءل: من أنا؟

دعابة بالتأكيد، لكن هذه هي الحقيقة لمن يقابلونه ويجهلون وسائله في التنكر وإتقانه فن المكياج وقدرته المتميزة في التغيير، حتى ملامح وجهه وتعبيراته يبدلها كيفما يريد.

قال لي ذات مرة:

- لماذا عليَّ التمسك بشكل محدد طوال الوقت؟ لماذا لا أتجنب هذا الخطر الذي سيرشدهم إليَّ جراء شخصية واحدة دائمًا؟ أفعالي تدل عليَّ بشكل كافٍ.

واستأنف قائلًا بشيء من الزهو:

- من الأفضل أن يُقال بكل يقين: هذا عمل (أرسين لوبين) على أن يُقال قد يكون هذا (أرسين لوبين).

هذه بعض أعماله، بعض مغامراته التي أحاول أن أسردها عليكم طبقًا لاعترافاته التي أفضى إليَّ بها في بعض ليالي الشتاء داخل مكتبي.

(أرسين لوبين) في السجن

لا يوجد سائح جدير بهذا التصنيف، لا يعرف ضفاف نهر السين، ولم يلاحظ وهو يتنقل بين أنقاض «جوميج» وأنقاض «سان واندريل» قصر «مالكيه»، هذا القصر الإقطاعي الكائن فوق صخرة عملاقة راسخة باعتزاز في وسط النهر، يربطه جسر صخري بالطريق العمومي، وتتكون قاعدة أبراجه السوداء من الجرانيت الذي يدعمه، تلك الكتلة الصخرية العملاقة التي لا نعلم عن أي جبل انفصلت واستقرت هنا؟

تجري مياه النهر الهادئة بين أعواد الخيزران حول القصر، وتحط طيور أبو فصادة البيضاء فوق قمته الصخرية.

تاريخ قصر «مالكيه» قاسٍ كاسمه، ومخيف مثل ظله العملاق، مملوء بالمعارك والحصارات والاعتداءات، يتذكر أهالي مدينة «كو» هذه الجرائم البشعة مرتجفين خلال جلسات السمر الليلية، يروون أساطير عجيبة عنه، مثل السرداب السري تحت الأرض، الذي كان يؤدي فيما سبق إلى دير «جومج» وإلى قصر (أغنيس سوريل) العشيقة السرية لـ(شارل السابع).

في مخبأ اللصوص والطغاة هذا، يعيش البارون (ناثان كاهورن)، «البارون الشيطان»، كما كان يُلقب سابقًا في البورصة، حيث أصبح فجأة من الأثرياء في ظروف غامضة.

اضطر أمراء قصر «مالكيه» المتهالك إلى بيع قصر أسلافهم بثمن بخس إلى البارون، الذي أسرع في نقل مقتنياته الرائعة من الأثاث واللوحات والأواني الفخارية والمنحوتات التاريخية.

كان يعيش وحيدًا برفقة ثلاثٍ من الخدم كبار السن، لم يدخل أحد القصر أبدًا، ولم يتأمل أحد هذه الغرف الأثرية بما تحتويها من لوحات (روبنز) الثلاث، لوحتان (والتو)، كرسي (جان جوجو) النحات العظيم، والكثير من الأعمال الفنية والتاريخية البديعة التي تخلى عنها أصحابها الأثرياء ممن يرتادون المزادات العلنية، مقابل بعض الأوراق المالية.

طالما كان «البارون الشيطان» يخاف، ليس على نفسه بقدْر خوفه على كنوزه الثمينة، التي جمعها على مدار حياته بشغف شديد، وذكاء محترف لا يستطيع أذكى التجار التباهي بالتغلب عليه أو خداعه، يحبها بشدة، يتشبث بها بعنف كالبخيل، ويغار عليها كالمتيَّم.

كل يوم عند غروب الشمس تغلق البوابات الأربعة الحديدية المتصلة بالجسر بإحكام، فعند أقل حركة، كانت الأجراس الكهربائية تهتز بشدة خارقة الصمت، فمن ناحية النهر، لا يوجد أي قلق، فالصخرة مرتفعة أفقيًّا بحِدَّة.

مع ذلك، في أحد أيام الجمعة من شهر سبتمبر، جاء ساعي البريد كالمعتاد عابرًا الجسر، ووفقًا للقاعدة اليومية، كان البارون بنفسه هو من يفتح نصف البوابة، تفحص الرجل بعناية كما لو أنه لم يعرفه منذ سنوات، هذا الفلاح

المبتسم دائمًا، ذو الوجهِ المستدير، والعينينِ الساخرتين، قال ضاحكًا:

- إنه أنا أيها البارون، ليس شخصًا آخر يرتدي قميصي وقبعتي.

- ومن يدري؟

سلَّمه ساعي البريد مجموعة من الصحف، وأضاف:

- هناك شيء جديد سيدي.

- شيء جديد؟

- إنه خطاب، ومُوقَّع أيضًا.

لم يتلقَّ (البارون) أي رسالة من قبل، فهو وحيد ومنعزل، ولا يهتم أحد بمراسلته أبدًا، بدا له على الفور هذا الخطاب نذير شؤم، من هذا المراسل المتطفل، الذي يحاول زعزعة أمنه؟

قال ساعي البريد:

- عليك التوقيع سيدي (البارون).

- وقع متذمرًا، ثم أخذ الرسالة، وانتظر اختفاء ساعي البريد عند منعطف الطريق، سار عدة خطوات متوترًا، ثم انحنى على درابزين الجسر ومزَّق مظروف الخطاب، كانت ورقة مُربعة مكتوبة بخط اليد، وفي أعلاها عنوان المرسل: سجن «دي لا سانتيه» باريس، المرسل: أرسين لوبين، قرأ مذهولًا:

«سيدي البارون يوجد برواق الاستقبال الداخلي لقصرك، الذي يجمع بين الصالتين الكبيرتين، لوحة لفيليب شامباني، وهي لوحة مصنوعة باحترافية عالية، تُعجبني إلى أبعد حدٍّ، لوحات (روبنز) أيضًا نالت إعجابي، ولوحة (واتو) الصغيرة أيضًا، في الصالة جهة اليمين يوجد صوان سفرة طراز «لويس الثالث عشر»، وسجادات طراز «بوفيه»، منضدة صغيرة طراز أمبيرت، ومن تصميم «جيكوب»، وخزانة ملابس ترجع لعصر النهضة، أما الصالة جهة اليسار فيوجد بها فاترينة زجاجية تحتوي على المجوهرات ومنحوتات لتماثيل أصلية صغيرة، سأكتفي هذه المرة بهذا القدر من الأشياء، التي أعتقد بأنها سهلة في عملية البيع؛ لذا أطلب منك حزمها بطريقة جيدة وتغليفها بعناية ثم شحنها إلى محطة «باتينول» في غضون ثمانية أيام، ليلة الأربعاء السابع والعشرين من سبتمبر، وإلا سيتوجب عليَّ القيام بهذه المهمة بنفسي، ووقتها لن أكتفي بهذه الأشياء المذكورة فقط؛ برجاء قبول اعتذاري عن هذا الإزعاج الذي سببته لك، وأخيرًا: لك مِنِّي كل التحية والاحترام.

ملحوظة: لا تقُم بإرسال لوحة واتو الكبرى، بالرغم من أنك أنفقت ثلاثين ألف فرنك في الفندق في أثناء المزاد، إلا أنها ليست سوى نسخة مزورة، حيث حُرِقت الأصلية، قام «باراس» بحرقها في إحدى لياليه الماجنة، راجع مذكرات «جاراه» غير المطبوعة جيدًا للتأكد، وكذلك لا أهتم كثيرا للوحة سيدة القصر

التي ترجع لعصر لويس الخامس؛ لأني أشك في حقيقة أصلها أيضًا».

أرعب هذا الخطاب (البارون كاهورن)، فلو كان مرسلًا من قِبل أي لص آخر لكان أثار حفيظته بشدة، فكيف وهو مرسل بتوقيع (أرسين لوبين)؟

كان قارئًا متابعًا جيدًا للصحف، ويُولي اهتمامًا بصورة خاصة لأخبار الجرائم والسرقات، وكان على دراية كاملة بمآثر هذا اللص الجهنمية، فبالطبع يعلم أن (أرسين لوبين) أُلقِي القبض عليه بأمريكا على يد عدوه (جانيمار)، إنه مسجون بالفعل وقضيته قيد التحقيق، ياله من وضع بائس!

لكنه يعلم أيضًا أن كل شيء متوقع من (أرسين لوبين)، فمعرفته الدقيقة لكل تفاصيل القصر من لوحات وأثاث كانت إشارة مخيفة، فمن أين له بهذه المعلومات التي لا يعلمها أحد؟

رفع نظره لأعلى متأملًا الظل العملاق لقصر «المالكيه»، قاعدته المائلة، مياه النهر العميقة التي تحيط به، هز كتفيه بلا مبالاة محاولًا تجاهل الأمر، بكل تأكيد ليس هناك خطر، يستحيل على أي شخص في العالم انتهاك حرم مجموعته الحصينة، لا أحد يجرؤ، ولكن (أرسين لوبين)! لا توجد أبواب ولا جسور متحركة ولا جدران يمكنها إعاقة عمله، بماذا يفيد أصلًا وضع العوائق المستحيلة، واتباع أشد الاحتياطات حذرًا إذا ما قرر (أرسين لوبين) تحقيق هدف ما؟

في نفس الليلة كتب (البارون) إلى النائب العام في «روان» مرسلًا إليه خطاب التهديد، طالبًا المساعدة والحماية. لم يمُرَّ وقت طويلًا حتى أتى الرد:

«إن المدعو (أرسين لوبين) محتجز حاليًّا في سجن «سانتيه»، تحت رقابة صارمة، ويستحيل عليه الكتابة والمُراسلة، فهذه الرسالة مجرد خدعة، المنطق وحقيقة الأحداث الجارية يؤكدان هذا، ومع ذلك ولنكن أكثر حذرًا، لقد قمنا بتعيين خبير في الخطوط لفحص الخطاب، وقد تبين أن برغم بعض التشابهات لم يكن هذا بخط المسجون (أرسين لوبين)».

«رغم بعض التشابهات» لم يعلق بذهن (البارون) أي شيء من هذا الخطاب سوى هذه الكلمات الثلاث، والتي استشعر فيها الشك الكافي لتدخل القضاء، تصاعدت مخاوفه، ولم يتوقف عن قراءة الرسالة مرارًا وتكرارًا، «سيتوجب عليَّ القيام بذلك بنفسي»، وهذا التاريخ المذكور تحديدًا ليلة الأربعاء السابع والعشرين من سبتمبر.

وبالرغم من ارتيابه وتوجُّسِه، لم يجرؤ على البوح والوثوق بأحد من الخدم، إخلاصهم لم يكن بمُنجٍ عن شكه في هذا الوقت، فلأول مرة منذ سنوات يرغب في التحدث مع أحد وطلب النصيحة، بعد أن تخلى عنه القضاء، أصبح لا يوجد أمل لديه سوى الدفاع عن نفسه بطرقه الخاصة، كان على وشك الذهاب إلى باريس لأخذ المشورة من بعض أصدقائه من رجال الشرطة السابقين؛ انقضى يومان وفي الثالث بينما كان يقرأ جرائده اليومية، ارتجف فرحًا وهو يقرأ هذا

المقال:

«يسعدنا أن نعلن للقراء الكرام، أنه منذ ما يقرب الثلاثة أسابيع، نتشرف باستضافة المُحقِّق (جانيمار)، أحد كبار رجال الشرطة المُخضرمين، الذي ينسب إليه اعتقال (أرسين لوبين)، وهو آخر إنجازاته المهمة، حيث اكتسب بذلك شُهرة أوروبية واسعة، وهو يستريح من إرهاقه الطويل ويستجم على شواطئنا، مستمتعًا بصيد السمك النهري الأبيض».

(جانيمار)! هذا هو المساعد المثالي الذي كان يبحث عنه (البارون كاهورن)، من أفضل من الداهية (جانيمار) لإحباط مشاريع (لوبين)؟

لم يتردد (البارون) لحظة، ستة كيلو مترات تفصل القصر عن مدينة «كوديبيك»، تجاوزهم بخطى رجل متشبث بأمل الخلاص، وبعد عدة محاولات فاشلة لمعرفة عنوان المحقق، شق طريقه إلى جريدة «ريفيفال» التي نشرت الخبر، الواقعة في منتصف شاطئ البحر، طلب لقاء محرر الخبر، الذي ردَّ عليه من وراء نافذة صغيرة:

- (جانيمار)! ولكنك متأكد من أنك لم تره جالسًا يصطاد ممسكًا بسنارته على طول الساحل؟ لقد تعرفت إليه بهذا المكان، حيث قرأت اسمه بالصُّدفة محفورًا على طرف عصا الصيد الخاصة به، أوه! إنه هناك، هذا العجوز الضئيل القابع تحت أشجار المنتزه.

- الذي يرتدي المعطف وقبعة من القش؟

- نعم، إنه رجل فظ غريب الأطوار، ولا يتحدث كثيرًا.

بعد خمس دقائق كان (البارون) يجلس بجوار (جانيمار)، قدَّم نفسه إليه، حاول فتح حوار معه ولم يُفلح، فواجهه بالأمر صراحةً، عرض عليه قضيته كلها، استمع إليه (جانيمار) صامتًا دون أن يرفع عينه عن السمكة التي يترصدها، ثم أدار رأسه ناحيته، نظر إليه من أعلى إلى أسفل متفحصًا، ثم قال بنبرة شفقة:

- من غير المعتاد سيدي أن نحذر الأشخاص قبل سرقتهم، خصوصًا (أرسين لوبين)، لا يقوم بمثل هذه التفاهات.

- ومع ذلك؟

- سيدي، لو كان هناك أدنى شك بأنه مرسل الخطاب فستكون متعة إلقائي القبض عليه مرةً أخرى فوق أي اعتبار، ولكن هذا الشاب خلف القضبان بالفعل!

- وإذا هرب؟

- لا أحد يستطيع الهرب من سجن «السانتيه».

- لكن (أرسين لوبين)!

- هو بالتحديد أكثر من أي شخص آخر.

- فلنعطي احتمالًا ولو ضئيلًا، ماذا سيحدث إذا؟

ردَّ عليه بنفاد صبرٍ واضح:

- حسنًا، لو هرب سيكون ذلك أفضل بكثير، سوف ألقي القبض عليه ثانيًا، وحتى هذا الحين، نم بهدوء، ومن فضلك لا تُفزع هذه السمكة مرة أخرى.

انتهى الحديث، وعاد (البارون) إلى قصره مطمئنًا إلى حدٍّ ما، بسبب رد فعل (جانيمار) اللا مبالي، قام بفحص الأقفال، وتجسس على الخدم، كل شيء على ما يُرام، انقضت ثمان وأربعون ساعة أخرى، نجح بشكل ما خلالها في إقناع نفسه بأن كل مخاوفه كانت محطَّ أوهام كما قال (جانيمار)، لا يوجد لِصٌّ يحذر ضحيته قبل نهبها، اقترب التاريخ، وفي صباح الثلاثاء في تمام الثالثة عصرًا؛ أي قبل يوم واحد من التاريخ المذكور، قرع طفل جرس البوابة ومعه برقية صغيرة:

«لا توجد أي طرود في محطة «باتيجوني» فاستعد لمساء الغد».

توقيع (أرسين لوبين).

انتابه الرعب مرة أخرى لدرجة أنه تساءل: إن كان مخطئًا حين لم يذعن لمطالب (أرسين لوبين)؟

ركض إلى «كوديبيك» مرة أخرى، حيث وجد (جانيمار) يصطاد في نفس المكان، جالسًا على كرسي صغير قابل للطي، سلمه البرقية دون كلمة، سأل المحقق:

- وبعد؟

- بعد ماذا؟! إنه الغد!

- ماذا سيحدث؟

- السطو! سيسرق مجموعتي!

وضع (جانيمار) سنارته جانبًا، والتفَّ ناحية (البارون) عاقدًا ذراعيه فوق صدره، وصاح بضيق وجزع:

- هل تعتقد حقًّا بأنني سأهتم لمثل هذه القضية السخيفة؟

- ماذا تطلب مقابل قضاء ليلة الغد في قصري؟ كم تريد؟

- ولا فلسًا واحدًا، دعني وشأني.

- حدِّد أي مبلغ، أنا ثري، ثري للغاية.

أربك إغراء هذا العرض (جانيمار)، الذي استكمل حديثه بكل هدوء:

- أنا هنا في عُطلة رسمية، ولا يجوز لي التدخل.

- أتعهد إليك أنه لن يعرف أحد، سألتزم الصمت مهما حدث.

- أوه! لن يحدث هذا.

- هيا (جانيمار)، ثلاثة آلاف فرنك، ما رأيك؟

أطرق (جانيمار) مفكرًا، ثم أخذ نفَسًا عميقًا من غليونه، واستطرد قائلًا:

- ليكن، ولكن يحتم عليَّ الاعتراف، أن هذا المال سيضيع هباءً، وكأنك ألقيت به من النافذة.

- لا يهمني.

- في هذه الحالة، لا يمكننا الاطمئنان لهذا الشيطان (لوبين)، لا بد أن لديه عصابة كاملة تحت إمرته، هل أنت واثق من خدمك؟

- في الحقيقة ثقتي....

قاطعه بحزم:

- إذن لا يجب علينا الاعتماد عليهم، سأرسل تليغرافًا إلى زميلين لي، سيمدونا بالكثير من الأمان، والآن اذهب فيجب أن لا نُشاهَد معًا، نلتقي غدًا التاسعة مساءً.

في اليوم التالي، التاريخ الذي حدَّده (لوبين)، أعد (البارون) أسلحته وتجوَّل في القصر حاملًا إياها، لا يوجد شيء يُثير الريبة، وحين حلَّ المساء، صُرِف الخدم في الثامنة والنصف ليلًا، كانوا يعيشون على مقربة، في ملحق أمام الطريق، وبعد برهة فُتحت بوابات القصر وسُمِع صوت خُطى تقترب، تقدم (جانيمار) متوسطًا رجليه، وقدمهما إلى (البارون)، رجلان شديدان ذوا أيادٍ قوية، وعنقين عريضين كعنق الثور.

ثم طلب بعض المعلومات حول تصميم القصر، أغلق البوابة بحذر، ثم تفقد جميع المداخل التي يمكن من خلالها النفاذ إلى غرف القصر المهددة بالسرقة، فحص الجدران والأرضيات ثم أمر الرجال بالمثول أمام المدخل الرئيسي، قائلًا لهم:

- لا مجال للخطأ، نحن لسنا هنا للنوم، عند أقل إحساس بالخطر، افتحا النافذة واستنجدا بي، انتبهوا أيضًا لجانب النهر، فعشرة أمتار من جرف منحدر صخري لا يعوق هؤلاء الشياطين.

أغلق عليهم الأبواب وحمل المفاتيح معه قائلًا لـ(البارون):

- الآن جاء دورنا.

لقد اختار لقضاء الليلة غرفة صغيرة تتوسط الجدران السميكة للبابين

الرئيسيْنِ، والتي كانت فيما مضى حُجرة الحارس.

حُفر ثقبان في الجدار، الأول يطل على الجسر، والآخر يطل على الفناء، في إحدى زوايا هذه الغرفة يوجد تجويف عميق مثل فتحة بئر قديم.

قال (جانيمار) لـ(البارون):

- لقد أخبرتني سابقًا سيدي (البارون) أن هذه البئر هي المدخل الوحيد للقصر من تحت الأرض، وهي مسدودة على حد علمك.

- نعم.

- لذا فإن لم يكن هناك مدخل آخر نجهله جميعًا بخلاف (أرسين لوبين) وهذا يبدو غريبًا بعض الشيء، فنحن بخير.

صف ثلاثة كراسٍ بجوار بعضهم، وتمدد فوقهم بارتياح مشعلًا غليونه، وتنهَّد قائلًا:

- اسمح لي سيدي البارون، لولا أنه يجب عليَّ إضافة طابق آخر إلى المنزل الصغير الذي سوف أقضي به باقي أيام حياتي بعد التقاعد، ما كنت قبلت مثل تلك المهمة البسيطة، سأروي هذه القصة اللطيفة في يوم من الأيام لصديقي (أرسين لوبين)، وسيضحك مليًّا من قلبه.

لم يضحك (البارون)، فكان يصغي بتوتر للصمت الكائن من حوله، قلقه يتزايد، ومن وقت لآخر يتكئ على حافة البئر مُحدقًا بقلق في عمقه الهائل.

دقت الساعة الحادية عشرة، وفجأة أمسك بذراع (جانيمار) الذي استيقظ مذعورًا وقال له:

- هل تسمع؟

- نعم.

- ما هذا؟

- هذا صوتي، أنا أغط في أثناء نومي.

- لكن لا، استمع جيدًا.

- آه، هذا صوت سيارة.

- ماذا نفعل؟

- سيدي البارون، من غير المعقول أن يستخدم (أرسين لوبين) سيارة بمثل صوت المنجنيق كهذه إلا ليهدم بها قصرك، لو كنت مكانك سيدي لنمت قليلًا، أنا أيضًا سأستكمل نومي من جديد، طابت ليلتك.

كان هذا هو الحدث الوحيد، عدا ذلك مر الليل كله بهدوء، وعاد (جانيمار) بعد

ذلك لاستئناف غفوته المتقطعة، ولم يعد يسمع (البارون) سوى صوت غطيطه المنتظم، عند الفجر غادروا غرفتهم بسلام، وسط هدوء الصباح ومياه النهر الباردة المحيطة بالقصر، سار كاهورن مبتهجًا، و(جانيمار) بجواره مسالمًا، صعدا الدرج لا أثر لضجيج أو شيء يثير القلق.

قال (جانيمار) بثقة:

- بماذا أخبرتك سيدي البارون؟ في أعماقي أعترف بأني أشعر بالخجل لقبولي مثل هذه المهمة.

أدار المفتاح ودخل الصالة، كان الرجلان مستغرقين في النوم، منحنيين، أياديهما مهدلة بجوارهما.

صاح (جانيمار):

- يا للشيطان!

في نفس الوقت أطلق البارون صرخة ذهول، وصاح متلعثمًا كأنه يختنق:

- لوحاتي! خوان السفرة!

أخذ يتحسَّس أماكن اللوحات على الجدران الفارغة إلا من الحبال والمسامير عديمة النفع، اختفت لوحة واتو ومجموعة روبنز، السجاجيد المُعلقة انتزعت، الفاترينات الزجاجية فارغة من جواهرها، شمعدانات لويس السادس عشر، وشمعدان ديجينت، ولوحة عذراء القرن الثاني عشر، كل هذا اختفى، أخذ يهرول مذعورًا ويائسًا، راح يتذكر أمواله الباهظه التي أنفقها لاقتناء هذه الأشياء، ويحسب خسائره المتكبدة، يُتمتم بأرقام كبيرة وكلمات مُبهمة وجمل غير مُكتملة، ضرب الأرض بقدميه بغضب متفجر وألم هائل، بدا كأنه رجل مُحطم لم يبقَ أمامه سوى تفجير رأسه ليقضي على هذه الكارثة ويستريح.

لو كان رأى وجه (جانيمار) مندهشًا أو مذهولًا، لكان هذا أهدأ من روعه، ولكنه على عكس (البارون)، لم يبدُ عليه أي علامات ذهول، بقي جامدًا مرتبكًا بعض الشيء، عيونه مستغرقة في تفكير عميق يتفحص النوافذ المغلقة وأقفال الأبواب، كل شيء سليم لا وجود لأي فتحات في السقف ولا حُفر في الأرض، كل شيء منظبط بشكل مثالي، كل هذا كان وفقًا لخطة مُمنهجة وتنفيذ دقيق، تمتم بغل دفين:

- (أرسين لوبين)، إنه هو (أرسين لوبين).

وقفز إلى الرجلين يصب غضبه عليهما لكنهما لم يستيقظا، قال:

- يا للشيطان! أيمكن أن.....

انحنى يتفحصهما عن كثب، كانا نائمين، ولكن نومهما بدا غير طبيعي، قال للبارون:

- لقد أعطيا منومًا.

- لكن من فعل ذلك؟

- طبعًا هو، أو أحد أفراد عصابته، هذا أسلوبه وبصمته الخاصة.

- في هذه الحالة لقد هلكت، لا شيء يمكنني فعله.

- لا شيء.

- ولكن هذا جُرم بشع.

- قدِّم بلاغًا.

- وما الفائدة؟

- سيدي، لا بد من المحاولة، للقضاء وسائله أيضًا.

- القضاء؟ أنت ترى بنفسك، أنت هنا إلى جواري الآن حيث يمكنك البحث عن شيء ما واكتشاف أي دليل، ولكنك حتى لم تتحرك.

- اكتشاف شيء ما خلف (أرسين لوبين)، سيدي العزيز (أرسين لوبين) لا يترك وراءه أثرًا على الإطلاق، لا توجد صُدْفة مع (أرسين لوبين)، فأنا أتساءل أحيانًا إذا ما كان قد تركني ألقي القبض عليه في أمريكا متعمدًا.

- ولهذا فعليَّ التخلي عن لوحاتي وتُحفي وأموالي، هذه دُرَر مجموعتي التي سلبها مني، سوف أعرض ثروة للعثور عليها، فإن لم يكن هناك شيء يمكنني فعله فليقل الثمن الذي يريده لأسترجعها.

حدق فيه (جانيمار) قائلًا:

- هذا قول حكيم، ولكن ألن تتراجع؟

- لا لا أبدًا، لكن لماذا؟

- لقد راودتني فكرة.

- أي فكرة؟

- سأُحدثك عنها ما لم يُسفر التحقيق عن شيء، ولكن لا تذكر أي كلمة عني، إذا كنت تريدنا أن ننجح هذه المرة.

وأردف يقول بغيظ:

- فليس هناك ما أفخر به.

استعاد الرجلان وعيهما تدريجيًّا بنظرة ذهول محاولين استطلاع الأمر ومعرفة ما حدث، بدأ (جانيمار) في استجوابهما ولكنهما لا يتذكران شيئًا.

- مع ذلك، لا بد أنكما رأيتما شخصًا ما؟

- لا.

- تذكَّرا جيدًا.

- لا أبدًا.

- ألم تشربا شيئًا؟

- أخذا يتذكران، ثم قال أحدهما:

- نعم! القليل من الماء.

- ماء من الدورق؟

- نعم.

- أنا أيضًا.. أعلن الثاني.

تشمم (جانيمار) الماء وتذوقه، لم يكن له مذاق خاص ولا رائحة.

- إننا نُضيِّع الوقت، فلا نستطيع حل الألغاز التي يبتكرها هذا الشيطان لنا في خمس دقائق، ولكنني سوف أهزمه مرة أخرى بحق الشيطان، لقد فاز بالجولة الثانية، والأخيرة ستكون لي.

في نفس اليوم قدم (البارون كاهورن) شكوى سرقة ضد (أرسين لوبين) المُعتقل في سجن «السانتييه»، وندم كثيرًا جراء تقديمه هذه الشكوى، حيث وجد نفسه محاطًا برجال الشرطة ووكيل النيابة وقاضي التحقيقات والكثير من الصحفيين الفضوليين الذين أخذوا يتسللون إلى كل مكان داخل قصره، أماكن ليس من حقهم الدخول إليها، لا يفترض عليهم حتى رؤيتها.

أثارت هذه القضية الرأي العام بشكل كبير، فوقوعها خصيصًا في هذه الظروف وإقحام اسم (أرسين لوبين) فيها أثارخيال الجمهور لدرجة أن أكثر أعمدة الجرائد امتلأت بأكثر السيناريوهات غرابة، وللأسف لاقت استحسانًا كبيرًا من الجمهور، لكن رسالة (أرسين لوبين) الأولى التي نشرتها جريدة «إيكو دي فرانس»، ولم يعرف أحد مَنْ أبلغهم بها، تلك الرسالة التي تلقى فيها (البارون كاهورن) تهديدات (أرسين لوبين) الوقحة، أثارت انفعالًا ضخمًا لدى الناس، وعلى الفور بدءوا في إعطاء تفسيرات واستنتاجات مُرتبطة بوجود الأنفاق الشهيرة، حيث وجَّهت النيابة جهودها إلى هذا الدرب، انطلاقًا من هذا التفسير.

فُتِّش القصر من أعلاه إلى أسفله مستجوبين كل حجر من أحجاره، فُحصت المدافئ والأثاث الخشبي، إطارات النوافذ ودعائم السقف والنجف، وعلى أضواء المشاعل الخافتة، فُحصت الأقبية الضخمة حيث كان أُمراء «المالكيه» قديمًا يُخزنون ذخائرهم ومؤنهم؛ لكن كل هذه المجهودات ذهبت أدراج الرياح فلا وجود لأي ممر سريٍّ تحت الأرض، مما استوجب الرد على استفهامات الناس:

- حسنًا! ولكن الأثاث واللوحات لا تختفي من تلقاء نفسها مثل الأشباح، فلا بد من عبورها من خلال الأبواب أو النوافذ، ويحملها بعض الأشخاص الذين يدخلون بدورهم أيضًا من الأبواب أو النوافذ، من هؤلاء الأشخاص؟ كيف دخلوا؟ وكيف خرجوا؟

أعلنت النيابة عجزها حيال هذه القضية، طالبة الاستعانة بالمسئولين في باريس، وبناءً على هذا عهد السيد «ديدوا» رئيس البوليس إلى أفضل المحققين حل هذا اللغز، حتى إنه ذهب بنفسه لقضاء ثمانية وأربعين ساعة داخل قصر البارون، ولم يتوصل لشيء هو الآخر، ثم لجأ أخيرًا إلى استدعاء (جانيمار) كبير المحققين، والذي استجاب فورًا لطلبه، تقديرًا لخدمات سابقة قدمها له في بعض الأحيان.

استمع (جانيمار) بصمت إلى حديث رئيسه، ثم أومأ برأسه قائلًا:

- أعتقد أننا نسلك الطريق الخطأ بالإصرار على البحث داخل القصر، فالحل يكمن ببساطة في مكان آخر.

- أين برأيك؟

- عند (أرسين لوبين).

- (أرسين لوبين)؟ أنت إذن تثبت فرضية تدخله في القضية؟

- نعم، أعترف بذلك، بل أنا على ثقة من هذا الأمر.

- ما بالك (جانيمار)؟ (أرسين لوبين) في السجن!

- نعم، أعلم هذا جيدًا، (أرسين لوبين) في السجن تحت رقابة مشددة، ولو علمت أيضًا أنه توجد سلاسل حديدية تُقيد قدميه، وحبال غليظة تشُد معصميه، وكمامة سميكة تغلق فمه، فلن يغير هذا رأيي أبدًا.

- ولمَ أنت مُصِرٌّ هكذا؟

- لأن (أرسين لوبين) الوحيد القادر على وضع خطة كهذه، وتنفيذها بوسائل غامضة على طريقته، والنجاح بسهولة وبدون أثر مثلما حدث.

- كلمات مجردة دون أي دليل، هذا عبث يا (جانيمار)!

- هذه هي الحقيقة، ها نحن نُضيّع الوقت داخل الأقبية، تحت الأرض، بين أحجار قابعة فوق دعائمها منذ الأزل، وهراء من هذا القبيل، بينما رجلنا لا يتبع هذه الأساليب التقليدية، إنه من جيل اليوم أو بالأحرى جيل الغد.

- وبماذا تُوصي حاليًّا؟

- بعد إذن سيادتك، أطلب تصريحًا رسميًّا منك لقضاء ساعة معه.

- في زنزانته؟

- نعم، ففي طريق عودتنا من أمريكا، دار بينا حديث ودي، فقد أخبرني بأنه يُكِنُّ بعض التقدير لمن ألقي القبض عليه، وإذا كان بإمكانه تزويدي بمعلومات تهمني دون السماح لنفسه بالتورط في أي شيء، فسوف يجنبني تضييع الوقت في خوض رحلة غير مُثْمِرة.

بعد الظهر بقليل، دخل (جانيمار) زنزانة (أرسين لوبين)، فرفع الأخير رأسه بينما كان ممدَّدًا فوق فراشه، وأطلق صيحة فرح حقيقية قائلًا:

- أووه! يالها من مفاجأة سعيدة! عزيزي (جانيمار) هنا! لقد تمنيت أشياء كثيرة في منتجعي الخاص هذا، لكن لا يوجد ما يبهجني أكثر من استقبالك.

- أشكرك، هذا كرم منك.

- لا أبدًا، فأنا أقدرك كثيرًا حقًّا.

- كم أتشرف بهذا!

- أنا أقول مرارًا إن (جانيمار) هو أفضل محقق لدينا، يكاد يضاهي (شرلوك هولمز)، أنت تعلم كم أنا صريح، ولكن اعذرني ليس لديَّ سوى هذا المقعد أقدمه لك، لا يوجد هنا أي مرطبات أو حتى كأس من الجعة، فأنا هنا مجرد ضيف مثلك.

جلس (جانيمار) مبتسمًا بينما استمر السجين في مواصلة كلامه:

- يا إلهي! كم أنا سعيد برؤية رجل شريف مثلك! لقد سئمت من وجوه هؤلاء المراقبين والمتجسسين الذين يمرون بزنزانتي عشرات المرات في اليوم لتفتيشها وتفتيش جيوبي للتأكد من أنني لا أُخطِّط للهرب، ياللعنة! ماذا تريد الشرطة مني أكثر من هذا؟

- إنها على حق.

- لماذا؟ بل على العكس، سأكون ممتنًّا جدًّا لو تركوني أحيا بهدوء في ركني الصغير هذا.

- بأموال الآخرين؟!

- لِمَ لا؟ إنه لشيء بسيط، أوه! إنني ثرثار بعض الشيء، سأضيع وقتك في التفاهات، ولا بد أنك على عجلة من أمرك، هيا (جانيمار)! لماذا حصلت على شرف زيارتك؟

قال (جانيمار) بصراحة مباشرة:

- قضية (كاهورن).

- أمهلني لحظة من فضلك، فأنا أعمل على الكثير من القضايا في الوقت الحالي، فاسمح لي بإيجاد ملف قضية (كاهورن) في ذهني أولًا، آه! تذكرت، ها نحن ذا، قصر «مالكيه»، نهر السين، لوحتان روبنز، وواحدة واتو، وبعض

المتعلقات التافهة.

- تافهة؟

- أوه! ياإلهي! هذه كلها أشياء تافهة عزيزي (جانيمار)، هناك ما هو أفضل، ولكن يكفيني أن القضية أثارت اهتمامك، هيا ادخل في صلب الموضوع.

- هل عليَّ أن أخبرك أين توقف التحقيق؟

- لا، لست بحاجة إلى ذلك، فلقد قرأت الصحف هذا الصباح، سأخبرك بأنكم لم تقتربوا حتى.

- ولهذا السبب جئتُ إليك.

- في خدمتك.

- بدايةً، هل جرت هذه العملية تحت قيادتك؟

- من الألف إلى الياء.

- وخطاب التهديد؟

- تخطيطي المتواضع وتنفيذي، وأحتفظ بالإيصالين في مكان ما.

فتح (أرسين لوبين) درجًا صغيرًا لمنضدة خشبية بيضاء، تُشكل بالإضافة إلى السرير والمقعد كل أثاث الزنزانة، ورقتين مطويتين سلمهما إلى (جانيمار).

قال (جانيمار) بنبرة اندهاش:

- لقد ظننتك مُراقبًا بشدة، وتُفتَّش بسبب وبدون سبب، لكن كما أرى، فإنك تقرأ الصحف، وتجمع إيصالات البريد.

- ياه! هؤلاء الناس أغبياء جدًّا، لقد قاموا بفك بطانة سترتي ونعل حذائي، وفحصوا جدران زنزانتي، لم يجُل بخاطر أحد منهم أن (أرسين لوبين) كان غبيًّا بما يكفي لاختيار مثل هذا المكان السهل لإخفاء شيء ما، وهذا ما اعتمدت عليه.

صاح (جانيمار) باستمتاع:

- يالك من فتى مُسلٍّ، تثير حيرتي كثيرًا، هيا أخبرني القصة بأكملها.

- أوه! أوه! رويدك قليلًا، تريدني أن أكشف لك عن أسراري وحيلي الصغيرة؟ هذا خطير!

- هل كنت مخطئًا عندما طعمت في كرمك؟

- لا (جانيمار)، لا تقُل هذا، بما أنك تصر....

أخذ (أرسين لوبين) يتمشى في الزنزانة ذهابًا وإيابًا عِدَّة مرات، ثم توقف فجأة

وسأل (جانيمار):

- ما رأيك في رسالتي للبارون؟

- أعتقد أنك أردت بها التسلية قليلًا، وإثارة إعجاب الناس.

- حقًّا! إثارة إعجاب الناس؟ حسنًا، لقد اعتقدت بأنك أكثر ذكاءً من هذا يا (جانيمار)، هل (أرسين لوبين) بحاجة إلى تلك الحماقات؟ هل كنت سألجأ إلى كتابة مثل تلك الرسالة، لو كان بإمكاني سرقة البارون دون كتابتها؟ يجب عليك فهم ذلك أنت والآخرون، هذه الرسالة هي نقطة الانطلاق، الزنبرك الذي قام بتشغيل الآلة بأكملها، فلنفكر معًا إذن من البداية ونرتب الأمر جيدًا، إذا كنت تريد سرقة قصر «المالكيه».

- كلي آذانٌ مُصغِية.

- فلنفترض أن هناك قصرًا مُغلقًا تمامًا ومحصنًا جيدًا مثل قصر البارون، هل سأتخلى عن المغامرة، وأتنازل عن الكنوز الذي أطمع بها لمجرد عدم تمكني من دخول القصر؟!

- من الواضح أن لا.

- هل أبدأ الهجوم بقيادة عصابة ما كما كان يحدث قديمًا؟

- طريقة بدائية.

- هل أبدأ بالتسلل وحيدًا؟

- مستحيل.

- هناك طريقة واحدة إذن، وهي إجبار صاحب القصر المذكور نفسه على استضافتي.

- حيلة جيدة.

- وسهلة للغاية، لنفترض أن المالك المذكور تلقى يومًا ما رسالة تهديد من لص مشهور يدعى (أرسين لوبين) يتآمر ضده، فماذا سيفعل؟

- سيلجأ للمدعي العام.

- والذي بدوره سيهزأ به؛ لأن (أرسين لوبين) بالفعل خلف القضبان، سيصاب الرجل بالذعر ويلجأ لطلب المساعدة من أول شخص يظهر أمامه، أليس هذا صحيح؟

- لا شك في ذلك.

- وإذا صادف وقرأ في الجريدة أن هناك محققًا مشهورًا يقضي إجازته في المدينة؟

- سيذهب إليه فورًا.

- لقد قلت ذلك بنفسك إذن، وتحسُّبًا لهذه الخطوة الحتمية طلب (أرسين لوبين) من أحد أصدقائه الماهرين الاستقرار في «كوديبيك» وبناء صداقة مع محرري جريدة «ريفيفال» المحلية، التي يشترك فيها البارون، ويتظاهر أمام هذا الصحفي أنه مفتش مشهور جاء زيارة للمدينة، فماذا سيحدث؟

- سينشر الصحفي هذا الخبر في جريدته.

- تمامًا، وبالتالي سيحدث أحد الأمرين، أن لا تلتقط السمكة الطُّعم- والذي أعني بها البارون- ولا يحدث شيء، أو الفرضية الأكثر ترجيحًا وهي أن يركض كاهورن مُسْرعًا إلى المفتش، فنجد في النهاية أن (كاهورن) يستجدي المساعدة ضدي من أحد أصدقائي.

- يا لها من حيلة مُقنعة!

- من الطبيعي أن يرفض الشرطي الزائف في البداية تقديم المساعدة، وعندما أثار (أرسين لوبين) رُعب البارون مُجددًا، ذهب هذا الأخير مرة أخرى إلى صديقي يتوسل إليه، ويقدم له مبلغًا ضخمًا محاولًا إقناعه، فيضطر صديقي أن يقبل مُرغمًا، ويستعين باثنين من زملائنا يقومان ليلًا بحزم عدد معين من الأشياء وإنزالها من النافذة باستخدام الحبال في زورق صغير أُجِّرَ خصيصًا لهذه المهمة، بينما (البارون) قابع تحت عين صديقي ليحميه، أترى؟ أمر سهل للغاية مثل كل أعمال (أرسين لوبين).

رد (جانيمار) بعيون مذهولة ونبرة لا تخلو من الاندهاش:

- رائع! لا يمكنني الإشادة أكثر بجرأة تنفيذ العملية ودقة التفاصيل، لكني لا أرى شرطيًّا مشهورًا بما يكفي ليجذب اسمه انتباه (البارون) لتلك الدرجة، ودفعه إلى سرعة الاستنجاد به.

- بالطبع يوجد، وهو واحد فقط.

- من هو؟

- عدو (أرسين لوبين) اللدود، والأكثر شُهرة (جانيمار).

- أنا؟

- نعم، أنت نفسك يا (جانيمار)، وإليك أطرف ما في الأمر، إذا ذهبت إلى هناك، وقرر البارون أن يعترف، فستجد نفسك مضطرًّا إلى إلقاء القبض على (جانيمار)، إلقاء القبض على نفسك، كما ألقيت القبض على في أمريكا، هذا انتقام فكاهي، لقد جعلت (جانيمار) يلقي القبض على نفسه.

أخذ (أرسين لوبين) في الضحك بحرارة، بينما نظر إليه المحقق بانزعاج وعض على شفتيه بغل، لم تبدُ له هذه المزحة تستحق كل هذا السرور.

أتاح له وصول الحارس وقتًا لاستعادة رابطة جأشه، لقد أتى بوجبة الطعام التي أوصى بها (لوبين) خصيصًا من المطعم المجاور، وانصرف بعد أن ترك الصينية على المنضدة.

جلس (أرسين لوبين) ليتناول الطعام، كسر الخبز، وأكل قطعتين أو ثلاث ثم أردف قائلًا:

- اطمئن عزيزي (جانيمار)، لم يعد هناك داعٍ لتذهب إلى القصر، سأخبرك بشيء مدهش، قضية (كاهورن) على وشك الحفظ.

- ماذا؟

- كما قلت لك، إنها على وشك الحِفْظ.

- كيف هذا؟ لقد جئتك حالًا من عند رئيس الشرطة.

- وماذا بعد؟ هل يعرف السيد «ديبوا» عن أمري أكثر مني؟ سوف تعلم يا (جانيمار) أن جانيمار الزائف ـعفوًاـ ظل على علاقة جيدة للغاية مع البارون، وهذا هو السبب الرئيسي لبقاء (البارون) صامتًا، كل هذا الوقت، ولم يعترف بشيء، فقد كلف البارون (جانيمار) الزائف بمهمة سرية للغاية، التفاوض معي بشأن صفقة، وهي استرداد أشيائه مقابل مبلغ معين، فبينما نحن نتحدث الآن، من المحتمل أن يكون البارون قد استرد ممتلكاته الثمينة، مقابل مبلغ محدد من المال وأيضًا سحب شكواه التي قدمها ضدي، فلا مزيد من السرقات، انتهت القضية وستضطر النيابة للانسحاب.

نظر (جانيمار) إلى السجين بذهول، ثم قال:

- ومن أين لك بهذه المعلومات؟

- لقد تلقيت للتو الرسالة التي كنتُ أنتظرها؟

- تلقيت رسالة؟

- في هذه اللحظة تمامًا يا عزيزي، لم أرد أن أقرأها أمامك من باب الأدب واللباقة، ولكن هل تسمح لي؟

- أتمزح معي يا (لوبين)؟!

- إطلاقًا، من فضلك يا صديقي العزيز، اكسر قشرة هذه البيضة برفق، وسترى بنفسك أنني لا أمزح معك.

نفذ (جانيمار) طلب (أرسين لوبين) وكسر البيضة بشفرة السكين فأفلتت منه صرخة مفاجئة، احتوت قشرة البيضة على ورقة صغيرة زرقاء فتحها وكانت عبارة عن برقية، أو بالأحرى جزء صغير من برقية، نزع منها ختم البريد، ثم قرأ:

- تمت الصفقة بنجاح، تم استلام مائة ألف ورقة، كل شيء على ما يرام.

ثم أردف مذهولًا:

- مائة ألف ورقة!

- نعم، مائة ألف فرنك، ليس بالكثير، ولكن هذه الأيام صعبة، ولديَّ مسئوليات كثيرة ونفقات باهظة، فأنت تعلم حجم ميزانيتي، تعادل ميزانية مدينة.

نهض (جانيمار) وقد تبدَّد مزاجه السيئ، فكر بضع ثوانٍ، ثم استعاد الأمر برمته محاولًا إيجاد ثغرة، ثم قال وهو لا يستطيع إخفاء نبرة الإعجاب في صوته:

- من حُسن الحظ، أنه لا يوجد رجل مثلك وإلا سنضطر للتخلي عن العمل.

رد (أرسين لوبين) مصطنعًا القليل من التواضع:

- كان لا بد من الاستمتاع قليلًا، وملء وقت فراغي، ثم إن هذه العملية لم تكن لتتم إلا إذا كنت في السجن.

صاح (جانيمار):

- كيف ذلك؟ ألا يكفيك قضيتك الأصلية؟ التحقيقات والدفاع، ألا يملأ كل هذا وقت فراغك؟

- لا، لأنني قررت عدم حضور محاكمتي.

- ماذا؟ تمْتَم (جانيمار) بذهول.

كرر (لوبين) بهدوء:

- لن أحضر محاكمتي.

- حقًّا؟

- أتتخيل يا عزيزي أنني سأبقى هنا أتعفن على هذا الفراش الرطب منتظرًا، أنت تُقلِّل من شأني، سيبقى (أرسين لوبين) في السجن طالما أراد ذلك فقط، ولا دقيقة إضافية.

عارضه المحقق بلهجة ساخرة:

- لو كنتَ حريصًا أكثر ما كنت دخلته من البداية.

- آه، كم هذا مُضحك! أما زلت تعتقد يا سيدي أنك تشرفت بمهمة اعتقالي؟ تيقَّن يا صديقي العزيز أنه لا يمكن لأحد أبدًا بما فيهم أنت أن يضع يده عليَّ في أي وقت إلا لو كانت هناك مصلحة كبيرة لي في حدوث ذلك.

- أنت تُثير دهشتني بشدة!

- كانت هناك امرأة تنظر إليَّ يا (جانيمار)، امرأة أحبها، هل تفهم واقع ما يحدث لك عندما تنظر إليك امرأة تُحبها؟ أقسم لك لم يهمني الباقي أبدًا وقتها، لهذا السبب أنا هنا.

- عذرًا، حدث هذا منذ وقت طويل.

- كل ما أردته في البداية هو أن أنساها، لا تسئ الظن بي، لقد كانت رحلة ساحرة وما زلت أحتفظ بذكريات جميلة عنها، ولكني شخص عصبي للغاية، وحياتي مضطربة جدًّا، يوجد أوقات تحتاج فيها لما يسمى بالحبس الانفرادي، وهذا طبعًا أنسب مكان للقيام بذلك، نحن هنا نمارس علاجًا نفسيًّا صحيًّا بكل صرامة.

- (أرسين لوبين) أنت تهزأ بي!

- (جانيمار)، اليوم هو الجمعة، الأربعاء المقبل سأدخن سيجارًا معك، حيث تجلس دائمًا في شارع «بيرغوليز» بجوار منزلك، في تمام الرابعة بعد الظهر.

مَدَّ يده مصافحًا:

- (أرسين لوبين)، أنا في انتظارك.

تصافحا وكأنهما صديقان مُقربان يُقدِّر كل منهما الآخر، وتوجه الشرطي العجوز إلى الباب.

- (جانيمار)! صاح (لوبين).

استدار قائلًا:

- ماذا هناك أيضًا؟

- لقد نسيت ساعتك.

- ساعتي؟

- نعم، وجدتها بجيبي.

أعادها معتذرًا:

- سامحني، عادة قديمة سيئة، إنهم أخذوا ساعتي، ولكنه ليس مبررًا لأسلبك خاصتك، فلديَّ ساعة هنا تُلبِّي احتياجاتي وليس لديَّ سبب للتذمر.

أخرج من الدرج ساعة ذهبية كبيرة ذات سلسلة سميكة وثقيلة.

- من أي جيب أتت هذه؟

قام (أرسين لوبين) بفحص الأحرف المحفورة على الساعة ثم قال:

(ج.ب) من يكون هذا بحق الجحيم؟ آه، تذكرت، «جول بوفين» قاضي التحقيق الذي استجوبني، إنه رجل ظريف حقًّا.

هروب (أرسين لوبين)

بعد أن أنهى (أرسين لوبين) وجبته، تناول سيجارًا فاخرًا محاطًا بحلقة ذهبية من درج المنضدة بجواره، وأخذ يتفحصه جيدًا بين أصابعه، وقبل أن يُفتح باب الزنزانة تمكن من رميه في الدرج والابتعاد عن المنضدة بحركة سريعة، دخل الحارس مُعلنًا ساعة الخروج إلى ساحة السجن للتمشي، فصاح (أرسين لوبين) بنبرة مرحة:

- كنت أنتظرك يا صديقي!

خرجوا من الزنزانة وبمجرد أن اختفوا عند زاوية الممر، حتى دخل رجلان الزنزانة وشرعا في تفتيشها، كان أحدهما المفتش (ديوزي) والآخر (فولنفانت)، كان عليهما إنهاء هذا الأمر، فلم يكن هناك شك أن (أرسين لوبين) على تواصل بأحد ما خارج السجن، ففي اليوم السابق نشرت الجريدة الكبرى هذا المقال الموجَّه إلى مساعده القضائي:

«سيدي، لقد ظهر مقال في الآونة الأخيرة يتحدث فيه عني بعبارات غير لائقة، قبل أيام من محاكمتي سآتي لمحاسبتك، مع خالص تحياتي واحترامي».

ثبت أنه خط (أرسين لوبين)؛ لذا فهو يتواصل كتابيًّا مع أحد يرسل ويتلقى الخطابات؛ لذا من المؤكد أنه يُعد خطة الهروب الذي أعلن عنه بطريقته المتغطرسة، أصبح الوضع مُذريًا.

بالاتفاق مع قاضي التحقيقات توجَّه رئيس الأمن العام السيد (ديدوا) بنفسه إلى سجن «السانتيه» ليناقش مع مأمور السجن الإجراءات الواجب اتخاذها، وبمجرد وصوله إلى السجن أرسل اثنين من المفتشين إلى زنزانة (لوبين) لتفتيشها.

رفعا مرتبة السرير، وفكَّكا الألواح الخشبية، قاما بالروتين المُعتاد للتفتيش في مثل تلك الحالات، ولم يتوصلا لشيء في النهاية، كانا على وشك إنهاء التفتيش عندما أسرع أحدهم قائلًا:

- الدرج، انظر داخل درج الطاولة.

صاح (ديوزي):

- يا إلهي! لقد تمكنَّا منه هذه المرة.

- تمهَّل قليلًا، سيقوم الرئيس باستكمال البحث.

- ولكن هذا السيجار الفاخر؟

- اتركه، سأخبر الرئيس.

بعد دقيقتين دخل السيد (ديدوا) الزنزانة وأمسك بالسيجار، وَجَد بداخل الدرج مجموعة من المقالات الصحفية المقطوعة من الجرائد، كلها تذكر (أرسين

لوبين)، وكيس من التبغ وغليون، وأوراق ناعمة للف السجائر، وكتابين.

نظر إلى العناوين، كان هناك كتاب لـ(كارلايل) بعنوان «عقيدة الأبطال» في نسخته الإنجليزية والكتاب الثاني بعنوان «أبكتاتوس» في نسخته الألمانية، تفحصهما جيدًا فوجد جميع الصفحات مهترئة، لقد قُرئا أكثر من مرة، ووضع خطوط تحت بعض الكلمات والعبارات، بالإضافة إلى تعليقات جانبية على هوامش الصفحات، أهي علامات متفق عليها أم مجرد تقليد روتيني يظهر حماسة القارئ للكتاب؟ قال السيد (ديدوا):

- سنعرف كل هذا بالتفصيل.

تفحص كيس التبغ والغليون جيدًا، ثم أمسك السيجار ذا الحلقة الذهبية قائلًا:

- اللعنة! صديقنا بخير حال، هو يدخن سيجار ماركة «هنري كليت»!

وبحركة آلية لمتمرس قديم قربها من أذنه وهزها قليلًا، وسرعان ما بدت الدهشة على وجهه، ضغط السيجار بين أصابعه فارتخى قليلًا وأحس به لينًا، نظر إلى داخله فاكتشف شيئًا أبيض بين التبغ، وبهدوء باستخدام دبوس أخرج لفافة الورق التي كانت بحجم عود أسنان، لقد كانت برقية متناهية الصغر مسطورة بخط امرأة رقيق.

«استُبدلت السلة بالأخرى، ثمانية من كل عشرة مستعدين، بالضغط على القدم الخارجية ترفع اللوحة من أعلى إلى أسفل كل يوم الثانية عشرة إلى السادسة عشرة، هـ ب ستنتظر ولكن أين؟ برجاء الرد فورًا، لا تقلق هناك صديقك القديم يهتم بك».

فكر السيد (ديدوا) قليلًا ثم قال:

- واضحة بما فيه الكفاية، السلة الخانات الثماني، من الثانية عشرة إلى السادسة عشرة، أي من الظهر حتى الرابعة عصرًا.

- ولكن ما هذا الـ «هـ ب»؟ ومن سينتظر؟

- «هـ ب» من الممكن أن تعني السيارة، أليس في لغة الرياضيات «horse power» تعبير عن سرعة السيارة؟

نهض سائلًا:

- هل كان المسجون يتناول غذاءه؟

- نعم.

- بما أنه لم يقرأ الرسالة، كما هو واضح من السيجار، فمن المؤكد أنه قد تلقَّاها للتو.

- كيف؟

- في طعامه وسط الخبز أو البطاطس، من يدري؟

- مستحيل! لقد سمحنا له بإحضار الطعام فقط لنوقعه في الفخ ولم نجد شيئًا، لقد فحصنا طعامه جيدًا جدًّا.

- الليلة سننتظر رد (أرسين لوبين) على هذه البرقية، في الوقت الحالي حاولوا إبقاءه بعيدًا عن زنزانته، سآخذ هذه الرسالة إلى قاضي التحقيق، وإذا كان رأيه مثلي ووافق على رأيي فسنقوم بتصوير الرسالة في غضون ساعة، يمكننا إعادة وضع سيجار مماثل في الدرج بعد أن نضع البرقية الأصلية بداخلها كما كانت، فلا يجب أن يشك السجين في أي شيء إطلاقًا.

عاد السيد (ديدوا) إلى السجن مرة أخرى ليلًا برفقة المفتش (ديوزي)، وفي أحد أركان المطبخ كان هناك ثلاثة أطباق بهم بقايا طعام، فسأل:

- هل آكل؟

رد المأمور:

- أجل.

- ديوزي من فضلك، قَطِّع شرائط المكرونة إلى قطع صغيرة وافتح رغيف الخبز هذا، ها؟ ألا يوجد شيء؟

- لا شيء.

قام السيد (ديدوا) بفحص الأطباق والشوكة والمعلقة والسكين، كانت السكين بشفرة مستديرة، لوى المقبض إلى اليسار ثم إلى اليمين ثم فكه كان مجوفًا من الداخل وبداخله ورقة ملفوفة بعناية، فقال:

- ليست هذه حيلة ذكية كفاية لرجل مثل (أرسين لوبين)، دعونا لا نضيع الوقت، أنت (ديوزي) اذهب وافتح تحقيقًا عاجلًا مع طاقم العمل في هذا المطعم.

ثم أخذ يقرأ:

«أنا معتمد على «هـ ب»، سأراقبها عن كثب كل يوم وسأسبقها، أراكِ قريبًا أيتها الصديقة العزيزة».

صفق السيد (ديدوا) بيديه صائحًا:

- أخيرًا: أعتقد أننا نسير على الطريق الصحيح، مجرد مساعدة صغيرة من جانبِنا، ويتمكن من الهروب، سنتمكن وقتذاك من القبض على أعوانه.

اعترض المأمور قائلًا:

- ماذا لو أفلت (أرسين لوبين) من بين أيدينا؟

- سوف نقوم بتعيين الكثير من الرجال لمراقبته جيدًا، فإذا أراد أن يتفوق على

مهارتنا ويتخطانا فيا له من أحمق، أما باقي عصابته، فإذا رفض زعيمهم الحديث فسأتمكن من جعلهم يتحدثون.

في الواقع لم يتحدث (أرسين لوبين) في الآونة الأخيرة كثيرًا، فعلى مدى شهور حاول قاضي التحقيقات «جول بوفيه» عبثًا أن يسحب منه بعض الاعترافات، ولكن اقتصرت الاستجوابات على بعض العبارات المقتضبة بين القاضي والمحامي المدافع عنه، الأستاذ (دوفال) واحد من أشهر المحامين، ولم يستطع بدوره ان يظفر بشيء من (لوبين)، فمن وقت لآخر كان يتحدث ببعض الجُمَل البسيطة لا لشيء سوى إظهار بعض الاحترام:

- نحن متفقون تمامًا يا سيدي القاضي أن سرقة بنك الكريدي ليونيه، وسرقة شارع بابلون، وإصدار الأوراق المالية المزيفة، ووثائق التأمين، والسطو على قصر الميسينيل، ودي جورن، وإمبلفين، وجروزبي، ومالكيه، كل هذا تخطيط وتنفيذ خادمك المتواضع.

- إذن يمكنك إعطائي بعض التفاصيل.

- لا فائدة من ذلك؛ فأنا أمامك ها هنا أعترف بكل شيء وأكثر من ما تفترض بعشرات المرات.

تعب القاضي من إرهاق الاستجوابات المُمِلَّة، وبعد معرفته بأمر البرقيتين أمر باستدعاء المسجون مرة أخرى واستجوابه، فاستدعي في الظهيرة ليحضر من سجن السانتيه في سيارة السجن مع عدد معين من المساجين، وغادر في تمام الثالثة أو الرابعة، ولكن هذه العودة وقعت في ظروف خاصة، فنظرًا لتأخر استجواب المساجين الآخرين، تقرر عودة (أرسين لوبين) وحيدًا في العربة إلى السجن، ركب بمفرده في إحدى العربات الضخمة التي يطلقون عليها «عربة السَّلطة»، نظرًا لما تحتويه دائمًا من كمية كبيرة من المساجين المتكدسين، فهي تنقسم بالطول إلى ممر مركزي طويل به عشر خانات خمس إلى اليمين، وخمس إلى اليسار، مُصمَّمة بالطول حيث يجلس كل مسجون فوق الآخر، يفصلهم عن بعض قواطع حديدية متوازية، بينما يجلس حارس الأمن في آخر العربة يراقب الممر جيدًا، دخل (أرسين لوبين) إلى الزنزانة الثالثة جهة اليمين وانطلقت السيارة. أدرك أنه يُغادر ميدان الساعة ويمر بقصر العدل، ثم في أثناء عبور جسر سان ميشيل ضغط بقدمه اليمنى على الصفيحة المعدنية التي تُغلق خانته من الجهة الداخلية، فابتعد اللوح المعدني بشكل تلقائي، وتأكد من أن مكانه يقع بين العجلتين، انتظر وعيناه في حالة تأهب، سارت السيارة في شارع القديس ميشيل، وعند مفترق طُرق سان جيرمان توقفت، فقد سقط حصان إحدى العربات بالطريق، فتعطلت حركة المرور، وسرعان ما حدث ازدحام مروري وتكدست الحافلات العامة، أخرج (أرسين لوبين) رأسه قليلًا ليتفحص الوضع، فرأى عربة سجن أخرى متوقفة بجوار السيارة التي كان على متنها، رفع الصفيحة المعدنية قليلًا واضعًا قدمه على إحدى العجلات ثم قفز إلى الأرض، رآه أحد سائقي عربات

الأجرة، ضحك وصاح يستنجد ولكن ضاع صوته وسط صخب السيارات والمارة، إلى جانب ذلك كان (أرسين لوبين) قد ابتعد بالفعل، خطا بعض الخطوات السريعة ثم أخذ يركض، استدار عندما بلغ الرصيف المقابل ونظر حوله، بدا وكأنه يلتقط أنفاسه ويستجمع قواه ليتأكد من الاتجاه الذي سيسلكه ثم وضع يده في جيوبه بكل ثقة وسار كأنه يتنزه في الهواء الطلق بكل أريحية، كان الطقس معتدلًا جميلًا في الخريف، المقاهي مزدحمة فجلس في شرفة أحدها وطلب قدحًا من الجعة وعلبة من السجائر، شرب قدحه في رشفات صغيرة مُدخنًا سيجارته بهدوء ثم أشعل الثانية، وحين همَّ بالنهوض طلب من الجرسون التحدث مع المدير، فجاءه مدير المقهى، قال له بصوت عالٍ متعمدًا ليسمع جميع من حوله:

- أنا متأسف جدًّا يا سيدي، لقد نسيت محفظتي، ربما يكون اسمي كافيًا لك لتمنحني مُهلة بعض الأيام لأدفع لك الحساب «أرسين لوبين».

نظر إليه المدير بدهشة معتقدًا أنها مجرد مُزحة، لكن (أرسين لوبين) كرر مرة أخرى:

- (أرسين لوبين) المسجون الحالي بسجن السانتيه، ولكنه هارب مؤقتًا، أنا على يقين أن هذا الاسم يمدك بالثقة الكافية.

ومضى مبتعدًا وسط الضجيج، ومن الناحية الأخرى لم يفكر الرجل في الاعتراض.

عبر شارع سوفلو مارًّا بمنعطف واحد، ثم سار في شارع سان جاك بسلام، وتوقف أمام الزجاج الأمامي لأحد المحلات، ودخن سيجارة عند حي الباب الملكي «بورترويل»، استعلم عن شيء ما ثم توجه مباشرة إلى سجن السانتيه مرة أخرى، وسرعان ما ظهرت أمامه جدران السجن العالية، سار بمحاذاتها ثم توجه إلى الحارس الذي يقف أمام البوابة الرئيسية، خلع قبعته وسأل:

- أهذا هو سجن السانتيه؟

- نعم.

- أريد أن أعود إلى زنزانتي من فضلك، لقد تركتني عربة السجن في الطريق، ولا أريد إساءة التصرف.

زمجر الحارس بضجر:

- هيا يا رجل امضِ في طريقك فورًا.

- آسف، ولكن طريقي يمر عبر هذا الباب، فإذا منعت (أرسين لوبين) من المضي في طريقه إلى الداخل سيكلفك هذا الكثير يا صديقي، صدقني.

- (أرسين لوبين)؟ ما هذا العبث؟ ماذا تقول أيها الرجل؟

قال (أرسين لوبين) وهو يتصنع البحث في جيوبه:

- متأسف لأني لم أُحضِر بطاقتي.

نظر إليه الحارس من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه دون أن ينبس ببنت شفة، كما لو أنه مُجبر اضطر لقرع جرس ما، ففتح الباب الحديدي على مصرعيه، وبعد بضع دقائق جاء المأمور مسرعًا من مكتبه تبدو عليه أمارات الغضب الشديد فأخذ (أرسين لوبين) يبتسم باستهزاء ثم قال:

- هيا أيها المأمور، كُفَّ عن التظاهر أكثر من ذلك، لقد حرصوا جيدًا على إعادتي وحيدًا في السيارة واختلقوا ازدحامًا مروريًّا لمساعدتي على الهرب متصورين أني سأذهب إلى رفقائي، فرجال الشرطة والعشرون مُخبرًا الذين كانوا يراقبوني سيرًا على الأقدام أو فوق دراجاتهم ما كانوا ليتركوني أخرج حيًّا من السيارة، أخبرني يا سيدي، هل كنتم تنوون هذا حقًّا؟!

لم يرد عليه المأمور، فاستأنف قائلًا:

- من فضلك يا سيدي لا داعي لكل هذا الاهتمام، ففي اليوم الذي سأنوي فيه الهرب لن أحتاج لأحد.

بعد يومين نشرت جريدة «إيكو دي فرانس»، التي أصبحت الناشر الرسمي لكل أخبار ومآثر (أرسين لوبين)، لدرجة الاعتقاد أنه أحد المساهمين في هذه الصحيفة، نشرت التفاصيل الكاملة لمحاولة الهروب، النصوص الأصلية للرسائل المتبادلة بين السجين وصديقته الغامضة، الوسائل المستخدمة في هذه المراسلات، تواطؤ الشرطة، التنزه في شارع سان ميشيل، حادثة مقهى سوفلو، ومن ثم الكشف عن كل شيء.

كان معروف أن التحقيق الذي أجراه المحقق (ديوزي) مع أفراد عمل المطعم لم تُسفر عن أي شيء، كما أن سيارة السجن التي نُقِل بها لم تكن حقيقية، فقد أخذت عصابته بدلا منها سيارة من سيارات السجن القديمة المتعددة، كل هذا أظهر التنوع اللا متناهي لمصادر هذا الرجل، لم يعد هروب (أرسين لوبين) محل شك، وقد أعلن ذلك بشكل ما من خلال رده على السيد (بوفيه) في اليوم التالي للحادثة، فعندما سخر القاضي من فشله، نظر إليه (أرسين لوبين) ببرود قائلًا:

- أنصت إليَّ جيدًا يا سيدي، وخذ كلامي على محمل الجد، محاولة الهروب هذه لم تكن سوى جزء مهم وجب تنفيذه من خطتي الأصلية للهرب.

قال القاضي:

- أنا لا أفهم شيئًا، عليك التوضيح.

- لا أحتاج إلى ذلك.

وبصفته قاضي التحقيقات أعاد استجوابه مرة أخرى، وهذا الاستجواب نُشِر

في جريدة «إيكو دي فرانس» كاملًا لا تنقصه كلمة واحدة، وبينما كان القاضي يستجوبه صاح (لوبين):

- يا إلهي! ما جدوى كل هذه الأسئلة؟

- ماذا؟

- نعم، هي بلا جدوى؛ لأنني لن أحضر محاكمتي من الأساس.

- لن تحضر.

- لا، هذا قرار لا رجوع فيه ولا شيء سيوقفني.

كل هذه الأفعال الطائشة والعناد الذي أبداه (أرسين لوبين) أزعجت القضاء، فكل تلك الأسرار التي يعلمها لا يمكن الكشف عنها سوى من خلاله، ولكن لأي غرض سوف يكشف عنها ولماذا؟

ذات مساء تغيرت زنزانته إلى زنزانة أخرى فنزل في الطابق السفلي، ومن ناحيته أنهى القاضي التحقيقات وأحال القضية إلى محكمة الجنايات.

أعقب ذلك فترة صمت استمرت لمدة شهرين، بقي فيهم (أرسين لوبين) ممددًا فوق سريره موليًا وجهه للحائط، يبدو أن هذه الزنزانة لم ترق له كثيرًا رفض مقابلة محاميه، وبالكاد كان يتبادل بعض العبارات مع الحراس، فخلال الأسبوعين الذين سبقا محاكمته بدا وكأنه يحاول استعادة طاقته من جديد، اشتكى من قلة الهواء في زنزانته فاقتِيد إلى الفناء في وقت مبكر جدًّا من الصباح وكان محاطًا برجلين.

ورغم ذلك لم يتضاءل فضول الجمهور، فكان الناس ينتظرون بشغف خبر هروب (أرسين لوبين) كل يوم بل كانوا يأملون حدوث ذلك، لقد حازت شخصيته على إعجاب الناس بشكل واسع بفضل حيويته وتنوع خططه ومغامراته وغموض حياته، كان لا بد لـ(أرسين لوبين) أن يهرب وكأنها ضرورة حتمية الحدوث حتى إنهم استغربوا من تأخُّره؛ فقد استغرق وقتًا طويلًا، كان مأمور السجن يسأل سكرتيره كل يوم:

- حسنًا لم يغادر بعد؟

- لا سيد (لوبريف).

- سيكون غدًا إذن.

وفي اليوم السابق لمحاكمته جاء رجل إلى الجريدة الكبرى وطلب مقابلة المحرر القضائي، ألقى إليه ببطاقة ورقية وابتعد مُسْرعًا، وفوق هذه البطاقة كتبت هذه الكلمات:

«(أرسين لوبين) يفي بوعده دائمًا».

في ظل هذه الظروف بدأت المحاكمة، لقد كان التجمهر عظيمًا، حشد هائل

من الناس، ليس هناك أحد لا يريد أن يرى (أرسين لوبين) الشهير وكيف سيتغلب على رئيس المحكمة، احتشد محامون وقضاة، مؤرخون اجتماعيون، فنانون ونساء المجتمع الراقي، أخذ الجميع يتنافسون لاحتلال الأماكن بقاعة المحكمة، كانت السماء تُمطر والشمس غائمة بالخارج، كان من الصعب رؤية (أرسين لوبين) عندما تقدم مُحاطًا بالحراس، رغم ذلك ميزوا طريقته البطيئة وتراخيه وهو يجلس في مكانه بسلبية وبلاهة لم تكن في صالحه، ظل محاميه يخاطبه أكثر من مرة دون جدوى فقط أومأ برأسه عدة مرات وصمت.

قرأ كاتب المحكمة عريضة الاتهامات بعدها أعقب الرئيس:

- أيها المتهم، انهض، ما اسمك الأول والأخير؟

لم يتلقَّ أي رد، فكرر مرةً ثانيةً:

- اسمك أيها المتهم، أنا أسألك عن اسمك؟

فخرج منه صوت مُتعب وجاف يقول ببُطء:

- (بودرو)، (ديزيريه بودرو).

تعالت الهمسات بين الجمهور ولكن الرئيس استأنف:

- (ديزيريه بودرو)! أها، هذه هي شخصيتك الجديدة إذن، بما إن هذا سيكون الاسم الثامن لك، وبما إنه بلا شك اسم مُختلق مثل الآخرين فسوف أتقبله بدلًا من (أرسين لوبين)، اسمك الحقيقي ذو الشهرة الواسعة.

نظر الرئيس إلى الأوراق التي أمامه ثم تابع:

- على الرغم من كل تحرياتنا حولك، لم نتوصل بعد إلى تحديد هويتك الأصلية، فأنت تمثل حالة نادرة في مجتمعنا حاليًّا لم تحدث من قبل، فنحن لا نعرف تحديدًا من أي وسط اجتماعي أتيت، دعني أخبرك يا (أرسين لوبين) بأنك تركيبة مختلطة نادرة الوجود من أشياء مختلفة الفساد والفجور والذكاء وأحيانًا كثيرة الكرم، كل ما نعلمه عنك قبل هذا ليس سوى بعض الافتراضات، فإن المدعو (روستا) الذي كان يعمل مع المشعوذ (ديكسون) منذ ثماني سنوات لم يكن إلا (أرسين لوبين)، وأيضًا الطالب الروسي الذي عمل لمدة ست سنوات في معمل الدكتور (تييه) بمستشفى «سان لويس» حيث أذهل الأطباء ببراعة فرضياته في علم الجراثيم وتجاربه المتنوعة في مجال الأمراض الجلدية لم يكن أيضًا سوى (أرسين لوبين)، هناك أيضًا مدرب المصارعة الياباني الذي جاء إلى باريس واستقر بها قبل ظهور الجودو، نعتقد أيضًا أن (أرسين لوبين) هو المتسابق الذي ربح عشرة آلاف فرنك في سباق الدراجات ولم يظهر بعد ذلك أبدًا، وأيضًا الرجل الشجاع الذي أنقذ الناس من خلال إخراجهم من النافذة الصغيرة عندما اندلع الحريق في متجر «دو لا شارنييه» وسلبهم أموالهم في أثناء ذلك.

توقف قليلًا عن الكلام، ثم أردف:

- لم تكن هذه السنوات المنصرمة سوى جزء بسيط من الصراع الذي كنت تخوضه ضد المجتمع، أظهرت خلاله أعلى مهاراتك وقدراتك، هل تعترف بصحة هذه الحقائق؟!

بينما كان القاضي يُلقِي هذا الخطاب، كان المتهم يُؤرجح ساقيه واحدة تلو الأخرى، ظهره مُقوَّس وذراعاه ثابتتان بجانبه، بينما بدا تحت ضوء الشمس أكثر نحافةً من ذي قبل.

بدَتْ عظام وجهه ناتئة بشكل غريب، وجهه مسود كالطين مكسو ببقع حمراء صغيرة ومُحاط بلحية مشعثة كأنه قد هرم وذبل إلى حد كبير، لم يبدُ أبدًا مثل ذلك الشاب الأنيق ذي الوجه الوسيم الذي انتشرت صورته بالصحف مرارًا وتكرارًا، لم يعد بإمكان المرء التعرف عليه، بدا وكأنه لم يسمع السؤال فكرَّره عليه القاضي فرفع عينه عن الأرض وبدا بأنه يفكر ثم نهض واقفًا وتمتم:

- (بودرو)، (ديزيريه بودرو).

أصدر القاضي ضحكة غيظ ثم قال:

- إني لا أستطيع فهم الطريقة التي تتبعها في الدفاع عن نفسك (أرسين لوبين)، فلو اخترت التظاهر باللامبالاة فأنت حُرٌّ في القيام بذلك، أما أنا فعليَّ استكمال عملي ولن أعبأ بأهوائك.

بدأ في ذِكْر تفاصيل السرقات، وأعمال الاحتيال والنصب، والاتهامات المُوجَّهة ضده، في بعض الأحيان كان المتهم يتمتم بكلمات غير مسموعة وأحيانًا كان لا يرد أبدًا، بدأ استجواب الشهود، وكانت هناك الكثير من الأقوال التافهة وأقوال أخرى مهمة.

سادَ التناقض والغموض، وكل شيء أصبح في حاجة إلى تفسير، أثار تقدم كبير المحققين (جانيمار) لمنصة الشهود اهتمام الجمهور مرة أخرى، ولكنه لم يبدُ متحمسًا، لقد كان متوترًا غير مرتاح حوَّل عينه أكثر من مرة ناحية قفص الاتهام في انزعاج واضح، ومع ذلك فقد أدلى بشهادة مطولة عن (أرسين لوبين) ورحلته معه خلال أوروبا وصولًا إلى أمريكا استمعوا إليه بإنصات شديد وكأنهم يستمعون إلى أكثر المغامرات إثارة ولكن في نهاية حديثه عندما تطرق إلى محادثاته مع (أرسين لوبين) توقف مرتين وبدا

عليه الاضطراب مرةً أخرى وكأنَّ فكرة مهمة سلبت لُبَّهُ.

وجَّه إليه القاضي الحديث قائلًا:

- إن كنت مريضًا فمن الأفضل أن تقطع شهادتك.

- لا لا، الأمر فقط أنني ......، سكت ونظر إلى المتهم فترة طويلة نظرة متفحصة ثم أكمل:

- أطلب منك الإذن يا سيدي بأن أتفحص المتهم عن كثب فهناك شيء يصعب عليَّ فهمه لا بد من توضيحه.

مشى باتجاه قفص الاتهام ثم تفحص المتهم لفترة طويلة بكل تركيز بعد ذلك عاد إلى مكانه من جديد وقال بنبرة ثقة عالية:

- سيدي القاضي، أستطيع أن أقول إن هذا الرجل الموجود داخل القفص ليس (أرسين لوبين).

تبع هذه الكلمات صمت لعدة لحظات قطعه القاضي سائلًا:

- ماذا تقول؟ أأنت مجنون؟!

قال المحقق بهدوء:

- للوهلة الأولى يمكن للمرء أن يختلط عليه الأمر لوجود هذا التشابه، ولكن الأمر لا يستغرق سوى ثانية واحدة من التركيز، الأنف والفم والشعر حتى لون الجلد، إنه ليس (أرسين لوبين)، يا إلهي! العيون أيضًا، هل كانت لديه مثل تلك العيون الناعسة من قبل؟

- دعنا نوضح الأمر قليلًا، إلى ماذا ترمي بأقوالك هذه أيها الشاهد؟

- وما أدراني؟ لقد وضع مكانه شيطانًا مسكينًا آخر بحيث يُدان هو بدلًا منه إن لم يكن في الأساس فردًا من عصابته.

تعالت الصيحات والضحكات من جميع أنحاء القاعة عندما انفجرت هذه المفاجأة غير المتوقعة، استدعى القاضي رئيس التحقيق ومأمور سجن السانتييه والحراس، وأَوْقَف الجلسة مؤقتًا، وعند الاستئناف أعلن السيد (بوفييه) مأمور السجن بحضور المتهم بأن هناك تشابهًا غامضًا في الملامح بين (أرسين لوبين) وهذا الرجل، وبعد برهة صاح القاضي:

- من هذا الرجل إذن؟ ومن أين أتى؟ كيف أصبح فجأة بين يدي القضاء؟

قدم الحراس شهادتهم، وكان هناك تعارض واضح في الأقوال، فقد تعرفوا على السجين الذي تناوبوا في الإشراف عليه، فأخذ القاضي نَفَسًا عميقًا وهو يستمع إلى أحد الحراس يقول:

- نعم، نعم، إنه هو أعتقد هذا!

- ماذا تعني بتعتقد؟!

- سيدي، لقد كنت بالكاد أراه، قد كان تسليمه ليلًا، وكان مستلقيًا لمدة شهرين كاملين على السرير مُوليًا ظهره لنا ووجهه للحائط.

- وقبل هذين الشهرين؟!

- آها، من قبل لم يكن يشغل الزنزانة رقم ٢٤.

أوضح مأمور السجن هذه النقطة:

- قمنا بتغيير زنزانته بعد محاولة الهروب المعروفة.

- وأنت أيها المأمور هل رأيته قبل شهرين؟

- لم تُتح لي الفرصة لرؤيته، لقد كان منضبطًا وملتزمًا للغاية.

- هل هذا هو الرجل الذي تسلمته في البداية؟

- لا، ليس هو.

- إذن مَنْ هو؟

- لا أستطيع التحديد.

- إذن، نحن الآن أمام عملية تبديل حدثت من شهرين، كيف تفسرون لي ذلك؟

- مستحيل!

- هذا ما حدث.

التفت القاضي إلى المتهم وقال له بنبرة مُشجِّعة ليحثه على الكلام:

- لنرى أيها الرجل، هل يمكنك أن تشرح لي كيف ومنذ متى أصبحت بين يدي العدالة؟

بدا أن هذه النبرة الهادئة حفَّزت الثقة وشجعته على التجاوب، استطاعوا التواصل معه بمهارة ولُطف بحيث تمكن أخيرًا من قول بعض الجمل التي استنتجنا منها أنه قبل شهرين أُلقِي القبض عليه واحتُجز في السجن لليلة واحدة، وفي صباح اليوم التالي أطلقوا سراحه، ولم يكن بحوزته حينها سوى خمسة وسبعين سنتًا، ولكن في أثناء عبوره فناء السجن في طريقه للشارع، فوجئ باثنين من الحراس يقتادانه ويعيدانه إلى السجن، ويضعانه في الزنزانة رقم ٢٤، ومنذ ذلك الحين وهو يمكث بها، الطعام كان جيدًا والنوم مريح؛ لذلك لم يعترض.

كل هذا بدا مُقْنعًا إلى حد ما، وعلى إثر كلماته هذه ساد الصخب في القاعة، وتعالت الضحكات فاضطر القاضي إلى تأجيل التحقيق إلى جلسة أخرى.

أثبتت التحقيقات على الفور صِحَّة هذه المعلومات المُثبتة في دفاتر السجن بالتوقيتات المضبوطة، فقبل ثمانية أسابيع أُلقِي القبض على مجرم يدعى (ديزيريه بودرو)، وأُطلِق سراحه في اليوم التالي فورًا، وغادر السجن في تمام الثانية ظهرًا، في نفس هذا التوقيت استُجوِب (أرسين لوبين) للمرة الثانية، وكان يغادر أيضًا في سيارة السجن، ماذا حدث بعد ذلك لا نعلم، هل أخطأ الحراس واستُبدل السجينان نظرًا للتشابه العجيب بينهما، هل كانت عملية الاستبدال هذه بالتواطؤ مع أحد الحراس الذين خانوا مهنتهم؟ سجل خدمتهم جميعًا وتاريخهم النزيه لم يسمح لهم بافتراضٍ كهذا، هل جرى التخطيط لهذا

التبديل مُسبقًا؟ بالإضافة إلى أن عملية تبديل الأدوار هذه تتطلب أن يكون (بودرو) هذا مشاركًا، فيُلقى القبض عليه ويدخل السجن فقط كي يحل مكان (أرسين لوبين)، وإلا فكيف نجحت هذه العملية؟ بأي معجزة نجحت هذه الخطة المبنية على سلسلة من الصُّدف المذهلة واللقاءات العارضة؟

عندما اقتِيد (ديزيريه بودرو) إلى قسم تحديد الهوية للتحقق من شخصيته لم يكن هناك أي سجلات مطابقة لوصفه، ولكن تم تقفي أثره بسهولة، فقد كان معروفًا كأحد المشردين في «كوربنعوا» و«أسنيير» و«ليفالو»، يعيش على الصدقات وينام في أكواخ جامِعِي القمامة التي تتراكم بالقرب من حاجز «تيرنس»، ومع ذلك فقد اختفى تمامًا لمدة عام كامل، فهل جُنِّد من قبل (أرسين لوبين)؟ لم يكن هناك أي إثباتات على صحة هذا الكلام، وإن كان هذا صحيحًا فما زلنا نجهل تفاصيل عملية هروبه؟ بقي اللغز مطروحًا ومن بين العشرين فرضية التي طُرحت لم يكن أي منها مُرضيًا بشكل كامل، فالهروب وحده هو الواقعة الثابتة، وهي حقيقة غير مفهومة ومثيرة للإعجاب، فقد أدرك الجمهور حجم المجهود المبذول والتخطيط العبقري الذي حدثت من خلاله هذه العملية والتي تبرر تهديد (أرسين لوبين) وثقته عندما كان يقول: «لن أحضر محاكمتي».

بعد شهر من البحث الدقيق بقِي اللغز على نفس الوضع المُحير، فلم يسعهم الاحتفاظ بهذا المسكين (بودرو) إلى أجل غير مُسمى أكثر من ذلك، فلو جرت محاكمته ستكون خطوة سخيفة، فما هي التُّهم الموجهة إليه؟ فاضطر قاضي التحقيقات إلى الإفراج عنه مع فرْض مراقبة مكثفة حوله.

جاءت هذه الفكرة من (جانيمار)، فمن وجهة نظره لم يكن هناك أي صدفة، وكل شيء أُعِدَّ بدقة، فـ(بودرو) هذا لم يكن سوى آلة عزف عليها (أرسين لوبين) بمهارته غير المسبوقة، وعند إطلاق سراحه قد يتمكنون من الوصول إلى (أرسين لوبين) أو على الأقل أحد أفراد عصابته، كلف كلا من المحققين (فولنفات) و(ديوزي) بمساعدة (جانيمار)، وفي صباح أحد أيام يناير بينما كان الجو غائمًا فتحت أبواب السجن، وخرج (ديزيريه بودرو)، بدا مضطربًا في البداية وسار كرجل هائم على وجهه لا يعلم ماذا سيفعل، مشى بطول شارع دي لا سانتيه وشارع سان جاك، دخل متجرًا لبيع الملابس المستعملة، خلع سُترته وباع صدريته ببضع سنتات، ثم ارتدى سُترته مرة أخرى وخرج، عبر نهر السين، مرَّ عليه أتوبيس أراد أن يصعد على متنه، ولكن لم يكن به مكان شاغر، فطلب منه السائق أن يحجز تذكرة أولًا ويدخل إلى قاعة الانتظار، في هذه اللحظة أمر (جانيمار) رجاله دون أن يُحوِّل عينه عن باب قاعة الانتظار، حيث دلف (بوردو) إلى الداخل:

- استقلا سيارة أجرة وراءه عند خروجه، بل سيارتين هكذا أفضل لزيادة الحرص.

أطاع الرجلان الأوامر، ومع ذلك لم يظهر (بوردو)، تقدم (جانيمار) إلى صالة

الانتظار، فلم يجد بها أحدًا، فتمتم لنفسه في غيظ هائل:

- يالي من غبي! لقد نسيت وجود المخرج الثاني.

فقاعة الانتظار كان بها باب آخر يؤدي إلى شارع سان مارتن، خرج (جانيمار) في الوقت المناسب ليرى (بوردو) راكبًا أتوبيسًا ينعطف إلى شارع ريفولي، فجرى ليلحق به ولكنه بذلك فقد مساعديه، وظل يطارد الرجل وحيدًا، كان في قمة غضبه لدرجة أنه كان على وشك سحب الرجل من ياقة قميصه وضربه دون كلمة واحدة، ألم يكن هذا الأحمق هو من دَبَّر هذه الحيلة ليفصله عن مساعديه؟

جلس على أحد المقاعد يراقبه، فكان الرجل يغفو على المقعد ورأسه يتأرجح ذهابًا وإيابًا، فمُهُ مفتوح قليلًا ووجهُه ذو تعابير بليدة، لا.. لا يمكن أبدًا بأن يكون هذا خصْم يمكنه التخطيط والتفوق على (جانيمار)، لقد خدمته الفرصة ليس أكثر، عند مفترق طرق (جاليري لافاييت)، هبط الرجل من الأتوبيس، ووثب إلى التيرام المتجه إلى لامويت مر التيرام بشارع هوسمان وفيكتور هوجو، ولم يهبط الرجل إلا في محطة لامويت، وبخطوات لا مبالية انغمس داخل شارع بولونيا، كان ينتقل من ممر إلى آخر ويعود أدراجه يبتعد ثم يقترب عن ماذا كان يبحث هل كان لديه هدف ما؟

بعد ساعة من هذه الدوامة بدا الرجل مُنهكًا من التعب، فجلس على مقعد قريب منه، وكان هذا المكان ليس ببعيد عن أوتيل على حافة بحيرة صغيرة مُخبأة بين الأشجار، مهجورًا تمامًا، مرَّت نصف ساعة ففقد (جانيمار) صبره وقرر الدخول معه في محادثة، اقترب منه وأخذ مكانًا بجواره، أشعل سيجارة تبغ، وأخذ يرسم دوائر على الرمال بعصا في يده وقال:

- ليس الجو حارًّا.

ساد صمت قطعه دفقة من الضحك، ضحكات مبهجة سعيدة، كأنها ضحكات طفل صغير تغمره سعادة هائلة، لا يسعه سوى الضحك، شعر (جانيمار) بأن شعر رأسه يقف، تلك الضحكات الخبيثة الساخرة يعرفها جيدًا، وبحركة عصبية مفاجئة أمسك الرجل من سترته ونظر إليه بعمق أكثر مما كان ينظر إليه في المحكمة، فلم يعد هذا الرجل الذي كان منذ قليل، إنه هو الرجل الآخر الحقيقي، لقد رأى عينيه المليئتين بالحياة والتحدي مرة أخرى، ظهر جسده الحقيقي تحت البشرة المتهدلة والقناع الهزيل، الفم الحقيقي وراء الابتسامة البلهاء، تعابيره الحادة الساخرة وروحه الشابة المنطلقة، تمتم مذهولًا:

- (أرسين لوبين)، (أرسين لوبين)!

وفجأة انتابه غضبٌ شديدٌ، وضغط على حنجرته محاولًا أن يطرَحَهُ أرضًا، بالرغم من أنه في الخمسين من عمره إلا أنه ما زال قويًّا ونشيطًا بشكل غير مألوف بينما بدا خصمه في حالة سيئة نوعًا ما، ياله من انتصار لو تغلب عليه وأعاده إلى السجن مرة أخرى، كان هذا الصراع قصيرًا الذي لم يبذل فيه (أرسين

لوبين) جهدًا كبيرًا، ولكنه أسرع يلوي ذراع (جانيمار) ثم قذفه على المقعد، ذراعه متدلية بجواره خائر القوى وقال له:

- إذا كنت قد تعلمت الجودو ستعرف أن هذه الحركة تسمى «أودي شي جي» باللغة اليابانية.

ثم أردف يقول في برود:

- ثانية إضافية، وكنت سأكسر لك ذراعك، وهذا ما كنت تستحقه! كيف لك أن تفعل هذا يا صديقي القديم الذي أقدره وأكشف أمامه تلقائيًّا عن تنكُّري؟ أهكذا تستغل ثقتي بك؟ حسنًا يا عزيزي، ماذا بك؟ ما الأمر؟

ظل (جانيمار) صامتًا، هذا الهروب هو من يتحمل مسئوليته، ألم يكن هو من ضلّل العدالة بشهادته، بدت له هذه الشهادة عارًا على حياته المهنية بأسرها، اغرورقت عيناه بالدموع، وسقطت دمعة على شاربه الرمادي، فقال (أرسين لوبين) مُشْفقًا:

- مهلًا يا إلهي! (جانيمار) لا تقلق، إن لم تتكلم ذلك اليوم في المحكمة لكنت رتبت أمر شخص آخر ليتكلم، هل كان بوسعي ترك (ديزيريه) يُدان؟

تمتم (جانيمار) بصوت خفيض:

- هل من كان هناك هو أنت حقًّا؟

- أنا بالفعل، دائمًا ما كنت أنا فقط.

- هل هذا ممكن؟

- نعم، تطلب الأمر مني الاستعداد لعشرات السنوات لأتمكن من خوض كل هذه المواقف كما قال القاضي، كان مُحِقًّا فعلًا.

- لكن وجهك؟ عيناك؟

- أنت تعرف جيدًا بأني عملت لمدة ثمانية عشر شهرًا في سانت لويس مع دكتور (ألتييه)، فلم يكن هذا من أجل حب الطب وفن التجميل ولكني اعتقدت بأن هذا الرجل الذي سيتعرف يومًا ما باسم (أرسين لوبين) لا بُدَّ أن يكون على عِلْم جيد بكل أسرار التنكُّر، فمظهري يمكنني تغييره حسب رغبتي، حقنة من البارفيين تحت الجلد في أي منطقة، وتتورم تلك المنطقة فورًا، كما يغير حمض البيروجاليك هيئتك، ودمج عصارة بعض النباتات يحدث دمامل وحبوبًا كثيرة، تركيبة كيميائية تساعد على نمو شعر اللحية بغزارة وأخرى تساعد على تغير نبرة الصوت، أضف فوق كل هذا اتباع حمية قاسية في الزنزانة رقم ٢٤، تدريبات مُتكررة ألف مرة على هذه الابتسامة الحمقاء وتدريبات أيضًا لكي أستطيع أن أحني رأسي على هذا الوضع، وليأخذ ظهري هذا التقوس، وأخيرًا: خمس قطرات يوميًّا من الأتروبين ف العين تجعلها ناعسة ومحمرة هكذا.

- لا أستطيع فهم كيف أن الحراس....

قاطعه قائلًا:

- هذا التحوُّل لم يحدث بين ليلة وضحاها فقد كان تدريجيًّا، وكان من الصعب مُلاحظة التطور اليومي.

- ولكن (بودرو ديزيريه)؟

- (بودرو) موجود فعلًا، وعليَّ الاعتراف بأنه يُشبهني قليلًا، إنه شخص بريء فقير، التقيت به العام الماضي وتحسُّبًا لأي اعتقال قريب احتفظت به في مكان آمِن، وكرَّست جهودي لتمييز نقاط الاختلاف بيننا والعمل على تخفيفها، وبمساعدة أصدقائي جعلوه يقضي تلك الليلة في السجن، ويغادر في نفس الوقت الذي أغادر فيه لتأكيد المصادفة والتحقق منها فيما بعد، فكان لا بد أن يكون مروره مُثبتًا وملاحظًا بشكل واضح وإلا تساءلت العدالة من أنا؟ فما إن يتَقدَّم هذا البودرو الممتاز إليهم حتى يفطنوا إلى عملية الاستبدال على الرغم من الصعوبات في تصديق هذا ولكن هذا أفضل من الاعتراف بجهلهم حقيقة الأمر.

ردد (جانيمار) باستسلام:

- نعم، نعم بالفعل.

- بعد ذلك، لعبت على كارت رابح منذ البداية، وهو توقع الجميع هروبي، وإليك الخطأ الفادح الذي وقعت فيه أنت والآخرون، فمنذ بداية اللعبة الرائعة التي انخرطت فيها ضد القضاء وكانت نتيجتها حريتي، اعتقدتم جميعًا بأنني أتباهي بقوتي، وأن نجاحاتي أسكرتني وقادتني إلى الغرور، هل أنا (أرسين لوبين) بحاجة إلى مثل هذا الشعور الضعيف التافه؟ المهم أنك صدقت ذلك تمامًا مثلما فعلت من قبل في قضية (كاهورن)، لم يخطر ببالك أنه طالما أن (أرسين لوبين) أعلن على الملأ بأنه سيهرب، إذن فلا بد أنه مضطر لفعل ذلك لاستخدامه كورقة رابحة عن طريق ترسيخه في الأذهان، كان لا بد لكي أهرب أن تقتنعوا جميعًا بذلك وأن تؤمنوا مسبقًا بحدوثه وتسلموا أنه حقيقة ساطعة كالشمس، كل هذا بإرادتي أنا، (أرسين لوبين) سيهرب ولن يكون موجودًا في أثناء محاكمته، وعندما نهضت لتقول هذا الرجل ليس (أرسين لوبين) كان من الطبيعي أن يصدق الناس على الفور أن كلامك صحيح، ولو أن شخصًا واحدًا فقط شكك في كلامك وطرح السؤال المعاكس: ماذا لو كان بالفعل (أرسين لوبين)؟ وقتذاك كنت سأكون انتهيت، كان كافيًا أن تنظر لعيني دون أن يخطر في بالك أني لست (أرسين لوبين) بل تنظر إليَّ وفي رأسك ولو احتمال بسيط بأني قد أكون هو حقيقةً، كنت ستعرفني على الفور ولكن ثباتي وهدوئي اللذين تعرفهما جيدًا ساعداك على محو ذلك الاحتمال الضعيف من رأسك.

أمسك فجأة بيد (جانيمار):

- هيا (جانيمار)، اعترف بأنه بعد ثمانية أيام من لقائنا بسجن لا سانتييه انتظرتني في الرابعة صباحًا في المقهى بجوار منزلك كما طلبت منك.

سأله (جانيمار) متحاشيًا الرد عليه:

- ماذا عن سيارة السجن؟

- كانت مجرد خدعة، أصدقائي هم من جاءوا بسيارة قديمة وأعدوا بها صفيحة معدنية جعلوها تمامًا كعربات السجن واستبدلوها في التوقيت المناسب لمساعدتي على الهرب، ولكني كنت متأكدًا من أن مثل تلك المحاولة لم تكن لتتم دون مزيج من الصدف الاستثنائية المُعدَّة مُسبقًا، ووجدت أن من المفيد استكمال محاولة الهروب هذه وإعطاؤها أكبر قدر من الدعاية، فإن الهروب الأول الذي أديته بكل جرأة يُمهد لهروب ثاني مُدبر بعناية فائقة.

- السيجار الذي كان بالدرج؟

- ثقبته أنا بالسكين.

- والرسالتان؟

- أنا من كتبهما.

- المراسلة الغامضة؟

- أنا وهي نفس الشخص، فيمكنني تقليد جميع الخطوط.

فكر (جانيمار) لعدة لحظات كأنه يعيد ترتيب القصة ثم اعترض قائلًا:

- عندما ذهب (ديزيريه بوردو) إلى قسم تحديد الهوية كيف لم يتطابق ملفك مع ملفه؟

- لأن ملف (أرسين لوبين) بأكمله لا وجود له.

- أهذا معقول؟

- أو على الأقل كان مزيفًا، هذه مُعضلة أخذت مني وقتًا طويل لتدبيرها، فإن نظام البرتيلون يقوم على الوصف النظري؛ أي مطابقة الأوصاف أولًا، وهي طريقة يوجد بها نسبة أخطاء واردة، أما بعد ذلك المقاسات الخارجية والتي تكون عن طريق قياس الرأس والأصابع والأذنين وما إلى ذلك، فهذه لا يمكن الخطأ بها.

- وماذا فعلت لذلك؟

- كان عليَّ أن أنفق الكثير لتيسير تلك الأمور حتى من قبل عودتي من أمريكا، ساعدني أحد الموظفين لإدخال قياس خاطئ من البداية، وهذا كافٍ لينحرف باقي النظام بأكمله؛ لذلك لم يكن من الضروري أن يتطابق ملف (بودرو) مع ملف (أرسين لوبين).

ساد الصمت برهة من الزمن حتى سأل (جانيمار):

- والآن، ماذا ستفعل؟

- «الآن»، قال (لوبين)، «سأستريح»، وأتبع نظامًا غذائيًّا فائق الجودة، سأتمكن من العودة لنفسي تدريجيًّا، من الجيد جدًّا أن تكون (بودرو) أو أي شخص آخر، أن تُغيِّر شخصيتك كما لو أنك تُبدِّل قميصك أو مظهرك وصوتك حتى خطك، لكن في بعض الأحيان وسط كل هذا لا يمكنك أن تجد نفسك، وهذا أمر مُحْزِن للغاية، في الوقت الحالي، أشعر بما شعر به الرجل الذي فَقَدَ ظلَّه، سأبحث عن نفسي حتى ألتقيها مُجددًا.

كان يسير ذهابًا وإيابًا، اختلط الظلام قليلًا مع ضوء النهار، توقف أمام (جانيمار) ثم قال:

- ليس لدينا ما نقوله لبعضنا البعض، على ما أعتقد!

- نعم، ثم أردف:

- أود أن أعرف إذا كنت ستكشف حقيقة هروبك، خطئي الذي ارتكبته...

- أوه! لن يعرف أحد أنه أفرج عن (أرسين لوبين)، تراكم الظلام حولي يصب كثيرًا في مصلحتي، لأحافظ على هذا الهروب الإعجازي، لا تخف شيئًا يا صديقي العزيز وداعًا، سأتناول العشاء في المدينة الليلة، وليس لديَّ وقت إلا لارتداء ملابسي.

- اعتقدت أنك تريد راحة!

- وآسفاه! هناك التزامات اجتماعية لا يمكن تجنبها، ستبدأ الراحة غدًا.

- وأين ستتناول طعامك؟

- في السفارة البريطانية.

المسافر الغامض

في اليوم السابق أرسلت سيارتي إلى «روان» مُعتزمًا اللحاق بها بالقطار، حيث سأذهب من هناك لمقابلة بعض أصدقائي الذين يعيشون على ضفاف نهر السين، عندما صعدت القطار وقبل انطلاقه بدقائق معدودة صعد إلى مقطورتي سبعة رجال، من بينهم خمسة أفراد يُدخنون، وبالرغم من قِصَر مدة الرحلة إلا أن إمكانية تحمُّلي لهذا الوضع كانت تفوق قدراتي، خاصةً وأن هذا القطار كان على الطراز القديم وليس به ممر لأتمكن من التمشية من وقت لآخر فحملت معطفي وصحفي ودليل السفر، وذهبت إلى إحدى المقصورات المجاورة، وجدت بداخلها سيدة، ولم يفُتني أنها عندما رأتني بدرت منها إيماءة انزعاج مُعبِّرة عن استيائها لوجودي، انحنت تهمس لرجل يقف على رصيف المحطة بجوارها خارج النافذة، لا شك أنه زوجها وقد رافقها إلى المحطة لتوديعها، تفحصني السيد جيدًا وربما أفضى هذا التفحص في النهاية إلى صالحي؛ لأنه تحدث بعد ذلك إلى زوجته مبتسمًا وكأنه يطمئنها من ناحيتي، فابتسمت لي بدورها وحيَّتني بنظرة ودية، كما لو أنها أدركت أنني أحد هؤلاء النبلاء الذين يمكن للمرأة أن تقضي ساعتين محتجزة معه في مكان صغير لا تتعدى مساحته ستة أقدام مُربَّعة وهي مطمئنة وآمنة تمامًا.

قال لها زوجها:

- اعذريني حبيبتي، لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك، فلديَّ موعد عمل عاجل لا يمكنني تأجيله.

قبَّلها بحنان وابتعد، أرسلت له قُبلات صغيرة من وراء النافذة وهي تلوح بمنديلها في رِقَّة، انطلقت الصافرة وبدأ القطار في التحرك، في تلك االلحظة تقريبًا وبالرغم من احتجاجات الموظفين فُتح الباب ودلف رجل إلى مقصورتنا، أطلقت رفيقتي التي كانت واقفة حينئذٍ لترتيب أشيائها صرخة فزع وسقطت على مقعدها، عليَّ الاعتراف بأن هذا الهجوم المفاجئ أربكني أنا الآخر قليلًا، لا بد أن وراءه شيئًا ما، ولكن مظهر هذا الرجل وسلوكه كانا يخففان من الانطباع السيئ الناتج من فعلته تلك، كان مهندمًا ذا ذوق رفيع يرتدي رابطة عنق وقفازات أنيقة للغاية، وجهه يشع نضارة وعفوية، بمناسبة وجهه لقد أدركت للحظة بأني قد رأيته من قبل ولكني لم أتذكر أين ومتى، يا إلهي! لم أشك للحظة بأنني قد رأيته من قبل انتابتني مشاعر ذكرى مرور وجه ما أعرفه جيدًا، ورأيته أكثر من مرة، ولكني لم أره حقيقةً ولا مرةً واحدة، وفي نفس الوقت شعرت بعدم جدوى التذكُّر، فهذه الذكرى صعبة وغامضة ولكن بعد أن وقعت عيني على السيدة مرة أخرى، اندهشت لشدة شحوبها وتوترها، كانت تنظر إلى الرجل الجالس بجوارها ووجهها يعبر عن رعب حقيقي، لاحظت أن يدها ترتجف وهي تتحرك خفية نحو حقيبة كانت على المقعد بجوارها، على بُعد ثماني بوصات من ركبتها تمامًا، أمسكتها أخيرًا وسحبتها بعصبية، التقت أعيننا وقرأت فيها الكثير من القلق فلم يسعني سوى أن أسألها:

- هل تشعرين بالتعب يا سيدتي؟ هل أفتح النافذة من أجلك؟

أشارت إلى الرجل الجالس بجوارها بخوف دون أن تنبس ببنت شفة. ابتسمت كما كان يفعل زوجها لطمأنتها وهززت كتفي في إشارة إلى أنه لا يوجد ما تخشاه، وأنني هنا معها بالإضافة إلى أن هذا الرجل غير مؤذٍ أبدًا، في هذه اللحظة التفت الرجل إلينا وفحص كلًّا منا على حِدَة من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، ثم أثنى ظهره إلى الخلف وثبت في مكانه دون القيام بأي حركة، ساد صمت عميق، قطعته السيدة باذلة جهدًا كبيرًا وهي توجه هذه الكلمات إليَّ بصوت خفيض:

- هل تعلم أنه في قطارنا؟

- من هو؟

- إنه هو أؤكد لك.

- من؟

- (أرسين لوبين).

كانت تنظر للرجل بطرف عينها، وبدا وهي تنطق هذا الاسم على مقاطع منفصلة كما لو أنها توجه هذا الحديث إلى المسافر الغامض بجوارها وليس لي أنا، فسحب قبعته على وجهه ولم أدرِ أفعل ذلك لكي يُخفي توتره أم أنه كان يريد أن يستغرق في النوم ليس إلا، فجاوبتها معترضًا وموضحًا:

- لقد حُكِم على (أرسين لوبين) أمس بالسجن غيابيًّا لمدة عشرين عامًا مع الأشغال الشاقة؛ لذلك فمن المستحيل أن يعرض نفسه اليوم للظهور في الأماكن العامة هكذا بكل بساطة، إلى جانب ذلك ألم تتحدث الصحف عن وجوده في تركيا هذا الشتاء منذ فضيحة هروبه من سجن السانتييه؟

- إنه بهذا القطار يا سيدي.. كررت السيدة بإصرار وصوت مرتفع قليلًا، فبدت نيتها واضحة أنها تريد أن تلقي كلماتها على مسامع الرجل واستكملت قائلة:

- زوجي هو نائب مدير مصلحة السجون، ومفوض المحطة نفسه من أخبره أنهم يبحثون عن (أرسين لوبين).

- ليس هذا سببًا كافيًا لنعتقد أنه.....

- لقد رأوه في قاعة انتظار «باس بيرودي»، حيث حجز تذكرة من الدرجة الأولى إلى «روان».

- أظن أنه كان من السهل القبض عليه وقتذاك.

- لقد اختفى عند مدخل قاعة الانتظار ولم يروه، من المفترض أنه انتقل إلى رصيف آخر وصعد على متن القطار السريع المنطلق بعد قطارنا بعشر دقائق.

- لو أن هذا الحديث صحيح، فلعلهم ألقوا القبض عليه بينما نحن نتحدث الآن.

- أو لعله قفز في اللحظة الأخيرة إلى هذا القطار، كما هو مُرجح، ثم نظرت إلى الرجل بطرف عينها مرة أخرى مستكملة، بل مؤكد.

- في هذه الحالة سيُقبض عليه أيضًا، لا بد أن موظفي المحطة ورجال الشرطة تابعوا انتقاله إلى القطار الآخر وسيلقون القبض عليه عندما نصل إلى «روبن».

- القبض عليه؟ أبدًا، سيجد طريقة للفرار بالتأكيد فطالما كان يجيد الهروب في تلك اللحظات.

- في هذه الحالة، أتمنى له رحلة طيبة إذن دون إثارة المتاعب.

- حتى هذا الحين، يمكنه أن يفعل أي شيء.

- مثل ماذا؟

- وما يدريني، لا أعرف تحديدًا، أنا أتوقع حدوث أي شيء.

بدَت مُضطربة للغاية وقد كان الموقف فعلًا يستدعي هذا التوتر الذي أصابها فحاولتُ أن أُخفِّفَ من هذا التوتر قائلًا:

- يوجد بالفعل صُدف غريبة تحدث أحيانًا ولكن لا تقلقي، فلو افترضنا وجود (أرسين لوبين) هنا في إحدى المقصورات فأعتقد أنه سيكون حكيمًا كفاية لتجنب الوقوع في مزيد من المشكلات، ولن يشغله سوى تجنُّب المخاطر التي ستواجهه مع رجال الشرطة بالفعل.

لم يبدُ أن كلماتي قد طمأنتها، فما زالت مضطربة بعض الشيء ولكنها بقيت صامتة، ربما تخشى أن تصبح مُتطفلة.

فتحتُ الصحف الخاصة بي وبدأت في قراءة المقالات الخاصة بمحاكمة (أرسين لوبين)، فلم أجد شيئًا جديدًا، كل ما نُشِر حتى الآن ندركه جيدًا، لم تُثِر اهتمامي كثيرًا كما أنني كنت مُتعبًا للغاية، لم أنمْ جيدًا في الفترة الأخيرة، وكنتُ في حاجة ماسَّة إلى القليل من الراحة فشعرت بثقل أجفاني ورأسي يميل.

- سيدي، لا تنم أرجوك.

تفاجأت بالسيدة وقد دفعت الجريدة عن وجهي ونظرت إليَّ نظرة لوم واستياء.

- من الواضح أنني لا أستطيع.

- سيكون هذا شيئًا في منتهى الاستخفاف.

- طبعًا.

قاومت رغبتي في النوم بكل قوة متأملًا في المناظر الطبيعية والغيوم فوقنا تملأ السماء، وسرعان ما اختفت كل هذه الأشياء عن ذهني، صورة السيدة المضطربة والرجل الأنيق، لم يبقَ سوى الصمت العميق تبعه مشاهد متداخلة

كالحلم غريب، ظهر فيه هذا المدعو (أرسين لوبين) وهو يجول هنا وهناك يجري وظهره مُحمل بالجواهر والتحف يتسلل إلى القصور ويخترق الجدران، وفجأة اتضحت صورة الرجل أكثر حتى بَدَتْ حقيقة أمام عيني، قفز إلى المقصورة بخفة مدهشة، وجثم فوق صدري مباشرة ولكنه لم يعد (أرسين لوبين)، شعرت بألم حاد وسمعت صرخة مُفجِعة أفاقتني على وجه هذا المسافر الغامض، ركبته فوق صدري، ويضغط بيديه على حنجرتي بعنف، رأيت كل هذا بشكل ضبابي فعيني كانت محتقنة بالدماء، رأيت بطرف عيني السيدة ترتعش وحدها في الزاوية وكأنها تتعرض لنوبة عصبية ما، لم أستطع المقاومة، ولم أجد القوة لذلك، أذُناي تطن، وكدتُ أموت من الألم، شعرتُ بضيق تنفسٍ هائل، دقيقة إضافية وكنت سأختنق تمامًا، لا بد وأن الرجل شعر بذلك، فأفلتَ قبضته قليلًا دون أن يبتعد عني، أخرج من جيبه حبلًا كان قد أعدَّهُ من قبل على هيئة ربطة دائرية في نهايته وبحركة سريعة قيد معصمي، وفي لحظات قليلة قُيّدت وكُمِّم فمي، فبقيت مثل المشلول في مكاني، لقد أتم مهمته بكل دقة وبراعة، استنتجت منها مدى احترافيته في الجريمة، لم يأتِ بكلمة واحدة ولا حركة مرتبكة، نفذ كل شيء بثبات وجرأة بينما بقيت أنا ثابتًا على هذا الوضع في مكاني ملفوفًا مثل المومياء المُحنَّطة، أنا، أنا أرسين لوبين، أمر مُضحك على الرغم من خطورة الموقف فلم يفُتني هذا الجانب الساخر من الحدَث، (أرسين لوبين) قُيِّد مثل شخص ساذج يسلبه أي لص عابر ممتلكاته؛ لأنه سرقني بالفعل، سلبني حقيبتي ومحفظتي، (أرسين لوبين) أصبح ضحية مخدوعة ومهزومة بدوره، يالها من طرفة مضحكة!

بقيت السيدة ثابتة ترتعش في مكانها لم يبدُر منها أي حركة، انتبه الرجل إليها فالتقط مُسرعًا حقيبتها الصغيرة المُلقاة على الأرض وأخرج منها كل المجوهرات والحلي الذهبية، جفلت من الرعب وخلعت بحركة سريعة كل خواتمها وسلّمتها إلى الرجل كما لو أنها أرادت أن تجنبه محاولة مباغتتها، أخذ الخواتم وما إن نظر إليها حتى سقطت مغشيًّا عليها من الرعب، بعد ذلك عاد صامتًا إلى مكانه وأشعل سيجارًا، وانخرط في فحص المجوهرات والغنائم التي جمعها، وقد بدا منسجمًا وراضيًا إلى حد كبير، عكسي أنا، لم أكترث كثيرًا إلى الاثني عشر ألف فرنك التي سلبهم مني فسوف أستردها عما قريب، وكذلك المستندات والأوراق المهمة داخل محفظتي، مشاريع وعناوين، خطابات تفاوض ومراسلات خاصة، رغم ذلك فقد كان هناك أمر أشد خطورة يشغل بالي، ماذا سيحدث بعد ذلك؟ لم يغب عني طبعًا الإزعاج الناجم عن مروري بمحطة «سانت لا روز»، فأنا مدعو من قبل أصدقاء يعرفوني باسم «غيوم بيرلات»، وكان موضوع التشابه بيني وبين (أرسين لوبين) أمرًا مثيرًا لمُزاحهم دائمًا، فلم أتمكن من التنكُّر جيدًا، وبذلك جرى التعرف إليَّ في المحطة بالإضافة إلى رؤية رجل يندفع مسرعًا في اللحظات الأخيرة للحاق بالقطار، وبناءً على تلك الأحداث بالتأكيد سيقوم رجال الشرطة الذين أُخطِروا بهذه المعلومات عن طريق تليغراف عاجل بعمل استجواب، وجرْد شامل لكل

مقصورات القطار بمجرد وصولنا إلى «روبن»، توقعت حدوث كل هذا ولم يشغلني كثيرًا، فقد كنت متأكدًا من أن شرطة «روبن» ليست أكثر فطنة من شرطة باريس، وسأتمكن من المرور دون أي عواقب، فيكفيني إظهار بطاقتي التي تثبت أنني عضو في مجلس النواب، تلك البطاقة خدمتني سابقًا في بث الثقة في مدير السكة الحديد بمحطة «سانت لازار»، ولكن الآن تغيَّرت الظروف، لم أعد حُرًّا طليقًا، ولا يمكنني أيضًا القيام بإحدى خدعي المعتادة، ففي داخل إحدى مقصورات هذا القطار سيجد محقق الشرطة (أرسين لوبين) مقيد اليدين والقدمين وقد أرسلته إليه الأقدار هدية مُغلَّفة فقط عليه استلامها كما يتسلم طردًا بريديًّا أو سلة من الخضار والفاكهة، ماذا عليَّ أن أفعل لأتجنب هذه النتيجة المؤسفة بينما أنا منزوٍ في ركن مقيد عاجز الحيلة؟

انطلق القطار السريع نحو «روان» المحطة التالية وهي الوحيدة التي يجب أن يتوقف فيها، بعد أن مرَّ ب «فيرنون» و«سان بيير»، وسيطرت عليَّ مسألة أخرى لم تكن ستؤثر فيَّ بشكل مباشر ولكنها أثارت فضولي المهني، ماذا كان ينوي هذا الرجل؟ لو كنت بمفردي كان سيسهل هذا عمله بدرجة كبيرة سيجد الوقت اللازم ليفتح الباب ويهبط بهدوء في المحطة التالية ولكن هذه السيدة ما إن يفتح الباب حتى تصرخ بالرغم من هدوئها في الوقت الحالي.

هذا ما أثار دهشتي حقًّا، لماذا لم يقيدها ويُكمِّم فمها لتصبح في هذا الوضع العاجز مثلي وهذا كان سيمنحه وقتًا كافيًا ليختفي قبل أن يكتشف أحد جريمته المزدوجة تلك، كان يدخن بشراهة بينما كانت عيناه ثابتة على زجاج النافذة، حيث بدأ المطر يتساقط، هَمَّ بحركة سريعة تناول خلالها دليل السفر الخاص بي، وبدأ في مطالعته، أما السيدة فقد حاولت إجادة دور الغائبة عن الوعي، ولكن نوبات السُّعال التي انتابها نتيجة الدخان كذبت ادعاءها، بالنسبة لي كان هذا الوضع سيئًا للغاية أخذت أفكر وأخطط بينما مرَّ القطار بمحطة «بون دي لارش»، ومن بعدها محطة «واسل»، وعند محطة «سانت إتيان» نهض الرجل وخطا خطوتين في اتجاهنا، أطلقت المرأة صرخة فزع وفقدت وعْيَها حقيقةً هذه المرة، تساءلت في ذهني: ما هو هدفه الآن؟ فتح النافذة من جهتنا بينما كان الثلج ينهمر بشدة فلاحظت امتعاضه؛ لأنه لا يملك مظلة أو معطفًا، نظر إلى الرف فوق رأسه فرأى مظلة السيدة، أخذها وكذلك استولى على المعطف الخاص بي وارتداه، بينما كان القطار يعبر نهر السين رفع حافة سرواله ثم انحنى لأسفل وفتح مزلاج الباب، هل كان سيلقي بنفسه بينما كان القطار يسير بهذه السرعة؟ هذا معناه الموت المُحتَّم! عبر القطار داخل نفق «سانت كاترين»، ففتح الرجل الباب وتحسس الدرجة الأولى من الدرج، ما هذا الجنون؟ الظلام الكثيف، الضجيج والدخان، كل هذه الأمور بدت لي عوامل مساعدة تمامًا على الهرب، وفجأة تباطأت سرعة القطار وخلال دقيقة واحدة كان قد ثبت على سرعة واحدة بطيئة للغاية، مما لا شك فيه أنه يوجد أعمال حفْر وتصليح في هذه المنطقة تتطلب خفض سرعة القطار للعبور، ربما هذه التصليحات تحدث منذ فترة، وكان الرجل على علم بها؛ لذلك لم يكن عليه

سوى وضع قدمه على الدرج والهبوط ثم المُضِي بسلام بعد أن أغلق الباب خلفه، ما إن اختفي حتى سطع النهار فأضاء نور الفجر الأبيض المقصورة، خرجنا من النفق وكنا على وشك الوصول إلى «روان»، سرعان ما استعادت السيدة وعيها وكان همها الأول هو التأسف على فقدانها المجوهرات، استنجدت بها بعيني ففهمت على الفور وحررتني من الكمامة التي كادت تخنقني، أرادت أيضًا فك قيودي ولكني منعتها قائلًا:

- لا، لا بد أن تراني الشرطة على هذا الوضع، لإثبات جريمة هذا الوغد.

- ماذا لو قرعت جرس الإنذار؟

- لقد فات الأوان، كان عليك التفكير في هذا الحل بينما كان يهاجمني.

- لو كنت فعلت ذلك لكان قتلني، آه يا سيدي، لقد أخبرتك أنه معنا على هذا القطار، تعرفت عليه فور دخوله المقصورة وللأسف خرج بمجوهراتي.

- سنجده، اطمئني.

- نجد (أرسين لوبين) ؟! لن يحدث أبدًا.

- هذا يعتمد عليك يا سيدتي، أصغي إليَّ جيدًا، ما إن يصل القطار وجهته حتى تفتحي الباب وتستنجدي برجال الشرطة، سيهرعون إليكِ على الفور اذكري لهم كل ما حدث بالتفصيل، السرقة والاعتداء وصِفي لهم شكله جيدًا، لا تنسي القبعة والمظلة الخاصة بك والمعطف الرمادي الطويل.

- معطفك؟

- لا، معطفه هو، فأنا لم أكن أرتدي معطفًا.

- خُيِّل لي أنه لم يكن يرتدي معطفًا عندما صَعِد إلى المقصورة.

- من المحتمل، قد تكون قطعة ملابس منسية على الرف، على العموم أصبح لديه واحد عندما نزل، وهذا مهم جدًّا، معطف رمادي طويل، آه، قد نسيت، اذكري اسم زوجك أولًا فوظيفته المرموقة ستثير حماسة كل هؤلاء الناس.

دخل القطار إلى المحطة، وكانت قد أسرعت نحو الباب، فقلت لها بلهجة آمِرة:

- اذكري أيضًا اسمي (غيوم بيرلات)، وإن لزم الأمر قولي بأنك تعرفيني، سيوفر هذا وقتًا، يتوجب عليهم أولًا مطاردة (أرسين لوبين) الذي فرَّ بمجوهراتك، لا شيء صعب في هذا، أليس كذلك؟ (غيوم بيرلات) صديق زوجك.

- نعم، سمعت جيدًا (غيوم بيرلات).

بدأت بالفعل تنادي وتشير بيدها مع أن القطار لم يتوقف بعد، وبالفعل هرع إليها رجل تبعه عدة رجال آخرون، قد حانت الساعة المنتظرة، صاحت السيدة تلهث:

- (أرسين لوبين) هاجمنا، سرق مجوهراتي، أنا السيدة (رينو)، زوجي هو نائب مدير مصلحة السجون، ها هو أخي... جورج أرديل مدير بنك الكريدي بروين لا بد أنكم تعرفونه جيدًا.

احتضنت شابًّا انضم إلينا للتو، استقبلته بتلهف، وبدأت في البكاء وهي تتحدث:

- نعم، هو (أرسين لوبين)، بينما كان السيد نائمًا انقض عليه وهاجمه، السيد «بيرلات» صديق زوجي، سألها مفوض الشرطة:

- ولكن أين هو (أرسين لوبين)؟

- وثب من القطار عندما كنا نعبر النفق بعد نهر السين.

- هل أنتِ متأكدة من أنه هو؟

- طبعًا، لقد تعرفت عليه فور دخوله المقصورة، في الواقع لقد عرفته منذ أن كنا في محطة «سان لازار»، كان يرتدي قبعة ناعمة.

قال مفوض الشرطة معترضًا:

- لا، بل قبعة متينة كهذه، مشيرًا إلى قبعتي.

- لا، قبعة ناعمة أؤكد لك، ومعطفًا رماديًّا طويلًا.

غمغم المفوض قائلًا:

- في الواقع تُشير البرقية إلى معطف رمادي بياقة من القطيفة السوداء.

صاحت مدام رينو بنبرة انتصار:

- بالضبط! ياقة من القطيفة السوداء.

تنفَّست الصعداء، يالها من صديقة شجاعة، حرَّرني الضابط من قيودي، عضضت شفتيَّ السفلى بِشدَّة حتى أدميتها دون أن يُلاحظ أحد، فانحنيت واضعًا منديلًا فوق فمي كما يليق بشخص تعرض للهجوم وبقي في وضع حرج لفترة طويلة، سألت الضابط بصوت واهن:

- سيدي، لقد كان (أرسين لوبين) لا شك في ذلك، فلو أسرعتم قليلًا للحقتم به، أعتقد أني من الممكن أن أكون مفيدًا لكم.

فُصِلت العربة التي كنا بها عن القطار لاستكمال عمليات التحقيق بينما أكمل القطار رحلته إلى «لو هافر»، اصطُحبنا إلى مكتب مدير المحطة وسط حشد من المتطفلين، ترددتُ كثيرًا في تلك اللحظة ماذا عليَّ أن أفعل؟ يمكنني الآن الهرب، أجد سيارتي وأذهب فورًا، لقد كان الانتظار خطرًا، أستطيع أن أتحجج ببرقية ما وصلت إليَّ من باريس وأمضي، فسارقي الآن وحيد في منطقة معزولة وأملي ضعيف في إمكانية اللحاق به، لكن روح المخاطرة تغلَّبت عليَّ،

قلتُ لنفسي سأبقى، العملية صعبة ولكن متعة الفوز تستحق المغامرة.

- سيدي الضابط، لقد مضى (أرسين لوبين) منذ فترة الآن، سيارتي تنتظر في الفناء، فلو شرفتني بالركوب معي سنتمكن من اللحاق به.

ابتسم الضابط بتكلُّف ثم قال:

- الفكرة ليست سيئة ولكن تنفيذها سيكون سيئًا للغاية.

- لماذا؟

- لقد انطلق بالفعل رجلان من رجالي على دراجاتهم منذ قليل.

- إلى أين؟

- إلى مخرج النَّفَق، سيجمعون الأدلة والشهود ويقتفون أثره.

لم يسعني إلا هز كتفي والقول:

- لن يجمع رجالك أي أدلة أو شهود.

- كيف ذلك؟

- (أرسين لوبين) سيتدبر أمره جيدًا حتى لا يراه أحد يغادر النفق، سيستقل أول قطار من هناك.

- بالفعل سيصل إلى «روبن»، حيث يمكننا إلقاء القبض عليه.

- لا، لن يذهب إلى «روبن».

- من المحتمل أن يكون في الجوار، حيث سنتمكن من محاصرته جيدًا وإلقاء القبض عليه.

- لن يبقى في الجوار أيضًا.

- أوه! أين سيذهب إذن؟

نظرت في ساعتي ثم استكملت:

- في الوقت الحالي سيكون في محطة «دارنتال»، وفي تمام العاشرة وخمسين دقيقة سيستقل القطار المنطلق من محطة «روان» إلى «آميين» أي بعد اثنتين وعشرين دقيقة.

- وكيف تعرف هذا؟

- أوه! الأمر في منتهى البساطة، بينما كنا في المقصورة أخذ (أرسين لوبين) دليل السكة الحديد الخاص بي، لماذا يا ترى؟ لا بد أنه كان يبحث عن محطة قريبة، حيث يتوقف بها قطار في هذا الوقت، وبدوري تفحَّصت هذا الدليل وعرفت.

قال الضابط:

- الحق أنه استنتاج رائع، ياللك من ماهر!

قادني غباؤه إلى إظهار الكثير من البراعة التي اكتسبتها من خلال عملي، نظرت إليه فأحسست أنه شعر ببعض الريبة تجاهي، أقبل الصحفيون يبحثون عن (أرسين لوبين) آخر، غير الماثل أمامهم الآن، ورغم ذلك زحف التوتر إليَّ، خلال لحظات من الصمت شعرت بأن الحظ سينقلب ضدي، ضحكت مسيطرًا على انفعالي الداخلي:

- يا إلهي! لا شيء يستدعي الحكمة أكثر من رغبتك في إيجاد نقودك عندما يسلبها منك شخص ما أمام عينيك، فإذا سمحت لي باصطحاب أحد رجالك فقد نستطيع......

قاطعتني السيدة (رينو) في تلك اللحظة قائلة:

- من فضلك سيدي، استمع إلى السيد (بيرلات).

كان تدخل رفيقتي الممتازة حاسمًا، أعطاني لقب (بيرلات) الذي أطلقته عليَّ زوجة الرجل المهم هوية لا يمكن أن يرتقي إليها الشك أبدًا.

- صدقًا، سأكون ممتنًّا للغاية لو تمكنت من ذلك يا سيد (بيرلات)، فكلنا ننطلع إلى إلقاء القبض على (أرسين لوبين).

قادني إلى السيارة، وقدَّم إليَّ اثنين من رجاله (هورونيه ماسول) و(غاستون ديليفيه)، جلسا بالخلف، وجلست أنا خلف عجلة القيادة، أدرت المحرك، وخلال ثوانٍ كنا قد غادرنا المحطة.

آه، على الاعتراف، إنني بينما كنتُ أقود على الحدود التي تُحيط بالمدينة النورماندية القديمة كنت فخورًا بسرعة سيارتي طراز «المورو ليبيتون» ذات موتور بقوة خمسة وثلاثين حصانًا، انطلقت مندفعًا بسرعة فائقة تجري من خلفي الأشجار والغيوم، لقد أصبحت بمنأى عن أي خطر، أسعى لتسوية أموري الشخصية مع (أرسين لوبين)، (أرسين لوبين) يسعى للقبض على (أرسين لوبين) بمساعدة اثنين من رجال الشرطة المخلصين، (غاستون ديفيليه) و(هورنييه ماسول)، ماذا كنت سأفعل بدونكم؟ إني أُقدِّر حقًّا هذه المساعدة الثمينة فكم مرة كنت سأُخطئ الطريق لولاكم لكان (أرسين لوبين) الحقيقي سيخسر وسينجح (أرسين لوبين) المزيف في الهرب.

لكن الأمر لم ينتهِ بعد، لا بد لي من اللحاق بالرجل والإمساك به أولًا ثم استرداد أوراقي التي سلبها مني، ما كان يجب لأحد أن يطَّلع على هذه الأوارق أبدًا، فما بالك بالاستيلاء عليها؟ كان عليَّ الاستعانة بهم والتصرف بعيدًا عنهم في الوقت ذاته، ولم يكن هذا بالأمر السهل أبدًا.

وصلنا إلى (دارنيتال) بعد انطلاق القطار بثلاث دقائق، كنت سأُصاب بإحباط

حاد، ولكن هون عليَّ قليلًا معرفتي بأن شخصًا يرتدي معطفًا رماديًّا طويلًا ذا ياقة سوداء من القطيفة قد صعِد على متن القطار في إحدى مقصورات الدرجة الثانية، بعد أن حجز تذكرة إلى «آميين»، لقد نفذ نفس توقعاتي تمامًا، كانت تلك بداية مُبشرة بالخير لأكون ضابط بوليس ممتاز.

أخبرني (ديفيليه):

- القطار السريع سيتوقف خلال عشرين دقيقة في «مونتروليه» إذا لم نصل قبله سيتمكن من الوصول إلى «أميين»، يمكنه أيضًا الهبوط في «كليرس» أو أن يستكمل الطريق إلى «دييب» أو باريس.

- كم المسافة إلى «مونتروليه»؟

- ثلاثة وعشرون كيلومترًا.

- ثلاثة وعشرون كيلومترًا، إذن سنكون هناك خلال تسع عشرة دقيقة؛ أي سنصل قبله.

كم كانت رحلة مثيرة، لم تطاوعني سيارتي «الموروليبيتون» وتصمد أمام نفاد صبري بهذه السرعة من قبل، بدا لي أنها تشاركني رغباتي، وأدركت من خلال هذا كم حقدي وعدائي لهذا الوغد (أرسين لوبين) الزائف، فهل سأتمكن من إيقاعه هذه المرة؟ هل سيتعامل بروح السيطرة التي فرضها عليَّ من قبل أم سأكون أنا من يُدير الموقف هذه المرة؟

- إلى اليمين، صاح (ديليفيه)، ثم إلى اليسار... نعم إلى الأمام مباشرة.

كدنا نطير من فوق الأرض، كانت علامات الطريق تختفي من أمامنا مثل الوحوش الجبانة التي يخيفها اقترابنا، وفجأة عند منعطف الطريق ظهرت زوبعة من الدخان الصاعد من فوهة مدخنة قطار الشرق السريع، كنا على رصيف المحطة في غُضون ثلاث ثوانٍ، أمام بوابات الدرجة الثانية، فتحت البوابات ونزل عدد قليل من الأشخاص، ولكن لم يكن لصي الهارب من بينهم، فتشنا جميع المقصورات، لا وجود لـ(أرسين لوبين)، صحت قائلًا:

- اللعنة! لا بد أنه تعرف عليَّ وأنا أقود السيارة بجوار القطار وقفز بينما كنا في الطريق.

أكد مفوض القطار هذا الأمر، فقد رأى رجلًا يقفز من القطار عند الجسر على بُعد مائتي متر من المحطة، ثم صاح:

- ها هو هناك يجتاز المزلقان.

انطلقت أعدو ومن خلفي رجلان؛ الشرطي أو بالأحرى يتبعني أحدهما، اتضح أن (ماسول) هذا عداء ماهر، لقد تجاوز مسافة كبيرة في فترة صغيرة جدًّا، تضاءلت المسافة الفاصلة بينه وبين الهارب خلال لحظات بسيطة، شاهدنا الرجل فاجتاز السياج مُسرعًا نحو الجسر، صعده ثم دلف إلى داخل غابة

صغيرة، عندما وصلنا إلى هذه الغابة كان (ماسول) ينتظرنا، لقد خاف من أن يمضي قُدمًا فنفقد أثره، قلت له بمرح:

- أهنئك يا عزيزي، فبعد هذا السباق لا بد من أن لصنا على وشك أن تنقطع أنفاسه الآن لقد وقع في قبضتنا.

فحصت الأماكن المحيطة لعلي أتمكن من إلقاء القبض عليه بمفردي حتى يمكنني استعادة أشيائي، لو وقعت في أيدي العدالة فلن أستعيدها أبدًا وسأدخل في سلسلة من التحقيقات غير السارة، لم أجده فعُدت إلى رفاقي قائلًا:

- الأمر بسيط، أنت يا (ماسول) ابقَ على يسار مدخل الغابة، (ديفيليه) إلى اليمين، من هذه الأماكن يمكنكم مراقبة حدود الغابة بأكملها فلا يمكنه أن يهرب دون أن ترياه، أما أنا سأتخذ هذا الكهف موقعًا للمراقبة، إذا لم يخرج سأدخل إلى أعماق الغابة وأجبره على الخروج، فينطلق هاربًا من ناحية أحدكم، ليس عليكم سوى الانتظار، آه نسيت، في حالة حدوث أي شيء مريب قوما بإطلاق النار.

ذهب كل من (ماسول) و(ديلفيه) في طريقه المنفصل، وبمجرد اختفائهم انغمست في أعماق الغابة بأكبر قدْر من الحذر، كانت غابة كثيفة مجهزة للصيد بها العديد من الممرات الضيقة جدًّا يتخللها أوراق الأشجار الكبيرة، وبالتالي لا يستطيع أحد السير بها إلا منحنيًا، كما هو الحال في سراديب المنازل الضيقة تحت الأرض، كان أحد تلك الممرات ينتهي بفسحة واسعة بين الأشجار، وقد لاحظت في هذا الممر آثار أقدام تابعتها وكنت حريصًا على التسلل خفية بكل حرص، قادني هذا الممر إلى سفح كومة صغيرة من الأنقاض يعلوها كوخ من الجبس الأبيض نصف منهار، لا بُدَّ أنه هناك، لقد اختار مخبأه بعناية، زحفت بالقرب من المبنى، نبهني صوت خافت إلى وجوده وعندما اقتربت أكثر رأيته من خلال فتحة في الجدار وقد أولاني ظهره، وبقفزتين سريعتين كنت فوق رأسه، حاول توجيه سلاحه ناحيتي ولكني لم أمنحه الوقت لذلك، قمت بلوي ذراعه وسحبه على الأرض جاثمًا بركبتي فوق صدره، ثم تمتمت له:

- اسمع يا عزيزي، أنا (أرسين لوبين) سوف تُعيد إليَّ فورًا بكل رضا محفظتي وحقيبة السيدة مقابل أن أنقذك من الوقوع في براثن الشرطة وأضمك ضمن عصابتي، فقط كلمة واحدة، نعم أم لا؟

- نعم.

- ذلك أفضل بكثير، لقد أحسنت الاختيار يا صديقي.

انتبهت إلى يده التي تسللت إلى جيبه ليُخرج سكينًا كبيرة في لحظة محاولًا ضربي بها، صِحْت به:

- يالك من أحمق!

وبيدٍ واحدة تصدَّيتُ لذلك الهجوم، ضربتُه بيدي الأخرى على شريانه السباتي أعلى رقبته فسقط مغشيًّا عليه فورًا، وجدت حافظة نقودي وبداخلها أوراقي وأموالي ثم استوليت على محفظته بدافع الفضول، قرأت اسمه على أحد جوانبها «بيير أونفري»، ارتعشت فجأة، (بيير أونفري)! سفاح شارع «لافونتين» في «أوتيل»، (بيير أونفري) المجرم الذي ذبح السيدة (دلبو) وابنتيها! اتكأت على صدره أتفحصه، نعم! كان هو هذا الوجه نفسه الذي انقضَّ عليَّ في المقصورة، تذكرت ملامحه التي سبق وحاولت تذكرها في القطار، الوقت كان يمضي فوضعت ورقتين نقديتين بقيمة مائتي فرنك في ظرف مع بطاقة تحمل هذه الكلمات:

«من (أرسين لوبين) إلى زملائه الأعزاء (هورنيه ماسول) و(غاستون ديفيليه) تعبيرًا عن الشكر والامتنان».

وضعت هذا الظرف في مكان واضح وسط الغرفة بجوار حقيبة مدام (رينو)، أكنت أستطيع أن لا أعيدها إليها؟ هذه الرفيقة الممتازة التي أنقذتني، ومع ذلك أعترف بأنني أخذت كل شيء يهمني بداخلها لم أترك سوى مشط وأحمر شفاة ماركة «دورين» ومحفظة نقود فارغة، العمل هو العمل! ثم إن زوجها يمارس مهنة بغيضة للغاية.

بدأ هذا المجرم في الاستيقاظ، ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ لم يكن لديَّ أي نية لإنقاذه، جرَّدْته من سلاحه وأطلقت رصاصتين في الهواء، سيأتي الرجلان فورًا، عليه أن يتدبَّر أمره بمفرده إذن، سيلقى مصيره المُقدَّر حتمًا، ركضت في الطريق المؤدي إلى الكهف، ثم بعد عشرين دقيقة أرجعني طريق مختصر ـكنت قد لاحظته في أثناء قيادتيـ إلى الطريق السريع مرة أخرى، في تمام الرابعة أرسلت برقية إلى أصدقائي في «روان» أخبرهم بأن حادثًا غير متوقع أجبرني على تأجيل الزيارة، ونظرًا للأخبار التي قد تصلهم الآن، فمن الممكن أن تؤجل هذه الزيارة للأبد، وهو أمر مُحبط لهم بالتأكيد، في تمام السادسة عُدتُ إلى باريس عبر جزيرتي «أنغيين» و«بورت بينو»، عندما وصلت علمت من الصحف المسائية أنه أُلقي القبض على (بيير أونفري).

في اليوم التالي، ودعونا لا نستخف بقوة تأثير مقالاتي المنفردة في جريدة «إيكو دي فرانس» على الجمهور، نُشِرت هذه المقالة المثيرة:

(بالأمس وبالقرب من «بوتشي»، بعد الكثير من المطاردات، تمكن (أرسين لوبين) من القبض على (بيير أونفري) سفاح شارع (لافونتين)، وكان قد سرق للتو حقيبة السيدة (رينو) زوجة نائب مدير مصلحة السجون، أعاد (أرسين لوبين) الحقيبة التي كانت تحتوي على مجوهرات السيدة وكافأ بسخاء الشرطيين اللذين عاوناه خلال هذه المطاردة المأساوية).

عقد الملكة

لمرة أو مرتين فقط خلال العام، ترتدي السيدة (بلينجون) كونتيسة «دي درو سوبيز» عقد الملكة حول رقبتها الناصعة، يحدث ذلك في الحفلات المهمة فقط، مثل الحفل الراقص الذي أقامته السفارة النمساوية هذه الليلة، هذا العقد الأسطوري الذي صمَّمه أشهر صائغي المجوهرات في العالم (بوهيمر) و(باستينج) للبارونة (دي بري)، والذي تورطت به الملكة (ماري أنطوانيت) ملكة فرنسا في قضية كبيرة خلال فترة حكم لويس السادس عشر، حيث تم الاحتيال على الكاردينال (روهان سوبيز) لتقديمه لها كهدية خاصة ومميزة بناءً علي رغبتها افتراءً وكذبًا، وأيضًا هو نفسه العقد الذي انتزعت منه الكونتيسة المغامرة (جان فالوا)، كونتيسة «لاموت» في إحدى ليالي شهر فبراير عام ١٧٨٥ ماساته الثمينة بمساعدة زوجها وصديقهما (ريتو دي فاييت).

في الحقيقة لقد احتفظ (ريتو دي فاييت) بالإطار الماسي للعقد فقط أما باقي الماسات والأحجار الكريمة التي اختارها (بوهيمر) الصائغ بعناية، فقد أضاعها السيد (لا موت) وزوجته، وبعد ذلك بِيع هذا الإطار في إيطاليا إلى (غاستون دي درو سوبيز) ابن أخ ووريث الكاردينال، الذي أنقذه من الفضيحة بعد الإفلاس الشهير الذي تعرض له (روهان غيميني)، فابتاع (غاستون) أيضًا بعض بقايا الألماس التي كانت بحوزة الصائغ الإنجليزي (جيفريز) تكريمًا لذكرى عمه ومجد عائلته، واستكملها ببعض الأحجار الأقل قيمة بكثير، ولكنها من نفس الحجم والشكل، ونجح بذلك في إعادة تصنيع «عقد الملكة» الرائع، فبدا كأنه الأصلي الذي خرج من تحت إيدي (بوهيمر) و(باستينج)؛ منذ ما يقرب من القرن كانت عائلة (دي درو سوبيز) تتباهى بامتلاكها هذه التحفة التاريخية القيمة، وعلى الرغم من تغير الظروف وانخفاض المستوى المعيشي، إلا أنهم فضلوا تقليل نفقاتهم والتخلي عن ترفهم قليلًا على التفريط في هذه التحفة الثمينة، وخاصةً الكونت الحالي، قد تمسك به للغاية حفاظًا على تراث أجداده، ولزيادة الحرص استأجر خزنة ببنك «الكريديت لوينيه» للاحتفاظ به، كان يأتي بنفسه لأخذه عندما تحيَّن المناسبة التي تقرر فيها زوجته ارتدءه، ويُعيده بنفسه أيضًا في اليوم التالي.

في ذلك المساء، وخلال حفل استقبال أمراء قصر «قشتادة» نجحت الكونتيسة بشكل مُبهِر في لفت أنظار الجميع، حتى الملك «كريستيان» نفسه الذي أُقِيمت هذه الحفلة على شرفه، فقد افتُتن بجمالها الباهر، كان للجواهر سحر خاص حول عنقها الرشيق، بريق الألماس يلمع مثل اللهب تحت الأضواء، لا يمكن لأحد غيرها أن يتألق بهذا العقد بكل تلك الجاذبية والجمال.

ياله من انتصار ضخْم استمتع به الكونت (دي درو)، وهنَّأ به زوجته عندما عادا إلى مسكنهما بحي «سان جيرمان»، لقد كان فخورًا بها مثلما كان فخورًا بالعقد الملكي الذي انتقل إلى أربعة أجيال متتالية، وقد استمدت منه زوجته هذا الفخر والغرور الساذج الذي يدل على شخصيتها المتغطرسة.

كالعادة نزعت العقد من عنقها وقدمته إلى زوجها الذي أخذ ينظر إليه بإعجاب كأنه يراه لأول مرة، وبعد ذلك أعاده إلى غلافه الجلدي الأحمر الذي يحمل شعار الكاردينال، ثم ذهب إلى خزنة على هيئة كوة صغيرة بداخل غرفة النوم، كان مدخلها الوحيد من تحت الفراش، وقد أخفاها جيدًا في نفس المكان المعتاد، تحت لوح مرتفع إلى حد ما بين صناديق القبعات وأكوام الملابس، ثم أغلق الباب جيدًا وقام بتبديل ثيابه.

في صباح اليوم التالي استيقظ قرابة التاسعة صباحًا، عازمًا الذهاب إلى بنك «الكريدي ليونيه» قبل تناول الغذاء، ارتدى ملابسه وتناول قدحًا من القهوة ونزل إلى الإسطبل حيث أعطى أوامره بتجربة أحد الخيول الذي كان قلقًا بشأن مرضه، جعله يجري أمامه ليفحصه حتى اطمأن، ثم عاد مرة أخرى إلى حجرته، فوجد زوجته، ولم تكن قد غادرت الغرفة بعد، كانت تقوم بتصفيف شعرها بمساعدة خادمتها، وعندما انتبهت لدخوله سألته:

- سوف تخرج؟

- نعم، سأذهب إلى البنك.

- آه، يجب عليك ذلك، هذا أفضل.

دخل الغرفة ثم عاد مسرعًا بعد ثوانٍ، سألها وملامحه تصرخ من الدهشة:

- هل أخذتيه يا عزيزتي؟

- كيف هذا؟ لم آخذ شيئًا.

- إذن كيف انتقل من مكانه؟!

- أنا لم أفتح باب الغرفة حتى!

كان واقفًا عند باب الغرفة وقد تبدلت هيئته إلى الاضطراب وقال بصوت مختنق:

- لم تأخذيه أو تغيري مكانه! أين اختفى إذن؟!

ركضت ناحيته وقاموا بتفتيش مضطرب، ألقوا بالصناديق على الأرض، بعثروا أكوام الملابس، ظل يكرر:

- لا فائدة، لا فائدة، كل ما نفعله بلا طائل، لقد وضعته هنا تمامًا تحت هذا اللوح وليس آخر.

- من الممكن أن تكون مخطئًا.

- أبدًا، لقد كان هنا.

أشعلوا شمعة؛ لأن الغرفة كانت مظلمة للغاية، قاموا بإزالة كل الملابس من الخزانة، وكل الأشياء التي أثقلت الأرفف، وعندما أفرغوا كل شيء بقيت الخزانة فارغة تمامًا، فما كان عليهم في النهاية إلا الاعتراف بيأس أن القلادة

الشهيرة «عقد الملكة» اختفت.

بحُكْم طبيعتها العملية، أبلغت الكونتيسة على الفور مفوض الشرطة السيد «فالوري»، ولم تُضيّعِ الوقت، أبلغاه بالتفصيل عن كل شيء فسأل على الفور:

- هل أنت متأكد سيدي الكونت أنه لم يدخل أحد غرفتك ليلًا؟

- متأكد تمامًا، فأنا أستيقظ فور حدوث أقل ضوضاء، بالإضافة إلى أن الغرفة كانت مُغلقة بالترباس الداخلي، ولم أفتحه إلا في الصباح عندما استدعت زوجتي الخادمة.

- ألا يوجد ممر آخر يسمح بدخول الغرفة؟

- لا.

- لا يوجد نافذة؟

- يوجد، ولكنها مسدودة تمامًا.

- أود أن أتحقق منها.

ذهب في اتجاه النافذة، أشعل شمعة وعلى الفور لاحظ أن النافذة ليست مسدودة بأكملها، فقط حتى المنتصف بواسطة خزانة ملابس أمامها ولكنها لا تغطي الارتفاع الكامل للنافذة.

قال السيد درو:

- إن الدولاب مُلتصق بالنافذة بما فيه الكفاية، فلا يمكن تحريكه دون إحداث أي ضوضاء.

- على ماذا تطل هذه النافذة؟

- على رواق داخلي.

- هل هناك أدوار أخرى غير هذا؟

- اثنان آخران، لكن هذا الرواق الداخلي مُحاطٌ بسور من القضبان الحديدية، لهذا السبب يصل إلينا ضوء النهار بسيط جدًّا، عندما قمنا بدفع الخزانة جانبًا رأينا أن النافذة مُغلقة بإحكام، وهذا ما كان ليحدث لو أن أحدهم دخل من الخارج، لاحظ الكونت حديثه وقال:

- ما لم يكن قد خرج من غرفتنا.

فكَّر السيد (فالوري) قليلًا ثم قال مخاطبًا الكونتيسة:

- هل هناك أحد يعلم بأنك كنتِ تحتفظين بهذا العقد أمس؟

- بالطبع، فقد كنت أرتديه علانية، ولكن لا أحد يعلم بأننا نحتفظ به في غرفتنا.

- لا أحد أبدًا؟

- نعم، لا أحد سوى......

- من فضلك سيدتي، أفصحي لي عن كل شيء، فهذه النقطة الأكثر أهمية.

وجَّهت الحديث لزوجها:

- هل فكرت في (هنرييت)؟

- (هنرييت)! إنها لا تعرف أكثر مما يعرفه الآخرون.

- هل أنت متأكد؟

فسأل السيد (فالوري):

- من تلك السيدة من فضلكم؟

- صديقة قديمة من دير الراهبات، انفصلت عن أهلها بعدما تزوجت عاملًا أحبته، وعندما مات زوجها أخذتها هي وطفلها وتولَّيت أمرهم، أعددت لهم غرفة في منزلنا هذا، ثم استأنفت حديثها بشيء من الحرج:

- هي تقدم لي بعض الخدمات من وقت لآخر، فهي ماهرة في المهام اليدوية.

- في أي طابق تسكن؟ أجاب الكونت مسرعًا

- ليس ببعيد عن البقية، في آخر هذا الرواق أيضًا، ثم إن... وأخذ يفكر لعدة لحظات ثم استأنف حديثه:

- أعتقد أن نافذة مطبخها... قاطعه السيد (فالوري) مستكملًا:

- تطل على هذا الرواق؟ أليس كذلك؟

- نعم، أمامنا مباشرة.

تبع هذا الحوار صمت لعدة دقائق قطعه السيد (فالوري) بطلبه مقابلة السيدة (هنرييت).

ذهبوا في اتجاه غرفتها، وعندما دخلوا وجدوها تقوم بحياكة بعض الملابس بينما كان ابنها (راؤول) وهو طفل يبلغ من العمر ستة أو سبعة أعوام يقرأ بجانبها، استجوبها المفوض والدهشة تسيطر عليه لما رآه بهذه الغرفة من بؤس وفقر، غرفة حقيرة لم يتم تأثيثها جيدًا، دون مدفأة، ملحقة بمطبخ صغير، بدت مستاءة عندما علمت بشأن السرقة، وقالت إنها في الليلة السابقة قامت بنفسها بمساعدة الكونتيسة في ارتداء العقد وربطه حول عنقها، ثم صاحت بحسرة:

- يا إلهي! من كان يعلم أنه.....

- أليس لديك أي فكرة عن كيفية حدوث ذلك؟ من الممكن أن يكون السارق عبر

من خلال غرفتك.

ابتسمت باندهاش ولم تفطن إلى تلميحه في الشك بها:

- لكني لم أترك غرفتي! لم أخرج أبدًا، ثم ألم ترَ؟

نهضت إلى نافذة المطبخ قائلة:

- يوجد حوالي ثلاثة أمتار تفصلني عن الجهة المقابلة للنافذة.

- من قال لكِ بأننا نعتقد بأن السرقة تمت من هنا؟

- لكن ألم يكن العقد بخزانة الغرفة الصغيرة؟

- وكيف علمتِ بذلك؟

- من السيدة، كنت أعرف دائمًا أنها تضعها في الخزنة ليلًا، لقد دار حديثهم أمامي ذات مرة.

كانت ما تزال شابة صغيرة، رغم ما تواجهه من بؤس أذبل مظهرها، في أثناء هذا الصمت الواقع، شعرت بشيء من الخوف يهددها، فضمت ابنها إليها، بينما استجاب الولد في حنان ممسكًا بيد أمه وقبَّلها.

عندما أصبح السيد (درو) مع المفوض بمفردهما قال له:

- لا أظن بأنك تشك بها، أنا أثق بها تمامًا فطالما كانت تجسيدًا حيًّا للأمانة والإخلاص.

- أوه، إنني أتفق معك كليًّا ـأكد السيد فالوربي هذاـ ثم استكمل حديثه:

- كل ما فكرت به هو إمكانية تواطئها في شيء ما دون إدراكها لهذا، لكني أفضل التخلي عن هذه الفكرة طالما أنها لن يمكنها بأي حال من الأحوال حل اللغز الذي يواجهنا.

لم يستكمل السيد (فالوربي) التحقيق أكثر من ذلك، وخلال الأيام المُقْبلة كُلف قاضي التحقيقات باستكمال القضية، حيث جرى استجواب الخدم بأكملهم وفحص القفل والخزنة وتفتيش الفناء والرواق من أعلى إلى أسفل، ولكن كل هذه المجهودات ضاعت هباءً؛ إذ إن القفل كان سليمًا والنافذة لا يمكن فتحها أو إغلاقها من الخارج، وبشكل محدد أكثر، تركزت بحوثهم حول (هنربيت)، فرغم كل شيء كان التحقيق يرجع في كل مرة إلى هذه النقطة، تم التقصي عن حياتها بدقة، فتبين أنه خلال الثلاث سنوات المنصرمة لم تغادر المنزل سوى أربع مرات فقط ولمهام حُدِّدت بدقة، في الحقيقة هي تعمل كخادمة وخياطة للسيدة (دي درو)، والتي كانت تعاملها بحزم وصرامة، وقد شهد كل الخدم على هذا في سرية تامة، قال قاضي التحقيقات بعدما توصل إلى نفس النتائج التي توصل إليها السيد (فالوربي) المفوض من قبل:

- بغضِّ النظر عن عدم معرفتنا من هو السارق، نجهل أيضًا كيف تمت عملية

السرقة؟ فنحن بين عقبتين ثابتتين، الباب والنافذة وهما مغلقان بإحكام، فهذا اللغز يحتوي على شقين غامضين، كيف استطاع اللص الدخول إلى الغرفة؟ والأصعب من ذلك هو كيف استطاع الخروج تاركًا من خلفه بابًا ونافذة مُحكَمَي الإغلاق؟!

بعد مرور أربعة أشهر من التحقيقات المُضنية، كانت الفكرة التي كوَّنها القاضي عن تلك الواقعة هي أن السيد والسيدة (دي درو) كانوا في مأزق مالي كبير، اضطروا على أثره إلى بيع «عقد الملكة»، وأُغلِق ملف القضية بناءً على هذا الاستنتاج.

كانت سرقة هذه الجوهرة الثمينة بمثابة ضربة قاضية لآل سوبيز، لم يعد هناك أي أمان يدعمهم مثلما كان يفعل هذا العقد، لم يكن أمامهم سوى الاستدانة، وجدوا أنفسهم أمام دائنين أكثر تطلبًا ومُقرضين أقل نزاهة، ولجئوا إلى الرهن العقاري، باختصار كانوا على مشارف الهلاك، لولا أنهم أُنقذوا بواسطة إرث كبير جاءهم من قريب لهم، ولكنهم فقدوا جزءًا كبيرًا من كبريائهم بجانب خسارة هذا العقد.

الشيء الغريب أن الكونتيسة وجَّهت كراهية شديدة تجاه صديقتها القديمة (هنرييت)، شعرت بضغينة حقيقية تجاهها وكأنها تلقي اللوم عليها علانيةً، في بداية الأمر أنزلتها إلى طابق الخدم ثم بين ليلة وضحاها قامت بطردها نهائيًّا.

استكملت الحياة سيرها دون أحداث تُذكر، فقد كان (آل سوبيز) يسافرون كثيرًا، شيء واحد فقط لا بد من ذِكْره خلال تلك الفترة، بعد أشهر قليلة من رحيل (هنرييت)، تلقت الكونتيسة منها خطابًا أصابها بالدهشة:

«سيدتي الفاضلة، لا أعرف كيف أشكرك؟ لقد كان هذا أنتِ بالتأكيد، أليس كذلك؟ من أرسل هذا لا يمكن أن يكون أحد سواك، لا أحد يعرف أني تقاعدت عن عملي لديكم وبقيت في هذه القرية النائية غيرك، فإن كنت مخطئة، فاسمحي لي على الأقل بالتعبير عن امتناني للطفك السابق».

ماذا تقصد بهذه الرسالة؟ فطالما كان لطف الكونتيسة هذا يحوي قدرًا كبيرًا من الظلم وسوء المعاملة، فماذا كانت تعني بهذا الشكر؟ وعندما طُلب منها توضيح موقفها، ردت بأنها تلقت بالبريد رسالة غير مُوقَّعة، كان بداخلها ورقة نقدية بقيمة ألف فرنك، وكان الظرف الذي أرفقته بردها مختومًا من باريس، ولم يكن يحمل سوى عنوانها الحالي، وكان الخط يبدو وكأنه مُلفَّق.

من أين أتتها هذه الألف فرنك؟ من أرسلها؟ تساءل الجميع ولكن لا يوجد أي أثر يمكننا اقتفاؤه وسط كل هذا الغموض. حدثت نفس الواقعة مرة أخرى بعد مرور سنة كاملة، ومرة ثالثة ورابعة وكل عام لمدة ست سنوات مع فارق أنه في كل من العامين الخامس والسادس تضاعف المبلغ، مما مكَّن (هنريت) التي مرضت فجأة من الاعتناء بنفسها جيدًا، هناك ملاحظة أخرى، بعد أن صادرت

مصلحة البريد أحد تلك الخطابات بحجة أنه لا يوجد طابع بريد، تم إرسال الخطابان الأخيران الأول من «سان جيرمان» والثاني من «سورسن»، وتم التوقيع مرة باسم «إنكيتي» ومرة باسم «بيشار»، وكان عنوان الراسل المذكور في كل المرتين خطأً بالتأكيد.

بعد انقضاء ست سنوات ماتت (هنرييت)، وبقي اللغز دون حل.

كل هذه الأحداث كانت مُتداولة ومعروفة بشكل واضح للعلن، فهذه واحدة من القضايا التي أثارت الرأي العام بشدة، وتابعها الجمهور بشغف، من الغريب هذا المصير الغامض الذي آل إليه هذا العقد بعد أن تسبب في انقلاب الأحداث في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر، وما زال يُثير ضجة بعد انقضاء قرن آخر من الزمن، ولكن ما سيُذكر الآن يجهله أغلب الناس ما عدا الأطرافَ المعنيةَ التي سأذكرها بالفعل وبعضًا ممن طلب منهم الكونت (دي درو سوبيز) الكتمان، وبما أنه كان هناك احتمال وارد بتسريب هذه الأحداث، ولا يوجد أي ضمان للسرية التامة، فليس لديَّ أي قلق الآن حيال ما سوف أكشف عنه الحجاب، سيكون لدينا بجانب تفسير اللغز الغامض، تفسير آخر للخبر الذي نشرته الجرائد صباح أول أمس؛ وهو خبر مُثِير أضاف الكثير من الغموض إلى هذه الدراما الغريبة.

منذ خمسة أيام كانت مائدة الغذاء بمنزل السيد (دي درو سوبيز) تضم من النساء، كلًّا من ابنتي أخته وعمته، ومن الرجال الرئيس (أيزافيل) والنائب (بوشاس) والفارس (فلوراني) الذي تعرف عليه الكونت في صقلية، والجنرال (ماركيز دي روزير)، أحد أصدقاء الكونت القدامى في النادي، بعد تناول الطعام قدمت السيدات القهوة، وسُمِح للسادة المحترمين بتدخين السيجار بشرط أن لا يغادروا غُرفة المعيشة، دار بينهم السَّمَر، وقامت فتاة من بينهم بقراءة ورق اللعب والطالع، ثم دار الحديث بعد ذلك عن الحوادث المشهورة في المجتمع، وفي هذا الصدد أتى السيد (روزير) على ذِكْر حادثة العقد الشهير، وهو لا يُفوِّت أي فرصة لمضايقة الكونت (دي درو)، لطالما كان هذا الموضوع يثير غضبه، أدلَى الجميع برأيه على الفور كل حسب معتقده الشخصي، تناقضت الآراء وبَدَتْ غير منطقية إلى حدٍّ ما، سألت الكونتيسة الفارس (فلورياني):

- وأنت يا سيدي، ما رأيك؟

- أوه! ليس لديَّ رأي يا سيدتي.

أطلق الجميع على الفور صيحة تعجب، وذلك لأن الفارس قد روى لهم من قبل الكثير من المغامرات شديدة الغرابة التي واجهها والده وهو قاضٍ مشهور في «باليرمو»، والتي كان يعبر في أثناء روايتها عن حكمته ومهارته الفائقة في حل الألغاز والمغامرات، فقال:

- حسنًا، أعترف بأني نجحت عدة مرات في كشف العديد من القضايا التي استسلم فيها من هم أكثر مني مهارة، ولكني لست (شيرلوك هولمز)، ثم

إنني أجهل الكثير عن تفاصيل هذه القضية.

فلجئُوا جميعًا إلى صاحبِ البيت، الذي قبل على مضض أن يقدم تلخيصًا للوقائع التي حدثت سابقًا، استمع الفارس وتفكر قليلًا، ثم بدأ يطرح بعض الأسئلة في صوت خفيض ثم قال:

- إنه أمرٌ مضحك، فللوهلة الأولى تعتقد أنه لغز صعب التخمين.

هز الكونت كتفيه في لا مبالاة، بينما احتشد الآخرون حول الفارس مُصغين السمع جيدًا، وأخذ يستكمل حديثه بنبرة واثقة نوعًا ما:

- في الغالب عند حدوث أي جريمة لكي نقوم بمعرفة الجاني علينا أولًا تحديد كيفية ارتكاب هذه الجريمة، أو على الأقل تحديد إمكانية ارتكابها، في القضية الحالية الأمر بسيط للغاية؛ لأنه لا يوجد الكثير من الاحتمالات، فقط احتمال واحد قوي ومؤكَّد وهو أنه لا يمكن لأحد الدخول إلى الغرفة إلا عن طريق الباب أو النافذة، وبما أن الباب كان مُغلقًا بالترباس من الداخل فإنه قد دخل من النافذة بكل بساطة.

رد السيد (دي درو):

- لقد كانت مُغلقة بإحكام.

واصل (فلورياني) كلامه دون أن يُلقي بالًا بمقاطعة السيد (دي درو) له:

- كل ما يحتاجه هو صُنع جسر، مجرد لوح خشبي بين شرفة المطبخ وعتبة النافذة، فبمجرد حدوث ذلك.... قاطعه الكونت مرة أخرى بنفاد صبر واضح:

- لكنني أكرر أن النافذة كانت مغلقة بإحكام.

اضطر (فلورياني) أن يرد عليه هذه المرة بأقصى درجات ضبط النفس، فلم يزعجه مثل هذا الاعتراض التافه:

- أريد أن أصدق أنه كان كذلك، ولكن أليس هناك شراعة؟

- كيف علمت هذا؟

- أولًا: لأن هذا طراز جميع النوافذ في ذلك الوقت، ثانيًا: لا بد من وجود هذه الشراعة في هذه الحالة التي نحن أمامها، وإلا سيستحيل تفسير هذه السرقة.

- فعلًا، كان هناك شراعة أعلى النافذة، ولكنها كانت مُغلقة أيضًا.

- خطأ، لو انتبهتم قليلًا لاكتشفتم أنها فُتِحت.

- كيف ذلك؟!

- لا بد وأنها مثل باقي الشراعات الأخرى تُفتح بواسطة سلك حديدي مجدول مع حلقة دائرية في نهايته السفلية، أليس كذلك؟

- نعم.

- وهذه الحلقة بالتأكيد معلقة بين النافذة والخزانة؟

- نعم، ولكني لا أفهم شيئًا!

- من خلال إحداث ثقب بسيط في النافذة باستخدام مثقب ما، ثم استخدام أي قضيب حديدي بنهايته خطاف سيُمسك بالحلقة المعدنية، ثم السحب والفتح.

رد الكونت ساخرًا:

- أنت تصف كل شيء بشكل مثالي حقًّا، ولكنك نسيت شيئًا مهمًّا سيدي العزيز، لم يكن هناك أي ثقب في النافذة.

- بل يوجد هناك ثقب.

- ما هذا العبث؟ لو كان موجودًا لكنا قد رأيناه حينها.

- لكي ترونه لا بد من فحص إطار النافذة جيدًا، ولم يحدث ذلك، من المستحيل عمليًّا أن لا يكون موجودًا، في آخر طرف الزجاج، مقابل الجبس، عموديًّا إلى أعلى.

نهض الكونت من مكانه، وبدا متحمسًا للغاية، قطع الغرفة ذهابًا وإيابًا بعصبية مرتين أو ثلاث مرات، ثم توقف أمام (فلورياني) قائلًا:

- لم يتغير شيء هناك منذ ذلك الحين، لم يطأ أحد هذه الغرفة الصغيرة قط.

- في هذه الحالة سيدي يمكنك التأكد ما إذا كانت نظريتي تطابق الواقع أم لا.

- لا يتفق هذا الحديث مع أي من الأدلة التي وجدها التحقيق، أنت لم ترَ شيئًا ولا تعرف شيئًا وبقولك هذا تناقض كل ما تحققنا منه.

لم يبدُ أن (فلورياني) انتبه إلى غضب الكونت ومقدار غيظه فتابع كلامه قائلًا:

- يا إلهي! سيدي! أنا فقط أحاول أن أرى الأمور بوضوح أكثر، هذا كل ما في الأمر، فإذا كنت مخطئًا يمكنك أن تثبت لي هذا فورًا.

- سوف أثبت لك هذا.

تمتم السيد (دي درو) ببعض كلمات بينما كان يتجه إلى باب الغرفة وذهب في اتجاه الرواق، لم ينطق أحد بكلمة كانوا ينتظرون بقلق، وكأن هناك حقيقة جديدة على وشك الظهور، عمَّ صمت ثقيل في الأنحاء، بعدها عاد الكونت أخيرًا، وقف على مدخل الغرفة وكان وجهه شاحبًا مضطربًا بشكل ملحوظ، ثم قال بصوت متوتر خفيض:

- عذرًا سيدي، فإن اكتشافك غير متوقع البتة، لم يخطر على بالي أبدًا... ثم صمت وكأنه يسترد أنفاسه، تدخلت زوجته تسأل بلهفة:

- أكمل حديثك من فضلك.

تلعثم قائلًا:

- الثقب موجود بالفعل في نفس المكان الذي ذكره، أعلى حافة النافذة عموديًّا فوق الجبس، ثم اتجه ناحية الفارس ممسكًا بذراعيه وقال:

- والآن يا سيدي، أنا مقتنع تمامًا بأنك على حق، ولكن من فضلك أكمل لي ماذا حدث بعد ذلك من وجهة نظرك؟

تخلص (فلورياني) من قبضته بكل هدوء وبعد لحظة قال:

- حسنًا، في رأيي أن ما حدث هو الآتي، أن السارق كان يعرف أن السيدة (دي درو) ستذهب إلى الحفل مرتدية العقد، فأقام الجسر الخشبي في أثناء غيابكم بالحفل، من خلال نافذة المطبخ، راقبك جيدًا بينما كنت تخفي العقد، وبمجرد مغادرتك للغرفة، صنع الثقب وفتح الشراعة.

- ولكن المسافة كبيرة جدًّا بين الشراعة ومزلاج النافذة لا يمكنه الوصول إلى المزلاج وفتح النافذة للدخول من خلالها أبدًا.

- هو لم يفتح النافذة أبدًا بالفعل، لقد دخل من الشراعة نفسها.

- مستحيل! لا يوجد رجل نحيف كفاية ليستطيع الدخول من هذا المنفذ الصغير.

- إذن فهو ليس رجلًا.

- كيف هذا؟

- من المؤكد إن كان هذا المنفذ ضيقًا جدًّا بالنسبة لرجل، لا بد أن الذي دخل طفل.

- طفل!

- ألم تخبرني أن (هنريتت) هذه كان لديها ولد؟

- نعم، ولد اسمه «راؤول».

- من المحتمل أن يكون هو قام بالسرقة.

- وما دليلك على هذا؟

- دليل! الأدلة كثيرة للغاية، فعلى سبيل المثال، أخذ يفكر بضع ثوانٍ ثم استكمل:

هذا الجسر الذي صنعه لا يمكن أن يكون أحضره من الخارج، من المؤكد أنه استخدم الوسائل المتاحة أمامه في المطبخ، حيث كانت والدته تعد الطعام، هل كان هناك أرفف معلقة على الحائط تضع عليها الأواني؟

- نعم، هناك رفان على ما أعتقد.

- سيكون من الضروري التأكد ما إذا كانت هذه الألواح مُثبتة بالفعل إلى الحائط أم أن الطفل تمكَّن من فكِّها وربطها معًا، ونظرًا لوجود الفرن، فلا بد أنه استخدم السيخ المعدني الذي يستخدم في الشواء لصُنع الثقب.

خرج الكونت من الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة، وهذه المرة لم يُشعِر الموجودين بكل هذا القلق الذي أحسوا به في المرة الأولى، فقد تيقنوا جميعًا من صحة تنبؤات (فلورياني)، لقد كان يتحدث بثقة غريبة، وكأنه يروي أحداثًا يعلمها يقينًا وليست أحداثًا يستنتجها لأول مرة، لم يتفاجأ أحد عندما عاد الكونت مرة أخرى إلى الغرفة مُعلنًا:

- إنه الطفل حقًّا! هو بالتأكيد، كل شيء يثبت ذلك.

- هل تحققت من الألواح والسيخ المعدني؟

- نعم، لقد تفحصت اللوحين، لم يكونا مثبتين، كما رأيت السيخ المعدني ما زال هناك أيضًا.

صاحت الكونتيسة (دي درو) فجأة:

- ليس هو بالأحرى ولكن والدته، (هنرييت) هي الجاني الحقيقي، من المؤكد أنها قد حرضته.

- لا ـرد الفارس بسرعة وثباتـ الأم ليس لها علاقة بالموضوع أبدًا.

- لقد كانا يعيشان معًا في نفس المكان، لا يمكن أن يقوم الطفل بأي شيء دون عِلْم والدته.

- كانا يعيشان في غرفة واحدة نعم، ولكن السرقة تمت في غرفة مجاورة بالإضافة إلى أنه قام بذلك ليلًا بينما كانت الأم نائمة.

- والعقد؟ ـتساءل الكونتـ لو أن الأمر كذلك، فكان من السهل العثور عليه في متعلقات الطفل.

- معذرة، فالطفل كان يخرج، لقد كان عائدًا من المدرسة في نفس اليوم الذي رأيته أنت نفسك في غرفته هو وأمه، كان من الأجدر لرجال الشرطة بدلًا من الشك في الأم البريئة أن يتحققوا من مكتب الطفل بالمدرسة.

- ولكن هذه الألف فرنك التي كانت تتلقاها (هنرييت) كل عام، ألا يعتبر هذا أفضل دليل على تواطئها؟

- متواطئة؟ هل لو كانت كذلك كانت سترسل إليك برقية لتشكرك على هذا المال؟ ثم ألم يراقبوها بينما كان الطفل حرًّا طليقًا، لقد كان لديه كل الإمكانيات للهرب إلى بلد أخرى، الوصول إلى أي تاجر مثلًا وبيعه ماسة أو ماستين حسب الحالة وقتها، بشرط أن يرسل إليه المال من باريس، ويعود إليه مرة

أخرى كل عام.

بدا على الزوجين الانزعاج الشديد، وخيَّم نوع من التوتر على الحضور، كان هناك شيء غريب في لهجة الفارس يزعج الكونت، بغض النظر عن هذا اليقين والثقة التي يتحدث بهما فقد كانت نبرته ونظراته تنم عن سخرية دفينة عكس ما يفترض إظهاره من تعاطف وود في هذا الموقف.

بدأ الكونت يضحك ساخرًا ثم قال:

- كان هذا عبقريًّا فعلًا لديك خيال جامح بالفعل.

صاح (فلورياني) دون خجل:

- لا ليس خيالًا، فأنا أعيد تصوير الجريمة كما حدثت تمامًا.

- وكيف لك أن تعلم بذلك؟

- كما قلت أنت بنفسك، الخيال، أنا أتخيل حياة الأم والطفل هناك في أعماق هذه القرية الصغيرة، الأم تمرض والطفل يتحمل مسئولية بيع الماسات لإنقاذ أمه أو على الأقل تخفيف آلامها، ينتصر الشر في النهاية وتموت الأم، تمر السنوات فيكبر الطفل ويصبح رجلًا، وعليَّ ان أطلق العنان لخيالي أكثر وأفترض أن هذا الرجل يحن إلى العودة مرة أخرى إلى الأماكن التي قضى بها طفولته ويشعر بالحاجة لرؤيتها مجددًا، ويلتقي بمن اتهموا أمه وشككوا بأمانتها، هل لكم أن تتخيلوا مدى تأثير هذا اللقاء عندما يحدث في المنزل القديم حيث وقعت هذه الدراما المأساوية؟

ترددت صدى كلماته لبضع ثوانٍ خلال الصمت الثقيل الذي خيَّم على الجميع، امتقع وجه الكونت والكونتيسة (دي درو)، كانت هناك محاولات بائسة لفهم هذه الأقوال يشوبها خوف غامض من إدراك الحقيقة المنشودة.

تردد الكونت لحظات قبل أن يتمتم قائلًا:

- من أنت إذن يا سيدي؟

- أنا؟ أنا الفارس (فلورياني)! الذي صادقته في باليرمو والذي كنت لطيفًا معه لدرجة أنك شرفته بدعوتك له في منزلك هذا أكثر من مرة.

- إذن ما معنى هذه القصة؟

- أوه، لا شيء على الإطلاق، إنها مزحة بسيطة لا أكثر أحاول أن أتخيل الفرح الذي سيشعر به ابن هنرييت لو أنه ما زال موجودًا، وهو يعترف بأنه المُذْنِب الوحيد، وأنه قام بما قام به لمساعدة أمه على مواجهة قسوة الحياة، وأنه كان يتألم ويعاني وهو يرى والدته غير سعيدة.

كان يسرد هذا الوصف بعاطفة جيَّاشة وتأثر واضح، وقد نهض بعض الشيء واقترب من الكونتيسة وهو يتحدث، لا شك أبدًا أن الفارس (فلورياني) هو

بالفعل (راؤول) ابن هنرييت، كل شيء يثبت ذلك، كلماته ووصفه بالإضافة إلى ذلك ألم تكن نيته واضحة منذ البداية بالتقرب من الكونت وزوجته؟

أحس الكونت بشيء من التردد تجاه هذا الشخص الجريء، أكان يجب عليه أن يفضحه؟ أن يكشف من الذي جرَّده من كبريائه وسلبه أعز ممتلكاته؟ ولكنها أحداث وقعت منذ زمن بعيد، فمن سوف يُصدِّق هذه القصة العبثية عن طفل سارق؟

كان من الأفضل التغاضي عن إدراك الموقف والتظاهر بعدم فهْم المغزى الحقيقي من سرْد هذه التخيلات، اقترب الكونت من (فلورياني) وقال بمرح:

- روايتك مثيرة جدًّا، أقسم لك بأنني متحمس أيضًا لهذا اللقاء، ولكن في رأيك ماذا تتوقع أنه قد حدث لهذا الشاب الطيب، هذا النموذج المثالي من الأبناء آمل أنه لم يتوقف عن هذا الطريق.

- بالطبع لا، لم يتوقف.

- أليس كذلك؟ فبعد هذه البداية العظيمة لقد سرق «عقد الملكة» وهو في السادسة، العقد الملكي الشهير، الذي تمنته يومًا ما ماري أنطوانيت.

رد (فالورياني) وهو مستمر في مجاراة الكونت:

- نعم، لقد سرق دون أدنى معاناة، بكل بساطة، دون أن يلاحظ أحد الثقب في الزجاج أو فتحة الشراعة أو التأكد من نظافة حافة النافذة من آثاره فوق التراب الكثيف الذي كان يحيط بها، لم يكن عليه سوى أن تكون لديه إرادة قوية ثم أن يمد يده فقط ليأخذ ما يريد.

- وهل مدَّ يده حقًّا؟

- بالفعل، لقد مدَّ كلتا يديه. رد الفارس ضاحكًا باستهزاء.

سرى اضطراب وتوتُّر بين الحضور، فكم من ألغاز غامضة تخفيها حياة هذا الفارس (فلورياني)، كم كان وجود هذا اللص اللامع منذ أن كان ابن السادسة شيئًا فريدًا واستثنائيًّا، ها هو جاء اليوم مُثقلًا بالذكريات يملؤه الحنين وتقوده المغامرة وشيء آخر أكثر تهورًا، وهو تحدي ضحيته في منزله بجرأة وجنون، ياله من ضيف شجاع!

نهض مقتربًا من الكونتيسة ليطلب الإذن بالمغادرة، فتراجعت في حركة سريعة مضطربة، فابتسم قائلًا:

- سيدتي! هل أنت خائفة؟ هل تماديت في مزاحي إلى هذه الدرجة؟

تمالكت نفسها وأجابت بنفس نبرة السخرية:

- لا يا سيدي على الإطلاق، لقد أثارت قصة هذا الابن الصالح اهتمامي كثيرًا، في الحقيقة أنا سعيدة لأن عقدي لقي هذا المصير النبيل، لكن ألا تعتقد أن

ابن هذه السيدة لا بد أنه لقي مصيره الذي يستحقه أيضًا؟

فهم جيدًا ما ترمي إليه بحديثها فقال:

- تمامًا، أنا مقتنع بهذا كليًّا يا سيدتي، لا بد أن يكون هذا المصير عادلًا كفاية حتى يتحمل ما لا يستحقه ويندم عن نيته الطيبة.

- وكيف هذا؟

- كما تعلمين يا سيدتي، معظم الماسات في هذا العقد كانت مزيفة، فلم يكن به سوى عدد قليل جدًّا من الماسات الحقيقية، والذي باعها إلى الصائغ الإنجليزي، أما الباقي فقد باعها واحدة تلو الأخرى وفقًا لظروف الحياة الصعبة التي كان يمر بها.

قالت الكونتيسة في لهجة متغطرسة:

- مهما يكن، ولكنه مازال «عقد الملكة» يا سيدي، وهذا ما لم يفلح في فهمه ابن (هنرييت) على ما يبدو.

- لا بد أنه فهم ذلك يا سيدتي، فهذا العقد سواء أكان مزيفًا أو حقيقيًّا هو غرض للزينة ورمز للترف ليس إلا.

أقدم الكونت (دي درو) على القيام ببادرة ما ولكن إشارة من زوجته منعته، فتوقف فورًا ونهضت هي قائلة:

- سيدي، لو كان الرجل الذي تتحدث عنه لديه القليل من الاحترام والنبل... ثم ما لبثت أن سكتت وظهر عليها الخوف من نظرة (فلورياني) الثابتة فردد كلامها ليحثها على الاستكمال:

- إذا كان لديه القليل من الاحترام........

شعرت بأنها لن تجني شيئًا من التحدث إليه بهذه الطريقة، وعلى الرغم من غضبها ونزعة الكبرياء التي سيطرت عليها، قالت في صوت هادئ:

- سيدي، تقول الأسطورة إن (ريتو دي لا فاييت) و(جان دي فالو) عندما كانا يمتلكان العقد نزعا منه كل ماساته ولكن لم يتجرأ أحدهما على المساس بالهيكل نفسه بأي سوء، لقد أدركا أن الألماس هو مجرد زينة، إنما الإبداع الحقيقي يكمن في الهيكل نفسه وقد احترما هذا، هل تعتقد بأن هذا الطفل كان واعيًا كفاية ليدرك هذه الحقيقة؟!

- لا أشك من وجود الهيكل، لقد أدرك الطفل هذه الحقيقة واحترمها.

- حسنًا، أرجوك يا سيدي إذا التقيت به يومًا ما مصادفة، أخبره بأنه استولى ظلمًا على إحدى ثروات عائلتنا، وأنه لو فرط في الأحجار والألماس، فما زال «عقد الملكة» ينتمي إلى آل درو سوبيز؛ فهو بالنسبة لنا رمز للشرف والكرامة.

أجابها الفارس ببساطة:

- سأخبره حينها يا سيدتي.

انحنى يحيي الكونت والكونتيسة، ثم حيا الحضور جميعًا واحدًا تلو الآخر وغادر.

بعد مرور أربعة أيام على هذا اللقاء، وجدت السيدة دي درو على طاولة غرفة نومها، حقيبة جلدية حمراء تحمل شعار الكاردينال، وعندما فتحتها وجدت بداخلها «عقد الملكة».

ولكن مثلما تجري كل الأمور في حياة رجل يهتم بالمنطق والنظام ويحترم وسائل الإعلام الهادف، الذي يخدم مصالحه إلى حد ما، فقد نشرت جريدة «إيكو دي فرانس» في صباح اليوم التالي هذا الخبر المُحير:

«عثر (أرسين لوبين) على «عقد الملكة»، تلك الحلية التاريخية الشهيرة التي سرقت من عائلة «درو سوبيز» منذ زمن، وسارع إلى أعادتها إلى أصحابها الشرعيين فورًا، فبالرغم من كل ما نعرفه عنه، لا يسعنا إلا أن ننحني احترامًا لهذا الرجل الشهم النبيل

السبعة ...

كثيرًا من الأحيان يُطرح على هذا السؤال:

- كيف عرفت (أرسين لوبين)؟

لا أحد يشك في أنني أعرفه، الأسرار المتراكمة في جعبتي عن هذا الرجل الغامض، الحقائق التي لا يمكن دحضها، التوضيحات التي أقدمها تفسيرًا لأفعاله التي لم نشهد منها سوى مظهرها الخارجي ونجهل الأسباب السرية والدوافع غير المرئية لها، كل هذا يثبت جيدًا وجود علاقة وثيقة بيننا، وإن كانت طبيعة (أرسين لوبين) تتعارض مع هذه الفرضية، فعلى الأقل هناك علاقة ثقة مستمرة ومتبادلة.

ولكن كيف عرفته؟ من أين لي بشرف أن أكون كاتبًا لمغامراته؟ لماذا أنا دونًا عن أي شخص آخر؟

الرد على هذا السؤال بسيط للغاية، الصدفة وحدها هي ما لعبت دورًا مهمًّا لإعطائي هذا الاستحقاق، الحظ هو الذي وضعني في طريقه، بالصدفة انخرطت في واحدة من أغرب مغامراته وأكثرها غموضًا، وبالصدفة أيضًا اشتركت في دراما كان هو مخرجها الرائع، دراما غامضة ومُعقَّدة، مليئة بمثل هذه الانقلابات المفاجئة التي جعلتني أشعر بالارتباك والحيرة مرة أخرى عند محاولتي تذكر تفاصيلها وإعادة كتابتها.

وقَعَ الحدث الأول في منتصف ليلة الثاني والعشرين من يونيو، ما زلت أتذكر تفاصيل هذه الليلة جيدًا، دعوني أوضح أن السلوك غير الطبيعي الذي بدر مني هذه الليلة إنما أرجعه إلى الحالة الذهنية الغريبة التي انتابتني في طريق عودتي إلى المنزل، هذه الليلة كنت قد تناولت العشاء مع مجموعة من الأصدقاء في مطعم «لاكسكساد»، طوال هذه السهرة بينما كنا ندخن ونستمع إلى أوركسترا الغجر يعزف موسيقى الفالس الحزينة، لم نتحدث سوى عن الجرائم والسرقات والحوادث المخيفة، ياله من حديث لا يناسب الليل!

انصرف آل «سانت مارتين» في سيارتهم، بينما أنا و(جون داسبري) هذا الشاب الهادئ الرزين والذي مات بشكل مأساوي بعد هذا التاريخ بستة أشهر على الحدود المغربية، عُدنا سيرًا على الأقدام خلال ظلام الليل وحراراة الجو، عندما وصلنا أمام النُّزل الذي أقطن فيه منذ حوالي سنة في «نيولي» بحي «مايوه»، سألني متعجبًا:

- ألم تخف أبدًا؟

- ما هذه الفكرة السيئة؟

- اللعنة! هذا النُّزل صغير للغاية حولك مساحة واسعة من الأرض العارية، ولا يوجد أي جيران بالجوار، صحيح أني لست جبانًا ولكنني..........

قاطعته ضاحكًا بسخرية:

- لديك خيال مرح فعلًا.

- من الممكن أن أكون تأثرت بعض الشيء بكلام عائلة سانت مارتين وحكايتهم عن اللصوص وقُطاع الطرق.

صافحني وابتعد، أخرجت المفتاح وأدرته في الباب، تمتمت قائلًا:

- لقد نسي (أنطوان) أن يشعل لي شمعة.

ثم تذكرت أنه ليس موجودًا، وبأنني منحته اليوم عطلة، ما لبثت أن شعرت بالتوتر بعض الشيء في هذا الجو المظلم والهدوء، أسرعت بالصعود إلى غرفتي، أدرتُ المفتاح ودلفت إلى الداخل مُغلقًا الباب والترباس بإحكام من خلفي على غير العادة، أعاد ضوء الشمع الخافت بالشمعدان بعضًا من هدوئي واتزاني مرة أخرى، ومع ذلك حرصت على سحب مسدسي من غمده، ووضعته على وسادة فراشي، فهذا الاحتياط البسيط طمأنني قليلًا، استلقيت فوق الفراش، وسحبت كتابي الذي ينتظرني كل ليلة فوق المنضدة المجاورة لي، اندهشت عندما لاحظت أنه بدلًا من وجود أداة فتح الخطابات التي كنت قد وضعتها داخل الكتاب أمس لتمييز الصفحة، كان هناك ظرف مختُوم بخمسة أختام من الشمع الأحمر، أمسكته بسرعة وقرأت عليه اسمي الأول والأخير مصحوبًا بكلمة «عاجل»، خطاب! خطاب باسمي! من قام بوضعه هنا؟ اضطربت قليلًا ثم فتحت المظروف وقرأت على الفور:

«بدايةً من هذه اللحظة التي ستفتح فيها هذه الرسالة، مهما حدث ومهما سمعت لا تتحرك، ابقَ مكانك لا تقُم بإيماءة، لا تصرخ، وخلاف ذلك فاعتبر نفسك في عداد الهالكين لا محالة».

ما كنت يومًا جبانًا، كنت أعرف تمامًا كيف أواجه الخطر الحقيقي وكيف أسخر من المخاطر الوهمية، لكني كما قلت سابقًا لم أكن في حالة ذهنية صافية بل كنت متاثرًا وأعصابي متوترة، ولكن أليست هذه الرسالة الغامضة كفيلة بإصابة أي أحد بالذعر؟!

قبضتُ أصابعي على الورقة بقوة، أعدتُ قراءة جمل التهديد مرةً بعد أخرى «لا تتحرك، ابقَ مكانك لا تقم بإيماءة، لا تصرخ، وخلاف ذلك فاعتبر نفسك في عداد الهالكين لا محالة».

«لا تصرخ، وخلاف ذلك فاعتبر نفسك في عداد الهالكين لا محالة».

حدثت نفسي بأنها مُزحة سخيفة، كنت على وشك الضحك لدرجة أنني كنت سأقهقه بصوت عالٍ ولكن شيئًا ما أوقفني، ما هذا الخوف المبهم الذي اعترض سبيلي وسد حلقي؟ فكرت في إطفاء الشمعة ولكني لم أقوَ على فعل ذلك، «لا تتحرك، ابقَ مكانك لا تقم بإيماءة»، ألم يكتب ذلك؟

لماذ عليَّ أن أتغاضى عن مشاعر التوتر التي سيطرت عليَّ؟! كل ما عليَّ فعله الآن هو إغلاق عيني وقد فعلت.

في نفس هذه اللحظة انتزعت ضوضاء خفيفة الصمت المحيط بي، صوت طرقات خفيفة بدت وكأنها قادمة من الحجرة الكبيرة المجاورة حيث مكتبتي، لا يفصلني عنها سوى رواق صغير، شعرت بخطر حقيقي، تمنيت لو أنهض فورًا وألتقط سلاحي مهرولًا إلى هذه الغرفة، ولكني لم أنهض بقيت جامدًا بينما تحركت أمام عيني إحدى ستائر نافذة غرفتي اليسرى، لم يعترني الشك لحظة فيما شاهدته لقد عشتُ هذا الموقف بكل تفاصيله، تحركت الستارة أمامي ورأيت بوضوح أن هناك شخصًا ما يختبئ خلف الستارة، شخص يقف في المسافة الضيقة بين الستارة والنافذة، ويمنع جسمه نزول الستارة لأسفل بشكل مستقيم.

من المؤكد أنه رآني هو أيضًا من خلال الثقوب الصغيرة في قماش الستارة، والآن فهمت الأمر، فبينما تنهب باقي العصابة كل شيء كانت مهمته هي التأكد من بقائي في الفراش وعدم تدخلي.

هل كان عليَّ النهوض ومواجهته بسلاحي؟ مستحيل، إنه أمامي هنا، فعند أي بادرة حركة أو أدنى صرخة سأكون في عداد الهالكين، دوي صوت ضربة عنيفة في المنزل بأكمله تردد صداها مرتين أو ثلاثة، يشبه صوت الضرب بمطرقة حديدية على سطح معدني، أو على الأقل هذا ما تخيلته لحظات انفعالي هذه، من بعدها سمعت أصواتًا متعاقبة تتداخل مع بعضها تدل على أنهم يعملون بكل جرأة ويتصرفون بأمان مُطلق، وكان لديهم الحق فعلًا فأنا لم آتِ بأي حركة، هل كان هذا جُبن؟ لا، بالأحرى كان كأنه شلل، عجز كلي عن تحريك أي من أطرافي، ودرب من الحكمة أيضًا؛ لأن بالنهاية لماذا عليَّ القتال؟ فوراء هذا الرجل هناك عشرة سيأتون خلفه في حال سماع صياحه، فهل كان عليَّ المخاطرة بحياتي لإنقاذ بعض المفروشات والتحف الرخيصة؟

استمر هذا التعذيب طوال الليل، خوف رهيب تملكني، هدأت الضوضاء قليلًا، ولكني كنت أتوقع أنها ستبدأ من جديد، بينما ظل الرجل يراقبني والسلاح بيده، نظراتي لم تفارقه، قلبي ينبض بعنف والعرق يتدفق من جبهتي ومن جميع أنحاء جسدي، وفجأة تبدل حالي، بدأ يتسرب إليَّ إحساس بالراحة بمجرد سماعي صوت عربة اللبن تمر في الشارع، فأنا أعرف جيدًا صوت دحرجة عجلاتها، في نفس الوقت بدا لي شعاع من ضوء الفجر ينبثق من بين فتحات الشباك المنغلق مختلطًا بهذا الظل الكامن أمامي. سطع ضوء النهار داخل الغرفة، مرت العديد من السيارات بالخارج، فهربت كل أشباح الليل، أخرجت ذراعي من السرير ببُطء ورصدت بعيني طيات الستارة جيدًا، قمت بحساب كل خطوة على القيام بها وسرعان ما التقطت مسدسي وصوبته تجاه هدفي وأطلقت النار، قفزت من فراشي وأنا أصرخ بقوة مُنقضًّا على الستارة، فوجدت القماش مثقوبًا والنافذة مكسورة نتيجة تصويبي ولكن الشبح الكائن وراء الستارة لم يصبه شيء، لسبب بسيط، أنه لم يكن هناك

من الأساس.

لا يوجد أحد أبدًا، لقد قضيتُ ليلتي بأكملها مُرتعبًا من طيَّات ستارة، بينما كان المجرمون في ذلك الوقت..، وثبت غاضبًا باندفاع أدير مزلاج الغرفة، فتحت الباب وعبرت الرواق ثم فتحت بابًا آخر مندفعًا إلى غرفة المكتبـة، لكنني تسمَّرت مذهولًا على عتبة باب الغرفة، وقفت ألهث مصدومًا، شعرت بدهشة أكبر من دهشتي عندما اكتشفت غياب الرجل، لم يختفِ أي شيء، كل الأشياء التي افترضت سرقتها، الأثاث، اللوحات، المخمل والحرير القديم، كل هذه الأشياء ما زالت ثابتة في مكانها، مشهد غامض أربكني، لم أُصدِّق عيني، ولكن ذلك الضجيج! أصوات التحركات! تجولت في جميع أنحاء الغرفة، تفحصت الجدران تفقدتُ كل الأشياء التي كنت أعرف مكانها جيدًا، لم يكن هناك أي شيء مفقود، والشيء المثير للدهشة أنه لا يوجد أي شيء يوحي بمرور لصوص أبدًا، ليس هناك أي دليل، لا شيء في غير موضعه، لم يتحرك مقعد من مكانه، لا وجود لآثار أقدام حتى.

قلت لنفسي: لا! مستحيل! ممسكًا رأسي بكلتا يديَّ، إني لست أتوهم، لقد سمعت هذا حقًّا، قمتُ بعمل جرد لمحتويات الغرفة مرة أخرى، اتبعت كل إجراءات الفحص بدقة هذه المرة، كل هذا بلا طائل، لم ألحظ إلا شيئًا واحدًا بسيطًا لو اعتبرت أنه اكتشاف من الأساس، وجدت تحت سجادة فارسية صغيرة، ورقة كوتشينة ملقاة على الأرض، عبارة عن «سبعة كبة»، ورقة لعب سبعة كبة مثل كل أوراق اللعب السبعة الكبة الفرنسية، ولكن يوجد بها تفصيل مختلف لفت انتباهي، تم ثقب نقطة نهاية كل علامة من علامات القلب السبعة الحمراء بثقب صغير مستدير بانتظام وتماثل كما لو أنه تم صنعها بنفس الأداة. هذا هو كل شيء، ورقة كوتشينة وخطاب تهديد داخل كتاب، بخلاف ذلك ليس هناك شيء، فهل هذا كافٍ لأقنع نفسي بأنني لم أكن أحلم؟

واصلت بحثي طوال هذا اليوم داخل غرفة المعيشة، كانت غرفة كبيرة لا تتناسب مع صِغَر حجم المنزل، شهدتُ ديكوراتها على غرابة ذوق المصمم، فالأرض مصنوعة من الفسيفساء، وهي أحجار صغيرة متعددة الألوان، تتداخل مع بعضها لتشكل تصميمات متناظرة كبيرة الحجم، غطت نفس الفسيفساء الجدران مكونة رسومات رومانية وبيزنطية على طراز اللوحات الجدارية في العصور الوسطى، من بينها نرى «باخوس» يمتطي برميلًا، وإمبراطور روماني آخر مُتوج بالذهب، لديه لحية مُنمقة ويحمل سيفًا في يده اليمنى، يقع في الجزء العلوي منها على غرار المعارض الفنية نافذة واحدة كبيرة، نظرًا لأن هذه النافذة كانت مفتوحة دائمًا في أثناء الليل، فمن المحتمل أن يكون اللصوص قد نفذوا منها إلى الداخل مستخدمين درجا خشبيًّا أو شيئًا من هذا القبيل، ولكن ليس هناك دليل، فكان من المفترض أن تترك أعمدة الدرج الخشبي هذه بصماتها على أرضية الغرفة ولكن لا يوجد شيء، وكان من المفترض أيضًا أن يكون هناك آثار أقدام داست حديثًا على العشب المحيط بأرض النُّزل، ولكن لا

يوجد شيء البتة أيضًا. أعترف بأنه لم يكن لديَّ أي نية للذهاب للشرطة خاصةً وأن الحقائق التي سأرويها غير مُتَّسقة وعبثية، كانوا سيسخرون مني، ولكن بعد يومين جاء ميعاد نشر مقالي الخاص في جريدة «جيل بلاس»، فقررت نشر مغامرتي الغامضة التي كنت مهووسًا بها طوال تلك الفترة، لم تمر القصة دون ملاحظة وأيضًا، لم يأخذها أحد على محمل الجد، فاعتبروها قصة خيالية طريفة، سخر مني أصدقائي من آل «سانت مارتين» على عكس «جان داسبري» الذي كان بارعًا في مثل تلك الأمور، شرحت له الأمر برمته، فدرسه بكل تفاصيله ولكنه لم يتوصل إلى شيء أيضًا.

في صباح أحد الأيام التالية، دق جرس الباب وجاءني (أنطوان) يخطرني بوجود رجل يريد التحدث إليَّ ولم يُرِدْ أن يذكر اسمه، فأذِنت له بالصعود، كان رجلًا أربعينيًّا داكن الشعر، ذا وجه نشيط، ملابسه أنيقة بالرغم من أنها بالية بعض الشيء، ولكنها تدل على ذوقه الرفيع، والذي يتنافى تمامًا مع أسلوبه المبتذل إلى حد ما، قال لي بصوت أجش مباشرة بنبرة تدل على وضعه الاجتماعي وبدون مقدمات:

- سيدي، في أثناء سفري عندما كنت في استراحة داخل مقهى، وقعت تحت يدي جريدة «جيل بلاس» فقرأت مقالك الذي أثار اهتمامي كثيرًا.

- أشكرك.

- وقد رجعت من السفر فورًا.

- حقًّا؟

- نعم، للتحدث معك، هل كل تلك الوقائع التي سردتها صحيحة؟

- صحيحة تمامًا.

- ألا يوجد أي حدث من وحي خيالك؟

- كلا، أبدًا.

- في هذه الحالة قد يكون لديَّ بعض المعلومات المهمة بالنسبة لك.

- كلي آذان مُصْغِية.

- لا.

- كيف لا؟

- قبل أن أتحدث يجب عليَّ التأكد من صحة هذه المعلومات.

- وللتأكد منها؟

- لا بد أن أبقى بمفردي في هذه الغرفة.

نظرت إليه مندهشًا وقلت له:

- عفوًا سيدي، أظن أنني لم أفهم جيدًا.

- هذه مجرد فكرة طرأت لي، بينما كنت أقرأ مقالتك، لاحظت أن بعض التفاصيل تتطابق تمامًا مع تفاصيل مغامرة أخرى اكتشفتها صدفة، لو كنت مخطئًا، فسأفضل الصمت، والطريقة الوحيدة لمعرفة هذا، هي أن تتركني بمفردي في هذه الغرفة.

ما كان المغزى وراء هذا الطلب الغريب؟ تذكرت فيما بعد أنه خلال حديثه هذا، بدا الرجل مرتبكًا للغاية وتعابير القلق بادية على وجهه، وبالرغم من الدهشة التي سيطرت عليَّ عند سماعي طلبه، لم أجد شيئًا غير طبيعي يستدعي رفضي، بالإضافة إلى حجم الفضول بداخلي لأعرف ما وراءه.

- فليكن، كم من الوقت تحتاج؟

- أوه، شكرًا سيدي، ثلاث دقائق لا أكثر، بعد ثلاث دقائق سأعود إليك.

غادرت الغرفة إلى الطابق الأسفل، أخرجت ساعتي، مرت دقيقة، دقيقتان، لماذا شعرت بهذا الاختناق المفاجئ؟ لماذا بدت لي هذه اللحظة أبدية لا تنتهي؟ دقيقتان ونصف، دقيقتان وخمس وأربعون ثانية، وفجأة دوى صوت رصاص فهرولت فزعًا صاعدًا الدرج وعندما دخلت الغرفة أفلتت مني صرخة رعب، ففي منتصفها كان الرجل مُلقى على جانبه الأيسر بسكون تام بينما يتدفق الدم من جمجمته وبالقرب من قبضته مسدس يتصاعد من فوهته الدخان، صدر منه تشنج بسيط ثم انتهى كل شيء، على الرغم من هذا المشهد المروع كان هناك شيء أذهلني وجعلني لا أعجل بطلب النجدة، ولا أجثو على ركبتي لأتفحص الرجل ما إذا كان يتنفس، فهناك على الأرض كان هناك ورقة لعب سبعة كبة، التقطها فوجدتها ذات نهايات قلوب مثقوبة أيضًا.

بعد نصف ساعة وصل مفوض الشرطة من «نوبي» ثم الطبيب الشرعي ورئيس البوليس السيد «ديدوا»، كنت حريصًا على عدم لمس الأدلة لعدم تشويهها، انتهى التحقيق سريعًا ولم يُكتشف أي شيء في البداية، لم يُعثَر على أي أوراق ثبوتية في جيب الرجل، لا يوجد اسم على بطانة سترته، لا يوجد حتى أي حروف أولية تشير إلى اسمه، فبشكل عام لم تُعرف هويته، أما بالنسبة للغرفة، لا شيء تحرك من مكانه، كل شيء بقي بموضعه الأصلي، ولكن بالتأكيد لم يأتِ هذا الرجل إلى منزلي بهدف الانتحار فقط؛ لأنه شعر بأن منزلي سيكون مناسبًا أكثر من أي مكان آخر للقيام بفعلته البائسة هذه، من المؤكد أن هناك شرطًا حدَّده للانتحار، وهذا الشرط تأكد من حقيقة جديدة نتجت خلال هذه الدقائق الثلاث التي قضاها بمفرده في الغرفة، ما هي تلك الحقيقة؟ ما الذي رآه؟ ما هو السر الرهيب الذي اطلع عليه فأفضى بحياته؟ لم يكن هناك أي ثغرة يمكنني من خلالها التخمين؛ ففي اللحظة الأخيرة لاحظنا تفصيلًا جديدا أعتقد بأنه ذو أهمية كبرى، عندما انحنى شرطيان لنقل جثة الرجل على سرير الإسعاف المخصص لنقله، لاحظنا أن اليد اليسرى للرجل التي كانت منقبضة ارتخت وسقط منها بطاقة شخصية، تحمل هذه البطاقة

اسم السيد (جورج أندرمات)، وعنوانه شارع «٣٧ شارع دي بيري»، ما معنى هذا؟ فـ (جورج أندرمات) هو مصرفي كبير من باريس، مؤسس ورئيس بنك التعدين، الذي أعطى اليوم مثل هذا الزخم الهائل للصناعات المعدنية في فرنسا، هو بمثابة القوة الدافعة للصناعات الثقيلة والتجارة في فرنسا، يحيى حياة مترفة، يمتلك سيارات في منتهى الفخامة، وإسطبلات لخيول السباق، له مكانة اجتماعية مميزة خاصة بحضور زوجته السيدة (أندرمات)، نظرًا لما تحظى به من جمال وأناقة باهرة بالإضافة إلى علاقاتها الاجتماعية المتعددة، تمتمت متسائلًا:

- أيكون هذا القتيل هو السيد (أندرمات)؟

انحنى رئيس البوليس قائلًا:

- لا، فالسيد (أندرمات) أشقر وأشيب إلى حد ما.

- ولكن على ماذا تدل هذه البطاقة؟

- هل لديك هاتف يا سيدي؟

- نعم، في الصالة، تفضل معي.

نظر في دليل الهاتف واتصل بالرقم ٤١٥٢، انتظر الرد ثم أجاب:

- هل السيد أندرمات موجود بالمنزل؟.... من فضلك أبلغيه أن السيد (ديدوا) رئيس البوليس يطلب منه الحضور فورًا إلى هذا العنوان: ١٢ حي «مايوه»، إنه أمر طارئ.

بعد انقضاء عشرين دقيقة، نزل السيد (أندرمات) من سيارته، شرحوا له الأسباب التي استدعت حضوره، ثم اقتادوه إلى مكان الجثة، ظهر على وجهه الانزعاج المفاجئ وتمتم بصوت خفيض وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- (إتيان فاريين).

- هل كنت تعرفه؟

- لا، بالكاد أعرفه عن طريق أخيه.

- هل لديه أخ؟

- نعم، (ألفريد فاريين)، جاء أخوه مرة يطلب مني التوسط له في شأن ما، لا أتذكره حاليًّا.

- أين يعيش؟

- كانا يعيشان معًا، في شارع «لا بروفانس» على ما أعتقد.

- هل لديك أي معلومات عن سبب إقدامه على فعل كهذا؟

- أبدًا.

- ومع ذلك، فقد كان يحمل بطاقة باسمك وعنوانك!

- أنا لا أفهم شيئًا، من الواضح أنها مجرد مصادفة، وأعتقد أن التحقيقات ستوضح حقيقة الأمر.

صُدفة عجيبة حقًّا، كان لديَّ شعور بأننا جميعًا نملك نفس الانطباع، وقد تأكدت من ذلك في اليوم التالي نظرًا لما وجدته في الجرائد ولدى أصدقائي الذين تحدثت معهم عن هذه الواقعة أيضًا، في خضم هذه الألغاز المعقدة، حيث كان منزلي مسرح الأحداث، فإن الاكتشاف المزدوج لورقة السبعة الكبة ذات الثقوب بدا لي مفتاح اللغز الذي من خلاله يمكننا الوصول للحقيقة.

علي عكس كل التوقعات لم يضف السيد (أندرمات) أي جديد يفيد التحقيقات، وكان آخر ما أضافه:

- لقد قلت كل ما أعرفه، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ أنا أول من يريد معرفة سبب وجود الكارت الخاص بي في مسرح جريمة ما، وسأنتظر مثل أي شخص آخر حتى توضيح هذه النقطة.

ولكن لم يتوصل التحقيق إلى شيء سوى بعض المعلومات عن الأخوين (فاريين)، وهي أنهما من أصل سويسري، عاشا حياة غير سوية، يترددان على نوادي القمار، كانا مرافقين لعصابة من الأجانب كانت مطلوبة من قِبَل الشرطة بعد ثبوت اشتراكهم في مجموعة من الجرائم، أما العنوان الذي أبلغنا به السيد (أندرمات) «٢٤ شارع لا بروفانس» زاعمًا أنه مكان سكنهم، قد ثبت أنهم كانوا بالفعل يعيشانِ هناك قبل ستة أعوام ثم لم يعد أحد يعرف ما حلَّ بهما منذ ذلك الوقت.

وأعترف من جانبي، أنني وجدتُ هذه القضية مُعقَّدة وشككت في إمكانية حلها، ولكنها ستنكشف يومًا ما بالتأكيد، حاولت تناسي الأمر شيئًا فشيئًا على عكس (جان داسبري) ـكنت ألتقيه كثيرًا في هذه الفترةـ الذي أصبح أكثر شغفًا وتعلقًا بهذه القضية، فهو الذي لفت نظري إلى خبر نشرته جريدة أجنبية وقد أعادت جميع الصحف نشره بعد ذلك والذي كان محتواه:

«سيقام بحضور إمبراطور ألمانيا، وبمكان سري لم يُعلن عنه بعد حتى هذه اللحظة، الاختبارات الأولى للغواصة التي ستحدث ثورة هائلة في عالم الحروب البحرية مستقبلًا وقد جاءتنا معلومة من مصدر سري بأن هذه الغواصة سيطلق عليها اسم «السبعة الكبة».

هل كانت هذه مجرد مصادفة أم أن هناك صِلة خفية بين هذه الغواصة والحوادث التي حدثت مؤخرًا؟ ولو كان هذا صحيحًا فما طبيعة هذه الصلة؟

فما يحدث هنا في فرنسا لا يمكن أن يكون له علاقة بما يحدث في ألمانيا، ولكن (داسبري) علق قائلًا:

- وما يدريك؟ فإن أكثر الحقائق تشابُهًا غالبًا ما يكون مصدرها واحدًا.

وبعد يومين وصل إلينا خبر نبأ جديد:

«يزعم أن الخطط التنفيذية للغواصة «السبعة الكبة» التي ستجري اختباراتها الأولى قريبًا، قام بتنفيذها مهندسون فرنسيون، وهؤلاء المهندسون طلبوا معاونة مواطنيهم من الأثرياء ولكن لم يكن هناك استجابة، فلجئوا بعد ذلك إلى السلطات الإنجليزية التي رفضت المساعدة بدورها، ونحن نُقدم على نشر هذه الأخبار بتحفظ شديد».

ونظرًا لزوال المخاطر التي كانت تُحيط بتلك القصة في ذلك الوقت، فيتوجب عليَّ الآن ذِكر مقال جريدة «إيكو دي فرنس» والتي أحدثت الكثير من الضجيج وقتها، والتي تلقى الضوء على «قضية السبعة الكبة «، كما كنا ندعوها في ذلك الوقت، صدر بتوقيع (سلفاتور) وتحت عنوان «إزالة جانب الغموض» كان يقول:

«سنحاول اختصار الحكاية، قبل عشر سنوات كان مهندس التعدين الشاب (لويس لاكومب) مُصرًّا على تكريس وقته وثروته للدراسة التي كان يتابعها، استأجر منزل رقم ١٠٢ في حي «مايوه» ـوهو نُزل صغير كان الكونت الإيطالي قد قام بإعادة ترميمه مؤخرًاـ بمساعدة شخصين وهما الإخوة (فاريين) من «لوزان»، أحدهما ساعده من خلال خبرته بالأماكن، والآخر من خلال علاقته المتعددة، فكان يبحث له عن ممولين لمشاريعه، نشأت علاقة طيبة بين (لاكومب) والسيد (جورج أندرمات) والذي كان قد أنشأ «بنك المعادن» حديثًا، وبعد عدة لقاءات بينهما تمكن من جذب انتباهه إلى مشروع الغواصة الذي كان يعمل عليه في ذلك الوقت، وجرى الاتفاق بينهما على أنه ما إن يتم الانتهاء من مخططات الاختراع سيقوم السيد (أندرمات) باستخدام نفوذه للحصول من وزارة البحرية على الموافقة بإقامة سلسلة من التجارب الأولية، ولمدة عامين توطدت العلاقة بينهما، فكان (لويس لاكومب) يتردد باستمرار على منزل المصرفي، ويقدم له التعديلات التي يدخلها على مشروعة بانتظام، حتى جاء اليوم الذي أتم المشروع بشكل كامل وفي نفس الصورة الذي كان يتخيلها، فذهب للسيد (أندرمات) يذكره بتنفيذ الاتفاق، في ذلك اليوم تناول (لويس لاكومب) العشاء مع عائلة (أندرمات) وغادر في حوالي الحادية عشرة مساءً ونصف، ومنذ ذلك الحين لم يرهُ أحد. من خلال البحث في صحف تلك الفترة نجد أن عائلة (لاكومب) ذهبت إلى الشرطة، وقدمت بلاغًا باختفائه، وجرى البحث عنه لكن دون جدوى، فتم الإجماع على أن هذا الشاب المدعو (لويس لاكومب) وهو شاب عاطفي جامح الخيال قرر الذهاب في رحلة بعيدة دون إخطار أحد، وقد اختفى تمامًا في هذه الظروف الغامضة، بغض النظر عن هذه الفرضية غير القابلة للتصديق بقي السؤال الذي يطرح نفسه أمامنا: ماذا حدث لتصميمات الغواصة؟ هل اختفت باختفاء (لاكومب)؟ هل تخلص منها؟ من خلال عمليات البحث الجادة التي قمنا بها توصلنا إلى ان هذه التصميمات ما زالت موجودة، الأخوان (فاريين) وضعا أيديهما عليها، كيف حدث

هذا؟ لم نتمكن من إثبات ذلك، كما أننا لا نعرف لماذا لم يحاولا بيعها من قبل؟ هل كانا خائفين من المُساءلة من أين أتيا بها؟ على كل حال لم يستمر خوفهما هذا طويلًا، يمكننا الآن أن نؤكد بكل يقين أن تصميمات (لويس لاكومب) أصبحت ملكًا لحكومة أجنبية، ويمكننا نشر رسائل التواصل المتبادلة بخصوص هذا الأمر بين الأخوين (فاريين)، وممثل هذه الحكومة، حاليًا غواصة «السبعة الكبة» حلم (لويس لاكومب) وثمرة مجهوداته سيتم تنفيذها بواسطة جيراننا، هل ستتحق هذه المطامع المُتخيلة لهؤلاء الذين تورطوا في الخيانة؟ نحن نأمل عكس هذا، ولدينا أسباب ستوضحها الأحداث اللاحقة.

كما تمت إضافة هذه الملاحظة:

(في الساعات الأخيرة أكدت مصادرنا الموثوقة أن التجارب الأولية للغواصة لم تكن مُرْضِية، من المحتمل أن التصميمات التي قدمها الإخوة (فاريين) إلى الحكومة افتقرت إلى المستند الأخير الذي قدمه لويس لاكومب إلى السيد أندرمات ليلة اختفائه، وهو مستند ضروري لاستكمال المشروع، نوعًا من التلخيص النهائي والقياسات غير الوارد ذكرها في الأوراق الأخرى، دون هذه الوثيقة تصبح التصميمات بلا قيمة؛ لذا

فما زال هناك وقت لنسترجع ما لنا من الأساس، نحن نعتمد على مساعدة السيد (أندرمات) لحل هذه المُعضلة الصعبة، سيتوجب عليه إعطاء تفسير للسلوك الذي اتبعه منذ البداية، سيعترف ليس فقط لماذا أنكر معرفته السابقة بـ(إتيان فاريين)؟ ولكن أيضًا لماذا قام بمراقبة الأخوان (فاريين) لمدة ست سنوات، لن نكتفي بأقوال فقط هذه المرة، نحن ننتظر أفعالًا حقيقية).

كان الخطاب يُوجِّه تهديدًا قاسيًا، فعلامَ اعتمد؟ ما نوع الترهيب الذي يمارسه (سلفاتور) كاتب المقال ضد السيد (أندرمات)؟

هاجم حشد كبير من الصحفيين المصرفي المشهور داخل مكتبه، كما عبرت عشرات المقالات عن الازدراء الذي أبداه السيد (أندرمات) تجاه الأسئلة الموجهة إليه، فسرعان ما نشرت جريدة «إيكو دي فرانس» هذا التعليق على الأحداث الجارية:

«سواء أراد السيد أندرمات أم لم يُرد فنحن نعتبره شريكًا في المهمة التي تعهدنا بها».

وفي اليوم الذي ظهر فيه هذا التعليق تناولنا العشاء أنا وداسبري معًا، وبحلول المساء كانت الصحف مفتوحة أمامنا على الطاولة، أخذنا نناقش القضية ونتفحصها من جميع الجوانب، يصاحبنا هذا السخط الذي يجتاح المرء عندما يسير في طريق مُظلم بلا نهاية، ويواجه نفس العوائق دائمًا.

وفجأة دون أن ينبهني خادمي أو حتى يدقَّ جرس الباب، انفتح الباب ودخلت سيدة مستترة بحجاب كثيف يغطي وجهها، قفزت من مقعدي فورًا فسألتني:

- هل أنت من تسكن هنا يا سيدي؟

- نعم سيدتي ولكن........

قاطعتني قائلة:

- أرجو المعذرة فقد كانت البوابة الخارجية مفتوحة.

- ولكن باب البيت؟

لم تردَّ، ولكني استنتجت بأنها سارت حول المنزل وصعدت السلم الخلفي، وعرفت بذلك أنها على عِلْم جيد بالطريق إلى هنا، خُيم صمت ثقيل إلى حد ما، وجهت نظرها إلى (داسبري)، فقدمته إليها مضطرًا، وطلبت منها الجلوس وسألتها عن سبب زيارتها، رفعت حجابها فلاحظت ملامح هادئة جذابة وشعرًا أسود فاحمًا، عيناها يملؤها الحزن والحِدَّة معًا، قالت بصراحة:

- أنا السيدة (أندرمات).

- السيدة (أندرمات)! كررت متفاجئًا.

عاد الصمت من جديد، ثم استأنفت بصوتٍ هادئ:

- لقد أتيت لأحدثك بخصوص القضية التي تعلمها، فكرت أنه يمكنك تزويدي ببعض المعلومات.

- يا إلهي! سيدتي لا أعرف أكثر مما نشرته الصحف، لو توضحين لي تحديدًا كيف عليَّ مساعدتك؟

- لا أعرف، فعلًا لا أعرف.

عندها فقط بدا لي هذا الهدوء مجرد قناع تخفي وراءه ارتباكًا كبيرًا، انتابنا صمْت وخجَل مشترك، ولكن (داسبري) الذي لم يتوقف عن النظر إليها اقترب منها ثم قال:

- هل تسمحين سيدتي أن أطرح عليكِ بعض الأسئلة؟

- أوه! بالتأكيد.

- مهما كانت هذه الأسئلة؟

- مهما كانت.

فكر قليلًا ثم سألها:

- هل تعرفين لويس (لاكومب)؟

- نعم، عن طريق زوجي.

- متى آخر مرة رأيتيه؟

- ليلة عشائه معنا.

- ألم يحدث شيء في هذه الليلة يجعلك تعتقدين بأنك لن تريه مرة أخرى؟

- لا، ولكنه قد لمَّح بالفعل إلى سفره إلى روسيا ولكن دون تفاصيل تُذكر.

- إذن هل كنتم على موعد مرة أخرى؟

- نعم، بعد يومين على العشاء.

- وكيف تفسرون هذا الاختفاء الغامض؟

- لم أستطع تفسيره أبدًا.

- والسيد (أندرمات)؟

- لا أعرف.

- لمَ؟

- لا أعلم شيئًا عن ما يعتقده.

- ولكن بعد المقال الذي نشرته جريدة «إيكو دي فرانس»، يبدو أن الأخوين (فاريين) ليسا بمنأى عن الشكوك حول هذا الاختفاء، ألا ترين هذا؟

- نعم.

- على أي أساس تقوم قناعتك؟

- عندما ودعنا (لويس لاكومب)، وغادر كان يحمل حقيبة تحتوي على جميع الأوراق المُتعلقة بالمشروع، وبعد يومين كان زوجي على موعد مع أحد الأخوين (فاريين)، الشخص الذي ما زال على قيد الحياة، خلال هذا اللقاء حصل زوجي على دليل يؤكد أن هذه الأوراق بين يدي الشقيقين.

- ورغم ذلك لم يبلغ عنهما؟

- لا.

- لماذا؟

- لأن بداخل هذه الحقيبة كان هناك شيء آخر غير تصميمات (لاكومب).

- ما هو؟

ترددت ثم أوشكت على الرد ولكنها صمتت مرة أخرى، فاستطرد (داسبري) قائلًا:

- هذا هو السبب الذي جعل زوجك يضع الأخوين تحت المراقبة ست سنوات دون إخبار الشرطة، كان يريد استعادة التصميمات الخاصة بالغوَّاصة، وأيضًا الحصول على الشيء الذي كان الشقيقان يمارسان بواسطته ابتزازًا بغيضًا

عليه.

- عليه وعليَّ أيضًا.

- آه! عليك أيضًا؟

- عليَّ أنا بشكل رئيسي.

نطقت هذه الكلمات الأخيرة بصوتٍ خفيض. راقبها (داسبري) عن كثب ثم اقترب منها قائلًا:

- هل كنتِ تراسلين (لويس لاكومب)؟

- بالتأكيد، لقد كان على علاقة بزوجي.

- بغض النظر عن هذه الرسائل الرسمية، أكنتِ تكتبين إلى (لاكومب) رسائل أخرى خاصة، اعذريني لإصراري ولكن لا بد أن أعرف الحقيقة كاملة، هل كانت هناك أي رسائل أخرى؟

همست بخجل:

- أجل.

- وهل هذه الرسائل كانت بحوزة الأخوين (فاريين)؟

- نعم.

- وهل السيد (أندرمات) على عِلْم بهذا؟

- لم يرها، لكن (ألفريد فاريين) أخبره بوجودها، وهدَّده بنشرها إذا تصرف ضدهما، وأبلغ الشرطة فاضطرب زوجي، وتراجع أمام الخوف من الفضيحة.

- هذا يعني أنه تعامل معهم بمفرده، وفعل كل ما يمكن لانتزاع تلك الوثائق منهم.

- أعتقد فعلًا أنه فعل كل ما في وسعه؛ لأن في نفس ليلة تلك المقابلة الأخيرة مع (ألفريد فاريين)، بعد المشادة الكلامية التي خضناها سويًّا وهو يطلعني على معرفته بالأمر، لم يعد هناك أي علاقة تربطنا سويًّا، لم يعد هناك أي ود ولا ثقة ولا حتى حديث متبادل، فنحن نعيش كالغريبين تمامًا.

- في هذه الحالة لا يوجد ما تخشينه، فلقد علم زوجك بالأمر مما تخافي إذن؟

- برغم هذا الفتور الواقع بيننا، فأنا الشخص الوحيد الذي طالما أحبني بصدق، وكان سيعود لحبي مرة أخرى، لولا حصوله على تلك الرسائل اللعينة.

- كيف نجح فعلًا في الحصول عليها؟ لقد كان الأخوان حذرين بشدة!

- نعم، لقد كانا يتباهان بوجود مخبأ آمن تمامًا.

- وبعد ذلك؟

- لديَّ كل الحجج التي تدفعني للاعتقاد بأن زوجي قد اكتشف هذا المخبأ.

- إذن أين هو هذا المخبأ؟

- هنا.

انتفضت أكرر مندهشًا:

- هنا؟

- نعم، لطالما شككتُ في ذلك، لقد كان (لويس لاكومب) بارعًا للغاية في علم الميكانيكا، شغوفًا بالابتكارات، يستمتع في أوقات فراغه بصُنع الخزائن والأقفال، لا بُدَّ أن الأخوين (فاريين) باغتاه وتخلصا منه، ثم استخدما أحد تلك الخزائن المخبأة في إخفاء الرسائل وأشياء أخرى بلا شك.

صحتُ قائلًا:

- ولكنهما لم يسكنا هنا.

- ظل هذا المنزل شاغرًا حتى وصولك وإقامتك به قبل أربعة شهور؛ لذا فمن الوارد أنهما كانا يترددان عليه من حين لآخر، واعتقدا أيضًا بأن وجودك لا يمثل أي عائق لهما حين يأتي اليوم الذي يريدان فيه استرداد الأوراق، ولكنهما لم يقدرا زوجي حق قدره، ففي ليلة الثاني والعشرين من يونيو جاء إلى هنا، اقتحم المكان واكتشف المخبأ واسترد ما كان يبحث عنه، ترك بطاقة باسمه ليظهر للأخوين بأنه لم يعد هناك ما يخشاه، بالتالي تبدلت الأدوار، وبعد يومين من ذلك صدر مقال «جيل بلاس»، فأسرع (إتيان فاريين) إلى منزلك، بقي وحيدًا في غرفة الصالون، فتش المخبأ فوجده فارغًا إلا من البطاقة، فانتحر.

بعد لحظات صمت سأل (داسبري):

- كل هذا من تخمينك، فلم يخبرك السيد (أندرمات) بشيء، أليس كذلك؟

- نعم، تخميني.

- ألم يتغير موقفه تجاهك في الآونة الأخيرة؟ ألم يكن أكثر تحفظًا وعصبية؟

- بلى.

- ألا تعتقدين أن هذا سيحدث لو كان حصل على تلك الخطابات؟ أنا أعتقد بأنها ليست لديه، ولم يكن هو من أتى إلى هنا.

- من يكون إذن؟

- الشخصية الغامضة التي تقود كل هذه القضية والتي تمسك بكل خيوطها وتوجهها نحو هدف محدد لا نستطيع الوصول إليه، الشخص الذي يعمل في الخفاء منذ اللحظة الأولى، وتدلنا كل هذه التعقيدات على وجوده، دخل هو

وأصدقاؤه إلى هذا المنزل ليلة الثاني والعشرين من يونيو، اكتشف المخبأ وترك بطاقة السيد (أندرمات)، هو الذي يملك المستندات والأدلة التي تُدين الأخوين (فاريين)، وتثبت خيانتهما.

قاطعته بنفاد صبر واضح:

- من هذا؟

- مراسل جريدة «إيكو دي فرانس» طبعًا، هذا السلفاتور، أليس هذا واضحًا بشكل صارخ؟ ألم يذكر في مقالته تفاصيل لا يعرفها سوى الأخوين (فاريين).

تلعثمت السيدة (أندرمات) وشحب وجهها في خوف:

- لديه خطاباتي أيضًا، وهو بدوره يهدد زوجي! ما العمل؟ يا إلهي!

رد (داسبري) مباشرةً:

- اكتبي إليه، أوليه ثقتك، أخبريه بما تعرفينه وما تحتاجين إلى معرفته.

- ماذا تقول؟

- يبدو لي أن مصالحكم مشتركة، أنتما في نفس الجانب، لا شك في أنه يعمل ضد الأخ فاريين المتبقي، إنه لا يبحث عن أي أدلة ضد السيد (أندرمات)، ولكن ضد (ألفريد فاريين)، وأنت يمكنك مساعدته.

- كيف؟

- هل زوجك يملك تلك الوثيقة التي تكمل ما نقص من تصميمات الغواصة؟

- نعم.

- أخطري (سلفاتور) بالأمر، وحاولي أن تحصلي على هذه الوثيقة من أجله إن لزم الأمر، في النهاية لا بد من أن تتواصلي معه، ماذا ستخسرين؟

بدت النصيحة للوهلة الأولى جريئة وخطيرة للغاية، ولكن لم يكن أمام السيدة (أندرمات) خيار آخر، فكما قال (داسبري)، ماذا ستخسر؟ إذا كان هذا الرجل عدوًّا لزوجها، فلا يمكن للأمر أن يزيد سوءًا، وإذا كان غريبًا يسعى لهدف آخر خاص فلن يعطي أهمية كبيرة لتلك الرسائل، مهما يكن فلم تزل مجرد فكرة تسترعي الأمل، فالسيدة أندرمات بالرغم من فزعها وحالتها النفسية السيئة إلا أنها ظلت تشكرنا بحرارة، وأبدت سعادتها الواضحة بمشاركتنا همومها، ووعدتنا بإبقائنا على اطلاع بكل جديد يخص الأمر.

وبالفعل بعد يومين أرسلت إلينا هذه البرقية التي تلقتها بعد مراسلتها (سلفاتور):

«لم تكن الرسائل موجودة، لكني سأحصل عليها، لا تقلقي، أنا أعتني بكل شيء».

تفحصت البرقية جيدًا، ولاحظت أنه نفس الخط في الرسالة التي وجدتها ليلة الثاني والعشرين من يونيو بداخل الكتاب، لقد كان (داسبري) محقًّا، لقد تأكدنا من أن (سلفاتور) هو العقل المدبر لهذه القضية بأكملها، في الحقيقة بدأنا نستشعر بصيص ضوء وسط هذه العتمة المحيطة بنا، لقد أضاءت بعض نقاط النور بشكل غير متوقع.

ولكن ما زال كثيرًا من الغموض أيضًا، كاكتشاف لغز أوراق السبعة الكبة، فقد ظللت أعود إلى هذا التفصيل في كل مرة، كان أكثر ما يثيرني هو وجود تلك الثقوب الصغيرة، ما دورها في تلك القضية؟ وما أهميتها؟ وما الاستنتاج الذي يتوجب علينا الوصول إليه من خلال معرفتنا أن الغواصة التي صممها (لاكومب) سوف تحمل نفس الاسم؟ من ناحية أخرى لم يهتم (داسبري) كثيرًا بشأن أوراق اللعب هذه، بدأ يهتم بالبحث في مشكلة أخرى بدَتْ له أكثر إلحاحًا، وهي العثور على المخبأ، فظل يفتش بلا هوادة وكان يقول:

- من يدري؟ إذا لم يحصل (سلفاتور) على تلك الرسائل فربما يكون الأخوان (فاريين) نقلاها فعلًا إلى مخبأ أكثر أمانًا، وكأنهما موقنين بأنها سلاح لا يُقدَّر بثمن.

لم يعد هناك أسرار تخفى عليه في غرفة المعيشة، قام بتوسيع عمليات البحث لتشمل جميع الغرف الأخرى، فحصها جميعًا من الداخل والخارج، فحص الأرضية والجدران، رفع ألواح السقف دون جدوى، فوجئت به في أحد الأيام يأتي حاملًا معولًا ومجرفة، أعطاني المجرفة وأمسك المعول، مشيرًا إلى الأرض القاحلة ثم قال: هيا بنا.

تبعته بحماس فاتر، قسم الأرض إلى عدة أقسام، فتشها جيدًا، ثم لفت انتباهه بجوار بيتين متجاورين في الزاوية كومة من الأنقاض والأحجار والحصى مُغطاة بأشجار العليق والأعشاب، فانقض عليها يفحصها وتوجب عليَّ مساعدته، فأضعنا ساعة هباءً في البحث تحت أشعة الشمس الحارقة، ولكن عندما وصلنا إلى الأرض بعد إزالة الأنقاض ارتطم معول (داسبري) بشيء غريب، وبعد أن تبيناه وجدناه هيكلًا عظميًّا لا يزال ببقايا ملابسه، اقشعر بدني وشعرت بالدوار، لاحظت وجود لوحة حديدية صغيرة عالقة بالأرض على هيئة مستطيل صغير عليه بقع حمراء في جهات مختلفة، انحنيت أتفحصها فكانت على شكل ورقة كوتشينة بنفس العلامات المصنوعة من الرصاص الأحمر متآكلة من الأطراف بنفس الثقوب السبعة في طرف كل علامة.

صِحتُ مختنقًا:

- استمع إليَّ جيدًا (داسبري)، لقد اكتفيت من كل هذا العبث، من الجيد أن القضية ما زالت تثير اهتمامك أما أنا فسأنسحب.

هل كان هذا القول نتيجة مشاعري السلبية والتعب الذي انتابني بعد العمل المرهق تحت أشعة الشمس، كنت أترنح في أثناء مغادرتي، وكان على

الذهاب إلى الفراش فورًا ولكني بقيت لمدة ثمانية وأربعين ساعة أعاني من حمى قاسية، ظللت أهلوس بوجود هياكل عظمية تتراقص حولي وتقذف إلي قلوبها الدامية، بقي (داسبري) الوفي يعتني بي، ظل يأتيني كل يوم ثلاث أو أربع ساعات، يقضيها في غرفة المعيشة ينبش ويفتش، وكان يأتي من حين لآخر ليخبرني:

- الرسائل موجودة بهذه الغرفة، أنها هناك، لقد توقفت حياتي على وجودها.

أجبته في مرة من المرات بجزع واضح:

- دعني وشأني من فضلك.

في صباح اليوم الثالث نهضت من الفراش، ما زلت مُتعبًا فلم أستعد صحتي بعد، ولكن وجبة غذاء ثقيلة أمدتني ببعض القوة، وأسهمت أيضًا الرسالة التي تلقيتها في حوالي الساعة الخامسة صباحًا في شفائي تمامًا وإثارة فضولي مرة أخرى، كانت تقول:

«سيدي العزيز، إن القصة التي بدأ فصلها الأول ليلة الثاني والعشرين من يونيو أوشكت على الانتهاء، لقد أجبرتني الأحداث الجارية على وضع الشخصين الرئيسين لهذه القضية في مواجهة بعضهما البعض، ولا بد أن تحدث هذه المواجهة عندك، سأكون ممتنًّا للغاية لو أعرتني منزلك مساء اليوم، وسيكون من الجيد أن تبقي خادمك بعيدًا عن المنزل من التاسعة حتى الحادية عشرة، من الأفضل لك أن تكون بعيدًا أنت نفسك عن المنزل في ذلك الوقت لتفسح المجال للغريمين، ولقد أدركت بنفسك مدى حفاظي على أغراضك وكل ما يخصك في ليلة الثاني والعشرين من يونيو، وعن نفسي، لا أشك لحظة في إخلاصك التام».

توقيع/ صديقك (سلفاتور).

كانت الرسالة مكتوبة بطريقة لطيفة والطلب مُصاغ بأناقة أعجبتني، كان الأمر جريئًا بشكل مثير، فقد بدا مراسلي متأكدًا جدًّا من إذعاني، ولم أكن أرغب بدوري في إحباطه بالرفض، في تمام الثامنة كان خادمي قد غادر لتوه فور عرضي عليه مقعدًا بالمسرح، وصل داسبري، فأريته الرسالة، قال لي:

- وماذا بعد؟

- حسنًا، لقد تركت بوابة الحديقة مفتوحة قليلًا حتى يتمكنوا من الدخول.

- وانت؟ هل ستغادر؟

- لا، أبدًا.

- ولكنه طلب منك ذلك.

- ليكن، عليَّ فقط توخي الحذر، فكلي فضول لمعرفة ما سيحدث.

ضحك (داسبري) وقال:

- حسنًا، أنت على حق سأبقى معك أيضًا، أعتقد أننا لن نشعر بالملل..

قاطعه صوت الجرس، تمتمت قائلًا:

- أهم بالفعل؟ قبل عشرين دقيقة من موعدهم؟ مستحيل!

من الصالة سحبت الحبل الذي يفتح الباب فرأيت ظل امرأة تعبر الحديقة، السيدة (أندرمات)، حينما أقبلت بدت مستاءة، قالت بارتباك واضح:

- زوجي، إنه قادم، سوف يستلم الرسائل، لديه موعد هنا.

- كيف علمت هذا؟

- بالصُّدفة، برقية عاجلة تلقاها زوجي في أثناء العشاء؟

- برقية عاجلة!

- نعم، تليغراف أعطاه لي الخادم بالخطأ، وقد سحبه زوجي من يدي على الفور ولكن بعد فوات الأوان، لقد تمكنت من قراءته.

- ماذا قرأت؟

- الرسالة تقول فيما معناه: في التاسعة مساء احضر إلى حي «مايوه»، ومعك الوثائق المتعلقة بالقضية وفي المقابل ستأخذ الرسائل التي تخصك. بعد العشاء صعدت إلى غرفتي وتجهزت وخرجت.

- ألم يعلم السيد (أندرمات)؟

- لا يعلم.

نظر (داسبري) ناحيتي وسألني:

- ما رأيك؟

- أعتقد نفس الذي تفكر به، السيد (أندرمات) هو أحد الغريمين الذي جرى استدعاؤهم.

- من الذي استدعاه، ولأي غرض؟

- هذا تمامًا ما سنكتشفه الآن.

قدتهم إلى غرفة المعيشة، كان علينا الاختباء خلف ستارة الموقد المخملية، وقفنا وبيننا السيدة (أندرمات)، تمكنا من رؤية الغرفة بأكملها من خلال الثقوب الصغيرة المصنوعة في قماش الستارة، دقت الساعة التاسعة، وبعد عدة دقائق أصدرت بوابة الحديقة صرير مفصلاتها، اعتراني قلق مفاجئ، وبدأت أشعر بالحمى تزحف إلى جسدي من جديد، كنت على وشك كشف غموض تلك المغامرة المثيرة التي كانت تؤرق مضجعي لمدة شهر كامل؛ فالمواجهة

النهائية ستحدث أمام عيني الآن.

أمسك (داسبري) بيدِ السيدة (أندرمات)، وهمس لها قائلًا:

- قبل أي شيء مهما كان ما ستسمعينه أو ترينه حاولي الصمود والتزمي الصمت التام.

دخل شخص ما، وقد تعرفت عليه فورًا، (إتيان فاريين)، شقيق ألفريد، نفس المشية البطيئة والوجه الشاحب ذو اللحية المنمقة، كان يخطو ببطء، ذو نظرات قلقة مثل رجل يخشى الوقوع في مصيدة ما، جال بعينيه في الغرفة بنظرة سريعة، بدا لي من خلال نظراته أن هذه المدفأة المغطاة بساتر مخملي لا تُعجبه، فاقترب نحونا ثلاث خطوات ثم توقف، بدا لي بأن هناك فكرةً أكثر إلحاحًا سيطرت عليه؛ لأنه استدار نحو الحائط وتوقف أمام الملك ذي اللحية والسيف المشهور في يده المرسوم بالفسيفساء على الجدران، تفحصه لفترة طويلة، قفز على كرسي وأخذ يتلمس الخطوط العريضة للكتفين والوجه وأجزاء معينة من الرسمة، لكنه قفز فجأة مُبتعدًا عند سماع صوت خطى تقترب على عتبة الغرفة، كان السيد (أندرمات)، والذي أطلق صيحة مفاجئة:

- أنت؟ أنت من تواصل معي؟

- أنا؟ إطلاقًا! احتج (فاريين) صائحًا: إن رسالتك هي ما أتت بي إلى هنا.

- رسالتي!

- رسالة بتوقيعك، تعرض عليَّ من خلالها....

- أنا لم أكتب لك شيئًا.

- لم تكتب لي!

تحفز (فاريين)، ضبط نفسه على وضع الاستعداد، ليس ضد المصرفي ولكن ضد العدو المجهول الذي جرَّه إلى هذا الفخ، مرة أخرى توجهت عينه ناحية الستارة، وسرعان ما اتجه نحو الباب، اعترض السيد (أندرمات) طريقه قائلًا:

- ماذا تفعل يا (فاريين)؟

- هذه الألغاز لا تروق لي؛ لذا فسوف أغادر، عِمْت مساءً.

- لحظة من فضلك.

- ماذا هناك سيد (أندرمات)؟ لا تصر من فضلك، ليس بيننا شيء يمكننا الحديث بشأنه.

- بل لدينا الكثير لنتحدث بشأنه، وها قد سنحت الفرصة.

- دعني أذهب.

- لا، لن تذهب.

تراجع (فاريين) للخلف مضطربًا من إصرار المصرفي وموقفه الثابت، ثم تمتم في قلق:

- إذن هاتِ ما عندك فورًا، ودعنا ننتهي.

فاجأني شيء واحد، ولم يكن لديَّ أدنى شك بأن رفيقيي أيضًا شعرا بخيبة الأمل نفسها، كيف لم يكن (سلفاتور) موجودًا؟ ألم يخطط للتدخل؟ هل كانت مواجهة (أندرمات) و(فاريين) كافية له؟

انزعجت قليلًا، فكيف تكون في غيابه هذه المواجهة التي خطط لها وأرادها بشدة؟!

خط سير الأحداث الدرامية التي دبرها القدر، وتلك القوة المندفعة من الرجلين كل منهما ضد الآخر؛ كيف لن يشهد هذا كله؟

بعد لحظة اقترب السيد (أندرمات) من (فاريين)، وقف أمامه وجهًا لوجه وأخذ يُحدِّق في عينيه بنظرة نارية ثم قال:

- الآن، وبعد أن مرت سنوات، لم يعد هناك ما تخشاه، ماذا فعلت بـ(لويس لاكومب)؟

- ما هذا السؤال؟ وكأنني أعلم ما حدث له.

رد السيد (أندرمات) منفعلًا:

- أنت تعرف بالتأكيد، كنت تلازمه باستمرار أنت وأخوك، بالكاد كنتم تتركونه، أقمت معه في نفس المنزل الذي نحن به الآن، كنت على علم بكل تحركاته ومشاريعه، في تلك الليلة عندما رافقته إلى باب منزلي، أكاد أجزم بأنني رأيت شبحين يختفيان في الظلام، أنا مستعد للقسم على ذلك.

- وبعد أن تُقْسِم؟

- لقد كنت أنت وأخوك (فاريين).

- أثبت ذلك.

- أفضل إثبات لذلك هو أنك بعد يومين فقط من اختفائه، أطلعتني بنفسك على الوثائق التي جمعتها من حقيبته وعرضت عليَّ بيعها، فكيف كانت بحوزتك؟

- لقد أخبرتك سيد (أندرمات) أننا وجدناها فوق الطاولة بمنزله صباح اليوم التالي لاختفائه.

- ليس صحيحًا.

- أثبت ذلك.

- كان من الممكن أن يثبت القضاء ذلك.

- لماذا لم تذهب إلى القضاء إذن؟

- لماذا؟ فعلًا.... لماذا؟

صمت وشحب وجهه قليلًا، فتابع (فاريين):

- كما ترى سيدي، لو كان لديك أدنى شك، لم يكن التهديد الصغير الذي وجَّهناه إليك بقادر على منعك.

- ما هذا التهديد؟ تلك الخطابات؟ هل تتخيل أنني صدقت ولو لحظة؟

- إذا لم تصدق هذه الخطابات، فلماذا إذن عرضت عليَّ ألف ومائة دولار لاستعادتها؟ لماذا منذ ذلك الحين ظللت تتصيدنا أنا وأخي مثل الحيوانات؟

- لاستكمال أهداف كنت قد بدأتها.

- هيا سيد أندرمات، كان كل هذا من أجل الرسائل التي ما أن تحصل عليها فسوف تبلغ عني على الفور.

انفجر ضاحكًا ثم توقف فجأة وأكمل:

- ولكن يكفي هذا، نكرر نفس الكلمات دائمًا ولا نحرز أي تقدم؛ لذا فلنتوقف هنا.

رد المصرفي:

- لن نتوقف هنا، ما دمت قد أتيت على ذكر الخطابات، فلن تخرج من هنا حتى تعيدها إليَّ.

- سأخرج.

- أبدًا.

- اسمع سيد (أندرمات) نصيحة مني....

- لن تخرج.

- سوف نرى!

قالها (فاريين) بنبرة غاضبة لدرجة أن السيدة (أندرمات) كتمت صيحة فزع كادت أن تفلت منها، لعله سمعها لأنه هَمَّ بالخروج في حين دفعه السيد (أندرمات) بقوة، ثم رأيت (فاريين) يدخل يده في جيب سترته قائلًا:

- للمرة الأخيرة أطلب منك....

- الخطابات أولًا.

أشهر مسدسه في وجه السيد (أندرمات) قائلًا:

- نعم أم لا؟

انحني السيد (أندرمات) في خفة في حين انطلقت رصاصة في الهواء سقط على إثرها السلاح من يد (فاريين)، لقد عبرت الرصاصة بالقرب مني أنا بالذات، وثب (داسبري) فجأة مقتحمًا المشهد، لقد كان هو من أطلق رصاصة وأسقط المسدس من يد (فاريين)، وقف بين الخصمين في مواجهة (فاريين)، وسمعته يقول ساخرًا:

- أنت محظوظ يا صديقي، لقد صوبت تجاه يدك، ولكن الطلقة أصابت سلاحك فقط.

حدق الرجلان فيه بذهول وقد أخرستهم الدهشة، قال (داسبري) موجهًا كلامه للمصرفي:

- أرجو أن تعذرني يا سيدي للتدخل فيما لا يعنيني، ولكنك تقوم بدورك بشكل أخرق للغاية، فاسمح لي أن أقوم به بالنيابة عنك.

ثم توجه إلى الآخر قائلًا:

- لنجعل الأمر في صالحنا نحن الاثنان بكل بساطة يا صديقي، عليك فقط توخي الحذر، الورقة الرابحة هي القلب وأنا ألعب على السبعة.

وعلى بُعد ثلاث بوصات من أنفه، قام بوضع البطاقة الحديدية ذات السبع قلوب الحمراء والثقوب، لم أرَ في حياتي بأكملها نظرة رعب مثل التي اعتلت وجه الرجل، شحب وجهه وجحظت عيناه، ملامحه بأكملها أصبحت ترتجف وهو يحدق في المشهد الذي يدور أمامه، ثم قال متلعثمًا:

- من أنت؟

- لقد قلت منذ قليل، أنا رجل نبيل يهتم بأمور ليست من شأنه ولكنه يعتني بها جيدًا.

- ماذا تريد؟

- كل ما أحضرته معك.

- لم أحضر شيئًا.

- لو لم تحضر شيئًا ما كنت أتيت، لقد تلقيت برقية عاجلة صباح اليوم تستدعيك إلى هنا في تمام التاسعة وتحثك على إحضار جميع الأوراق التي بحوزتك، الآن أنت هنا، أين الأوراق إذن؟

شعرت بثقة غريبة في سلوك (داسبري)، سلطة غريبة تملكته حيرتني، فهذا الرجل لطيف الطبع، الهادئ إلى حد ما اتبع أسلوبًا جديدًا عليه تمامًا لترويض (فاريين)، الذي انصاع في خضوع تام مشيرًا إلى أحد جيوبه ثم قال:

- الأوراق هنا.

- كلها؟

- نعم.

- كل ما وجدته في حقيبة لويس لاكومب، والذي بعته إلى الرائد «فون ليبين»؟

- نعم.

- هل هذه النسخة أم الأصل؟

- الأصل.

- كم تريد؟

- مائة ألف.

ضحك (داسبري) ثم قال ساخرًا:

- هل أنت مجنون؟ لقد عرض عليك الرائد عشرين ألفًا، عشرين ألفًا ذهبت هباءً؛ لأن تلك الأوراق ناقصة.

- إنه خطؤهم، لم يعرفوا كيف يستخدمونها.

- وذلك لأن التصميمات غير مكتملة.

- لماذا تريدها مني إذن؟

- أنا أحتاج إليها؛ لذلك أعرض عليك خمسة آلاف فرنك، وليس بنسًا واحدًا زيادة.

- عشرة آلاف فرنك لا بنسًا واحدًا أقل.

- موافق.

تحول (داسبري) إلى السيد (أندرمات) موجهًا إليه كلامه.

- الرجاء التوقيع على الشيك.

- لكن ليس معي الآن....

قاطعه (داسبري):

- آه! دفتر شيكاتك، ها هو.

شعر السيد (أندرمات) بالذهول عندما ناوله (داسبري) الدفتر، فتفحصه مليًّا ثم تمتم باندهاش:

- هذا دفتري فعلًا، كيف حدث هذا؟

- من فضلك سيدي لا داعي لإضاعة الوقت في هذه التفاهات، ليس عليك سوى التوقيع.

سحب المصرفي قلمه ووقع.

قدم (فاريين) يده لالتقاط الشيك، فأوقفه (داسبري):

- ابعد يدك؛ فالأمر لم ينتهِ بعد.

ثم توجه إلى المصرفي مرة أخرى:

- كانت هناك خطابات تريدها أيضًا، أليس كذلك؟

- نعم، مجموعة رسائل تخصني.

- أين هي يا (فاريين)؟

أجابه (فاريين) بعنف:

- ليست معي.

- سأكرر سؤالي مرة أخرى، أين هي يا (فاريين)؟

- لا أدري، أخي من كان يحتفظ بها.

- إنها مُخبأة في هذه الحجرة.

- يبدو أنك تعلم مكانها.

- كيف أعلمه؟

قال متهكمًا:

- سيدي، ألم تعلم بأمر المخبأ بعد؟ يبدو لي أنك على دراية بكل شيء كـ(سلفاتور) تمامًا.

- الرسائل ليست في المخبأ.

- إنها هناك.

- افتحه إذن وأرني.

أظهر (فاريين) نظرة عدم ثقة، هل كان داسبري هو سلفاتور حقًّا، لو لم يكن هو فلن يخاطر بكشف المخبأ أمامه أبدًا، ولو كان هو فعلًا، فقد أكتشفه بالفعل.

عاد (داسبري) يقول:

- هيا! افتحه.

- ليس معي السبعة الكبة.

قال (داسبري) وهو يمد إليه يده بالبطاقة الحديدية:

- هي معك الآن

انتفض (فاريين) متلعثمًا:

- لا، لا أريد.

ابتسم (داسبري) بسخرية ثم قال:

- حسنًا، لا بأس.

مشى (داسبري) باتجاه الحائط إلى رسمة الملك العجوز ذي اللحية، صعد على كرسي ووضع البطاقة الحديدية على الجزء السفلي من السيف الذي بيده، بحيث انطبقت حواف البطاقة المعدنية تمامًا مع حواف السيف، ثم أخرج من جيبه مِثقبًا وضغطه بالتناوب في الثقوب السبعة المصنوعة في نهاية كل قلب، وضغط بيده على سبع أحجار صغيرة من أحجار الفسيفساء، وأثناء الضغط على الحجر الأخير صدر صوت تكة خافتة، أتبعه دوران الجزء العلوي من رسمة الملك كاشفة وراءها فتحة كبيرة وكأنها خزانة حديدية مثبتة بواسطة اثنين من الحوامل الفولاذية اللامعة، ثم قال:

- أترى يا (فاريين)، الخزانة فارغة.

- في الحقيقة، من المحتمل أن يكون أخي قد أخفاها.

توجه (داسبري) إليه صائحًا بحدة:

- من الأفضل لك أن لا تتلاعب بي، يوجد مخبأ آخر غير هذا، أين هو؟

- لا يوجد.

- كم تريد من المال؟

- عشرة آلاف.

توجه إلى السيد (أندرمات) سائلًا:

- سيد (أندرمات)، هل تساوي هذه الرسائل عشرة آلاف فرنك؟

رد بصوت منخفض:

- نعم.

أغلق (فاريين) الخزينة وسحب البطاقة الحديدية، ثم دون تردد وضعها فوق السيف مرة أخرى ولكن بوضع مقلوب بحيث كانت القلوب لأعلى، ثم ضغط بنفس المثقب على الثقوب، صدرت تكة بسيطة، وظهر بشكل غير متوقع خزانة صغيرة لها نفس باب الخزانة الكبرى، كان بداخلها حزمة الرسائل مربوطة بخيط ومختومة، سلمها (فاريين) إلى (داسبري) الذي سأل:

- هل الشيك جاهز يا سيد (أندرمات)؟

- نعم.

- ألديك أيضًا المستند الأخير الذي سلمه إليك (لويس لاكومب)، الذي يكمل تصميمات الغواصة؟

- نعم.

تم التبادل ثم قام (داسبري) بوضع الوثيقة والشيك في جيبه.

- هذا كل ما أردته يا سيدي، قال ذلك وهو يمد يده بالرسائل إلى السيد (أندرمات).

تردد المصرفي لحظة وكأنه يخشى أن يلمس تلك الرسائل الملعونة التي سعى إليها سنوات بشدة، ثم أمسكها بإيماءة عصبية.

بالقرب مني سمعت أنينًا خافتًا، أسرعت أمسك يد السيدة أندرمات فوجدتها باردة كالثلج. قال (داسبري) للمصرفي:

- أعتقد أن حديثنا انتهى الآن يا سيدي، لقد شاءت الأقدار بأن أكون حليفًا لك.

انسحب السيد (أندرمات) ومعه رسائل زوجته إلى (لويس لاكومب).

صاح (داسبري) في سعادة:

- حسنًا، كل شيء يسير على ما يرام، علينا فقط تدبُّر أمرنا الآن، هل معك الأوراق يا صديقي؟

- نعم، كلها.

تناولها (داسبري) وفحَصَها في عناية بالغة، ثم وضعها في جيبه قائلًا:

- حسنًا، لقد وفيت بوعدك.

- ولكن؟

- لكن ماذا؟

- الشيكات! نقودي!

- حسنًا، لديك جرأة بالغة يا عزيزي، كيف تجرؤ على المطالبة بها؟

- أُطالب بما هو من حقي.

- آه! على ذلك فنحن مدينون لك بمال مقابل الأوراق التي سرقتها؟

احتقنت عيناه بالدماء، وبدأ يرتجف من الغضب، ثم تلعثم قائلًا:

- المال... العشرون ألفًا.

- مستحيل، فلديَّ بالفعل خطط لإنفاقها.

صاح بجزع:

- أعطني المال.

- كن عاقلًا يا صديقي، دعْ هذا الخنجر جانبًا.

ثم انقض عليه ممسكًا ذراعه بغلظة لدرجة أنه صرخ من الألم، وهتف بعنف:

- هيا إلى الخارج، الهواء الطلق سيفيدك، هل تريدني أن أخرج معك؟ سأريك كومة من الأنقاض والأحجار يرقد تحتها....

قاطعه بصوت مرتجف مرعوب:

- ليس صحيحًا، هذا ليس صحيحًا....

- صحيح للغاية؛ لدرجة أن هذه البطاقة الحديدية الصغيرة ذات السبعة ثقوب كانت هناك دومًا، لم تترك (لويس لاكومب) أبدًا، أنت وأخوك دفنتوها مع الجثة، وأشياء أخرى بالتأكيد ستكون ذات فائدة كبرى للشرطة.

احتقنت عينا (فاريين) بالدموع، وغطى وجهه بكلتا يديه لبضع ثوانٍ، ثم قال بنبرة تسليم:

- حسنًا، فلنتوقف عن هذا الحديث، ولكن أريد أن أعرف شيئًا واحدًا منك.

- هات ما عندك.

- كان يوجد بهذه الخزنة الكبرى صندوق، أليس كذلك؟

- نعم.

- هل كان موجودًا عندما أتيت إلى هنا ليلة الثاني والعشرين من يونيو؟

- نعم.

- كان يوجد به....

- أعرف ما يوجد به، كل ما جمعه الأخوان (فاريين) في السنوات السابقة، مجموعة رائعة من الجواهر والألماس واللآلئ، حفظها الإخوة (فاريين) بعناية بالغة داخل الخزنة.

- وقد أخذته؟

- سيدي، ضع نفسك مكاني.

- إذن؛ لذلك انتحر أخي، عندما تأكد بنفسه من اختفاء الصندوق.

- احتمال، لم يكن مجرد اختفاء مراسلاتك مع الرائد (فون ليبين) كافيًا للانتحار، لكن اختفاء الصندوق.. ربما، والآن هل هذا كل ما تريد معرفته؟

- شيء آخر، صمت ثواني ثم سأل: ما اسمك؟

- تسألني وكأنك تستعد للانتقام.

- بالتأكيد، فالحظ مُتقلب دائمًا، اليوم أنت الرابح، ولكن غدًا من يدري؟

- أستكون أنت؟

- أتمنى ذلك، اسمك؟

- (أرسين لوبين).

- (أرسين لوبين)؟!

صاح الرجل بذهول ثم ترنح كأنه تلقى ضربة على رأسه، لقد أفقدته هاتان الكلمتان كل أمل لديه.

ضحك (داسبري) قائلًا:

- هل تخيلت أن السيد (دوران) أو (ديبون) بإمكانهم تدبير وتنفيذ مثل هذا العمل الرائع؟ كان هناك حاجة لـ(أرسين لوبين) واحد على الأقل، والآن بعد أن علمت اسمي يا عزيزي اذهب واستعد للانتقام، فـ (أرسين لوبين) في انتظارك.

خرج بهدوء دون أن ينبس ببنت شفة.

دفعت الستارة جانبًا واندفعت من مكاني صائحًا:

- (داسبري)، (داسبري)!

فما زلت أناديه بنفس الاسم الذي طالما عرفته به رغمًا عني.

- ماذا حدث؟

- السيدة (أندرمات) غائبة عن الوعي منذ فترة.

هرع ناحيتها، أسندها وحاول إفاقتها، سألني وهو يحاول أن يجعلها تستنشق زجاجة من الملح أخرجها من جيبه:

- ماذا حدث؟

- الرسائل، رسائلها مع (لويس لاكومب) التي سلمتها لزوجها للتو!

صفع جبهته بكفه وقال:

- لقد صدقت أني فعلت ذلك؟ نعم، يحق لها أن تصدق بعد كل هذا، يالي من أحمق!

بعدما أفاقت استعلمت مرة أخرى عن الرسائل، فأخرج (داسبري) من جيبه حزمة صغيرة من الأوراق مماثلة تمامًا لتلك التي سلمها إلى السيد (أندرمات).

- ها هي رسائلك سيدتي، تلك الأصلية.

- ماذا عن الأخرى؟

- الأخرى، نفس الشكل فقط، لقد أعدت كتابتها الليلة الماضية ورتبتها بعناية،

سيسعد زوجك بقراءتها ولن يكون لديه أدنى شك أبدًا في استبدالها، فكل شيء وقع أمام عينيه.

- ولكن الخط؟

- سيدتي، لا يوجد خط يصعب على تقليده.

شكرته بامتنان، وبنفس العبارات الودودة التي كانت ستوجهها إلى رجل نبيل من نفس وسطها الاجتماعي، وبذلك فهمت أنها لم تسمع الحوار الأخير الذي دار بين (داسبري) و(فاريين) عندما كشف عن هويته الحقيقية.

أما أنا فنظرت إليه بدهشة، لا أعرف تمامًا ماذا أقول لهذا الصديق القديم الذي تغير فجأة في ظرف غير متوقع، صديقي في السهرات والنادي هو (لوبين)؟ لم أستطع السيطرة على ذهولي، بينما احتفظ هو بكامل هدوئه ورزانته قائلًا:

- يمكنك الآن أن تودع (جان داسبري).

- آه! نعم.

- سيذهب (جان داسبري) في رحلة إلى المغرب، سأرسله حيث يمكن أن يجد نهاية نبيلة تليق به.

- ولكن سيبقى (أرسين لوبين).

- بالطبع، وأكثر من أي وقت مضى، فما زال في بداية حياته المهنية.

قاطعته ساحبًا إياه بعيدًا بعض الشيء عن السيدة (أندرمات):

- إذن فقد اكتشفت المخبأ الثاني، حيث توجد الخطابات؟

- نعم، لقد عانيت كثيرًا أمس حتى اكتشفته بينما كنت أنت نائمًا، يا إلهي! كم كان أمرًا في غاية البساطة، فالأفكار البسيطة طالما تأتينا في نهاية المطاف.

ثم رفع البطاقة الحديدية أمام وجهي وأردف:

- توقعت أنه من أجل فتح الخزينة الكبرى كان عليَّ الضغط على هذه البطاقة الحديدية في اتجاه السيف.

- كيف خمنت هذا؟

- بسهولة من خلال معلومات كونتها عندما أتيت إلى هنا ليلة الثاني والعشرين من يونيه.

- بعد أن تركتني بالخارج عدت مرة أخرى.

- نعم، وبعد أن وضعتك في حالة ذهنية مضطربة بأحاديثي المُنتقاة بعناية، شخص وديع وسريع التأثر مثلك سيساعدني على القيام بمهمتي الخاصة دون حتى أن ينهض من السرير.

- منطقك سليم للغاية.

- لقد كنت أعلم منذ البداية قبل المجيء إلى هنا أنه توجد خزنة سرية بداخلها صندوق مهم، وأن البطاقة الحديدية هي مفتاحها السري، لم يكن ينقصني سوى الكشف عن المكان المخصص لتثبيتها، وقد كانت ساعة واحدة كافية للبحث والاستنتاج.

- ساعة فقط؟

- تمعن جيدًا في صورة الإمبراطور فإنه مجسم للملك شارلمان المرسوم على كل أوراق اللعب.

- صحيح ولكن لماذا تفتح البطاقة الخزنة الكبيرة أولًا ثم الصغيرة، ولماذا لم تفتح أنت سوى الكبرى؟

- لأنني أصررت على وضع البطاقة في نفس الوضع في كل مرة وأمس فقط انتبهت إلى تلك الخدعة، فلو أنني ثبتها بالمقلوب فالثقوب ستغير وضعها.

- صحيح.

- طبعًا، ولكن كان يجب أن أنتبه إلى ذلك مبكرًا.

- شيء آخر، أنت لم تكن تعلم بشأن خطابات مدام (أندرمات)، أليس كذلك؟

- عندما تحدثت أمامي فلم أكن أعلم شيئًا عنها، لم أكن أعلم سوى بوجود صندوق المجوهرات المسروق والمراسلات الخاصة بالغواصة التي تدين الأخوين.

- فهمت، لقد وجهت جهودك منذ البداية لكشف تاريخ الأخوين السيئ ثم بدأت البحث في قضية الغواصة.

- الصدفة وحدها من كشف لي ذلك.

- ولكن لماذا كنت تسعى خلفهم من الأساس؟

ضحك (داسبري) قائلًا:

- ما أشد اهتمامك بهذه القضية؟

- بالفعل، إنها تُبهرني.

- اصبر قليلًا حتى أرافق السيدة (أندرمات)، ثم أرسل إلى جريدة «إيكو دي فرانس» مقالي الجديد الذي ينهي تلك القضية، بعد ذلك سأعود لأسرد عليك كل شيء بالتفصيل.

جلس بهدوء وكتب واحدة من مقالاته الصغيرة التي تتميز بروح المرح والمفاجأة دائمًا، فمن لا يتذكر هذا الضجيج الذي أحدثته هذه المقالة في العالم أجمع؟

«قام (أرسين لوبين) بحل القضية الأخيرة التي طرحها (سلفاتور)، فقد حصل على جميع الوثائق والتصميمات الأصلية لـ(لويس لاكومب)، وأرسلها إلى وزارة البحرية، وبهذه المناسبة فتح باب التبرع بهدف إهداء الدولة أول غواصة مُصممة بهذا الشكل المتكامل، وسجل نفسه على قمة قائمة التبرع، مُتبرعًا بمبلغ عشرين ألف فرنك».

- عشرون ألف فرنك من دفتر شيكات السيد (أندرمات)؟

تساءلت عندما قدم إليَّ الورقة لأكون أول من يقرأ هذا المقال.

- تمامًا، لا بد أن يدفع (فاريين) ثمن خيانته حتى لو كان ضئيلًا.

هكذا التقيت بـ(أرسين لوبين)، (جان داسبري) صديق سهراتي ورجل المجتمع النبيل لم يكن سوى (أرسين لوبين) اللص المحترف، هذه هي الطريقة التي أنشأت بها روابط صداقة عميقة مع هذا الرجل الفريد، وكيف أصبحت شيئًا فشيئًا بفضل الثقة التي أولاني إياها راويًا لأعماله بكل تفانٍ وامتنان.

خزنة السيدة (أمبيرت)

كانت الثالثة صباحًا وما زالت هناك نصف دزينة من السيارات أمام إحدى البنايات الصغيرة التي يمتلكها الرسامون، والتي تشكل الجانب الأخير من ضاحية «برتييه»، فتح باب هذه البناية، فخرج الكثير من الرجال والنساء، انطلقت أربع سيارات من يمين الطريق إلى يساره، ولم يبقَ سوى رجلين في الشارع، افترقا عند ناصية شارع «دي كورسيل»، حيث يسكن أحدهم، وقرر الآخر العودة إلى «بورت مايوه» سيرًا على قدميه؛ ولذلك عبر شارع «دي فيليير»، واستمر يمشي على الرصيف المقابل للتحصينات العسكرية، لقد كان سعيدًا بالمشي في هذه الليلة الشتوية الهادئة، كان يتنفس بأريحية بينما تتردد صوت خطاه بكل خفة ومرح، ولكن بعد بضع دقائق أحس بشعور مزعج وكأن أحدًا ما يتبعه، وبالفعل عندما استدار رأى ظل رجل يسير متخفيًا بين الأشجار، لم يكن مِمن يدركهم الخوف بسهولة، ومع ذلك أخذ يسرع قليلًا من أجل الوصول إلى صندوق رسوم الدخول إلى ميدان «تيرن»، ولكنه أحس بالرجل الذي يتبعه يسرع من خلفه أيضًا، بدأ القلق يجتاحه بشدة، ورأى أنه من الأفضل أن يسحب سلاحه، ويواجه الرجل فورًا، لكن الوقت لم يُسْعفه، قد باغته الرجل بعُنف، وعلى الفور اندلع القتال في أحد الشوارع المهجورة، قتال بالأيدي أحس خلاله بأنه سينهزم لا محالة فأخذ يصيح مستغيثًا دون جدوى، أسقطه الرجل على كومة من الحصى ضاغطًا على عنقه وحشر منديلًا في فمه، بينما أغمض هو عيناه وأذناه تطن بألم رهيب، أوشك على أن يفقد وعيه، وفجأة ارتخت أيدي الرجل فوق عنقه وقفز من فوقه يدافع عن نفسه أيضًا ضد هجوم باغته بدوره، فقط ضربه بالعصا على رسغه وركله في الكاحل، أطلق الرجل على إثرهم صرختين من الألم، ثم هرب يجري وهو يعرج ويلعن.

انحنى الوافد الجديد فوق الرجل المطروح أرضًا يسأله في لهفة:

- هل تأذيت يا سيدي؟

لم يصب بأذى ولكنه كان مُصابًا بدوار شديد جعله غير قادر على الوقوف، لحُسْن الحظ جاء أحد العاملين في التحصينات العسكرية راكضًا، وقد اجتذبه الصراخ، ثم استدعى سيارة، ركب فيها الرجل برفقة منقذه، وأُخِذ إلى منزله بشارع «جراند رمبيه»، وعندما وصل أمام باب بنايته كان قد تعافى إلى حدٍّ ما، أخذ يشكر منقذه بامتنان حقيقي:

- أنا مدين لك بحياتي يا سيدي، صدقًا لن أنسى أبدًا ما حييت إنقاذك لي هذه الليلة، لا أريد أن أفزع زوجتي الآن، ولكني أريدها أن تُعبِّر لك بنفسها عن غاية امتناننا. ودعاه إلى تناول الغذاء في اليوم التالي بعد أن عرفه على نفسه: (لودوفيك أمبيرت) ثم أضاف:

- هل لي أن أتشرف باسمك؟

- بالتأكيد، (أرسين لوبين).

لم يكن (أرسين لوبين) قد حاز بعد على هذه الشهرة الواسعة التي جلبتها له قضية (كاهورن)، وهروبه من سجن «السانتيه»، والعديد من المغامرات الأخرى التي لم يكن معروفًا وقتها بـ(أرسين لوبين)، لقد اختلق هذا الاسم لتقديم نفسه للسيد (أمبيرت)، هذا الاسم الذي صاغه القدر له، وسيبقى معه إلى الأبد، لقد أعجبه هذا الاسم كثيرًا، وأصبحت لديه النية بأن يعرف به بين الناس، ويواجه به المجتمع، هذه المواجهة التي أستعد لها جيدًا بالرغم من أنه لم يعد لها أسلحة سوى الإرادة والعزيمة، حتى الآن لم يكن (أرسين لوبين) سوى متدرب مجتهد في مهنة سيصبح سيدها قريبًا.

يا لها من فرحة عظيمة استيقظ بها صباحًا وهو يتذكر دعوة الليلة السابقة! أخيرًا وصل إلى هدفه المنشود، أخيرًا استطاع القيام بعمل يخدم موهبته، ملايين (أمبيرت)، يا لها من فريسة شهية لشخص شره مثله!

ارتدى ثوبًا خاصًّا لتلك المناسبة، معطفًا رثًّا وسروالًا قديمًا، قبعة حريرية مائلة إلى الحمرة إلى حد ما من كثرة استعمالها، أساور قميص وياقة مهترئة، ولكنها نظيفة للغاية، تدل على فقر مدقع، ورابطة عنق سوداء مثبت بها دبوس من الماس، ليبدو وكأنه في يوم ما كان ينعم بحياة مترفة.

هكذا هبط مرتديًا هذه الأسمال البالية، درج السكن الذي كان يقطنه، في «مونمارت» بالطابق الثالث، ودون أن يتوقف قرع مقبض باب مغلق في الدور الأرضي، وأكمل سيره إلى الخارج، مضى في الشوارع توقف عند رصيف الترام، ثم صعد ولحق به رجل، كان يسكن في نفس البناية معه، وجلس بجواره.

بعد مرور لحظات بسيطة قال الرجل:

- حسنًا يا الزعيم.

- لقد تم الأمر.

- كيف هذا؟

- سأتناول الغذاء هناك.

- تتناول الغذاء هناك!

- أعتقد أنك لم تكن تتوقع هذا، لن أُضيّع أيامًا ثمينة مضتْ من عمري بلا مُقابل هكذا، لقد أنقذت السيد (لودوفيك أمبيرت) من الموت المُحتَّم الذي كان سيلقاه، فدعاني إلى منزله ليعبر لي عن مدى شكره وامتنانه.

صمتا قليلًا، فتجرأ الرجل سائلًا:

- إذن فلن تتخلى عن قرارك؟

- يا لك من ساذج! فبعد أن دبرت هذا الهجوم الليلي، وخاطرت بالسير على طول خط التحصينات العسكرية في الثالثة ليلًا، وأيضًا غامرت بضرب صديقي

الوحيد بعصا على معصمه وركلته في ساقه مُلْحِقًا به الأذى، فلن أتخلى عن هذه النتيجة المثمرة التي حققها هذا الإنقاذ المُدبَّر بدقة.

- لكن يوجد الكثير من الشائعات السيئة حول ثروة هذا الرجل.

- دعهم يثرثرون، لقد مرَّت ستة أشهر وأنا أتحرى حول تلك الموضوع، ستة أشهر أُخطِّط وأدرس وأستفسر عن كل شيء، استجوبت الخدم القدامى، والمقرضين، ستة أشهر قضيتها في مراقبة الزوج والزوجة ليل نهار، فأنا متأكد تمامًا الآن مما يتوجب عليَّ فعله، سواء كانت هذه الثروة قادمة من (بروفوت) أم من مصدر آخر، فالمهم أنها موجودة بالفعل، وستصبح ملكي يومًا ما.

- يا إلهي! إنها مائة مليون!

- لنقُل عشرة، أو حتى خمسة فقط، أيًّا كانت، فالمهم أن هناك عددًا كبيرًا من المستندات المالية في الخزنة وعليَّ أن أبذل قصارى جهدي للحصول على المفتاح بطريقة أو بأخرى.

توقف الترام في ميدان «إتوال»، وتمتم الرجل قائلًا:

- والآن ماذا يتوجب عليَّ فعله؟

- في الوقت الحالي ليس هناك شيء يمكنك فعله، سأخبرك لاحقًا، ما زال أمامنا الكثير من الوقت.

بعد مرور خمس دقائق على هذه المحادثة، كان (أرسين لوبين) يصعد درج منزل (أمبيرت) الفخم، قدمه (لودوفيك) إلى زوجته، كانت (جيرفايز) سيدة قصيرة ممتلئة الجسم، ثرثارة إلى حد ما، ولكنها رحبت بـ(أرسين لوبين) على أفضل وجه، قالت له بعد التحية:

- لقد أردنا أن نحتفل بمُنقذنا الشجاع بشكل خاص.

منذ بداية اللقاء وهم يعاملون مُنقذهم المزعوم هذا بكل حفاوة وكأنه صديق قديم، تناولوا الغذاء، ثم أخذوا يتبادلون الأحاديث التي لا تخلو من حكايات ونوادر، حكى (أرسين لوبين) عن حياته السابقة وحياة والده القاضي النزيه، حزن طفولته ومتاعب شبابه، روت له (جيرفايز) بدورها عن حياتها، شبابها وزواجها، لطف وكرم العجوز (بروفوت) معها، الثروة الهائلة التي ورثتها، العقابات التي واجهتها والديون التي تكاتلت عليها بفوائدها الباهظة، مشكلات القضاء مع أبناء إخوة (بروفوت)، والحراسة القضائية على هذه الأموال حتى نهاية كل شيء، ثم قالت:

- هل تعلم يا سيد (لوبين)؟ الأسهم جميعها هنا في مكتب زوجي، لو فُقد منها مستند واحد فقط فستذهب كلها هباءً، إنها هنا في خزنتنا ولكننا لا نستطيع لمسها.

سَرَتْ رعشة هزت كيان السيد (لوبين) لمجرد تخيله بأن هذه الثروة الطائلة

على مقربة منه، وشعر بأنه لا يستطيع التعاطف مع مشاعر القلق البادية على السيدة الطيبة، فتمتم متصنِّعًا الدهشة بصوت منخفض:

- أها! إنها هنا إذن!

- أجل.

لا يمكن لتلك العلاقة التي بدأت بمثل هذا الشكل الودي إلا أن تتوثق جيدًا يومًا بعد يوم، فبعد معرفة ظروف حياة (أرسين لوبين) البائسة، وحقيقة محنته، عُيِّن على الفور سكرتيرًا خاصًّا للزوجين براتب مائة وخمسين فرنكًا شهريًّا، عرضوا عليه أيضًا العيش معهم في نفس المنزل، ولكنه فضل أن يذهب إلى منزله ليلًا ويأتي في صباح كل يوم، واستكمالًا لكرمهم معه وُضِعت غرفة النوم في الطابق الثاني تحت تصرفه، لتكون مكتبًا خاصًّا به، ولحُسْن حظه كانت هذه الغرفة مباشرة فوق مكتب (لودوفيك).

لم يستغرق (أرسين لوبين) وقتًا طويلًا ليدرك أن هذه الوظيفة التي عهدت إليه لم تكن لها أي داعٍ، فخلال شهرين لم يكن لديه سوى نسخ أربع رسائل تافهة، ولم يُسْتدعَى إلى مكتب رئيسه سوى مرة واحدة أُتِيح له من خلالها التحديق في الخزنة بصفة رسمية، كما أنه اكتشف أيضًا أن هذه الوظيفة التافهة لا تؤهله للجلوس مع كبار الرجال مثل النائب أو مدير المحامين (جزويل)، ولن يُدعى لحضور أي من حفلات الاستقبال الاجتماعية الشهيرة، لم يشتكِ وفضَّل أن يحتفظ بمكانته المتواضعة في الظل، يفعل ما يحلو له في حرية تامة دون لفت الانتباه، ففي أثناء ذلك لم يُضِعْ وقته هباءً، بل قام بعدد من الزيارات السرية إلى مكتب (لودوفيك)، وبالرغم من جهوده ظلت تلك الكتلة الحديدية الضخمة مُغلَقة بإحكام، لا يمكن أن تؤثر فيها أي مطارق أو مثاقب، لم يعاند (أرسين لوبين) أكثر فقال لنفسه:

- حينما تفشل القوة ينجح المكر، فالمهم الآن أن أتمكن من رؤية ما يحدث بداخل المكتب في كل الأوقات؛ ولذلك وبعد جهود مُضنية تمكن من اتخاذ الإجراءات اللازمة لتثبيت أنبوب من الكاوتشوك ينتهي إلى سقف مكتب (لودوفيك) بين ثقبين صنعهما، وكان يأمل من خلال هذا الأنبوب والمنظار المكبر أن يرى ويسمع ما يدور بالمكتب، ومنذ ذلك الوقت كان يقضي أغلب وقته منكبًّا فوق الأرض وجهه لأسفل، وكثيرًا ما كان يرى الزوجين (أمبيرت) يتحدثان أمام الخزنة، يمسكان بالمستندات ويتفحصان الأوراق، وأيضًا وهما يقومان بفتح الخزنة من حين إلى آخر، حاول جاهدًا أن يتبين الأرقام الصحيحة وعدد الدورات التي يقومان بها، كان يراقب كل حركة تحدث ولكن ماذا كانوا يفعلون بالمفتاح؟ أين كانوا يخفونه؟

في أحد الأيام أسرع يهبط الدرج إلى الطابق السفلي، بعد أن رآهما يغادران الغرفة وقد نسيا أن يُغلِقا الخزنة، دخل مندفعًا ولكنه وجدهما في الغرفة مرة أخرى، فقال معتذرًا:

- أوه! عفوًا لقد أخطات الباب.

لكن (جيرفايز) اندفعت ناحيته تقول:

- ادخل يا سيد (لوبين)، أليس هذا منزلك أيضًا؟ نحن بالفعل نحتاج إلى نصيحتك، أي من السندات علينا بيعها أولًا؟ الأجنبية أم المحلية؟

أسرع (لوبين) يقول في دهشة:

- ولكن أليست تحت الحراسة القضائية؟

- أوه، ليست مفروضة على كل السندات، ثم دفعت باب الخزانة جانبًا، فظهرت الرفوف مكتظة بحافظات الأموال المربوطة بالأشرطة، وأمسكت إحداها، ولكن زوجها اعترض قائلًا:

- لا يا (جيرفايز)، سيكون من الحماقة أن نبيع السندات الأجنبية؛ فسعرها يرتفع دائمًا بينما المحلية في أعلى قيمة لها الآن، ما رأيك يا صديقي العزيز؟

لم يكن للصديق العزيز أي رأي يناقشه، ولكنه رجَّح بيع إحدى السندات المحلية؛ لذا أخذت (جيرفايز) حافظة أخرى بشكل عشوائي من الخزنة فإذا بها سند بقيمة ألف وثلاثمائة وأربعة وسبعين فرنكًا، وضعها (لودوفيك) في جيبه، وخلال فترة الظهيرة قام السيد ببيع هذه الورقة إلى أحد السماسرة برفقة سكرتيره، وتلقى في المقابل ستة وأربعين ألف فرنك.

على الرغم من الكلام الذي قالته (جيرفايز) لتحفيز (أرسين لوبين)، لم يشعر أبدًا بأنه في منزله، على العكس فقد تفاجأ من وضعه في منزل (إمبرت)، لاحظ في كثير من المناسبات أن الخدم لا يعرفون اسمه، لقد كانوا يطلقون عليه السيد، وكان (لودوفيك) أيضًا يدعوه هكذا: هل وصل السيد؟ احذر أيها السيد! لماذا يستخدمون مثل هذا اللقب العام؟

لقد خمد حماس التعرف في البداية، فإن الزوجين (إمبرت) كانا نادرًا ما يتحدثان إليه، كانا يعاملانه بكل احترام ولا يزعجانه أبدًا، ولكنهما لا يهتمان لأمره كثيرًا، كانا يقدران عُزلته وكأنه فرض على نفسه حدودًا بهذه العزلة الإجبارية عليهما الحفاظ عليها؛ ذات مرة سمع (جيرفايز) بينما كان يمر في الرواق تتحدث إلى رجلين قائلة:

- إنه رجل يحب الوحدة كثيرًا.

قال لنفسه: فليكن، سأتقبل هذا الوصف وأعمل به مستكملًا خطتي حتى النهاية، وقرر ألَّا يعتمد على المصادفات بعد الآن، فطالما كان المفتاح في حيازة (جيرفايز)، وكانت تغير أرقام القفل كثيرًا، فعليه إيجاد حلٍّ لهذه المشكلة.

حدث انقلاب مفاجئ في الأمور بين ليلةٍ وضحاها، فشُنَّت حملة هجوم ضد الزوجين (أمبيرت) من قِبل الصحافة واتُّهما بالاحتيال، شهد (أرسين لوبين) اضطرابات الأسرة والمأساة التي يعيشونها، فأدرك أنه لو تأخر أكثر من ذلك

سيخسر كل شيء، ولمدة خمسة أيام متتالية بدلًا من أن يأتي في السادسة صباحًا كل يوم حبس نفسه في الغرفة مستلقيًا على الأرض يراقب مكتب (لودوفيك)، لم يحدث أي ظرف مناسب كان ينتظره ليتمكن من خلاله أن يأخذ خطوة إيجابية نحو هدفه طوال هذه الأيام، فكان ينصرف ليلًا من باب الخَدَم وكان قد صنع نسخة من مفتاحه من قبل، وفي اليوم السادس علم أن الزوجين استجابا للرد على هذه التلميحات الخبيثة من الصحافة وقرَّرا فتح الخزنة وتجريدها من كل محتوياتها، فقرر بينه وبين نفسه: الليلة إذن سأنفذ مهمتي.

وبالفعل بعد العشاء استقر (لودوفيك) داخل مكتبه، وانضمت إليه زوجته (جيرفايز)، بدأ كل منهما في تصفح المستندات، مرَّت ساعة ثم أخرى، سمع الخدم ينسحبون إلى غرفهم للنوم، لم يعد هناك أحد في الطابق الأول، وحتى منتصف الليل بقي الزوجان بداخل المكتب يجردان الخزنة، تمتم (لوبين) لنفسه:

- حان دوري الآن.

فتح نافذة غرفته التي تطل على الفناء، كان مُظلمًا إلى حد ما، الجو هادئ، كانت ليلة خالية من القمر، سحب حبلًا معقودًا من خزانته وثبته على سور الشرفة، ثم تسلقه وانزلق ببُطء إلى النافذة الموجودة أسفل غرفته باستخدام المواسير، حتى أصبح المكتب أمامه والستائر الصوفية السميكة تحجب الغرفة، ثبت على حافة النافذة للحظات، عيناه وأذناه في حالة ترقُّب، هدأ الصمت من توتره قليلًا، أراد أن يفتح النافذة على مصرعيها بحذر، فقد قام في أثناء فترة الظهيرة بفتح رتاج النافذة من الداخل حتى يتمكن من الدخول بسهولة، استجابت النافذة بهدوء، وبمجرد استطاعته أن يُدخِل رأسه توقف، نفذ القليل من الضوء من خلال النافذة، فرأى (جيرفايز) و(لودوفيك) جالسين بجوار الخزنة يتبادلون بعض الكلمات بصوتٍ منخفض منغمسين في العمل، قام (أرسين) بحساب المسافة التي تفصله عنهما، وحدد الحركات التي يتطلبها الأمر للانقضاض على شخصين قبل أن يتمكنا من طلب الاستغاثة، كان على وشك الهجوم عندما قالت (جيرفايز):

- كيف أصبحت الغرفة باردة هكذا فجأة، لقد تعبت جدًّا سأذهب إلى السرير، ماذا عنك؟

- أود أن أنتهي.

- تنتهي! ستستغرق الليل بأكمله إذن؟

- لا، ساعة واحدة وألحق بكِ.

انسحبت إلى غرفتها، وبعد مُضيِّ ثلاثين دقيقة فتح (أرسين لوبين) النافذة أكثر فاهتزت الستائر، استدار (لودوفيك) ولمح الستائر تنفتح بفعل الريح، فقام إلى النافذة ليغلقها، ودون ضجة، بقليل من الحركات المدروسة فقط استطاع

(أرسين لوبين) لفَّ الستارة حول رأسه وربطها بطريقة ما حيث يمنعه من رؤية وجه مهاجمه ثم أوثق قيده، أسرع إلى الخزنة، أخذ منها حافظتين ووضعهما تحت ذراعه ثم خرج من المكتب بسرعة هبط الدرج وعبر الفناء حتى وصل إلى الباب الخلفي للخدم، فتحه، وكانت هناك سيارة متوقفة تنتظره أمام البناية، قال للسائق:

- خُذْ هذا أولًا، ثم اتبعني.

عاد إلى المكتب مرة أخرى برفقة الرجل، أفرغا الخزنة على مرتين ثم صعد (أرسين لوبين) إلى غرفته، نزع الحبل الذي ربطه وأزال آثاره جيدًا.

بعد ساعات قليلة بدأ (أرسين لوبين) في إفراغ الحافظات مع رفيقه، لم يشعر بخيبة أمل كبيرة، فكما توقع لم تكُن ثروة الزوجين تستحق تلك الأهمية التي أوليت لهما، لم يكن عدد الملايين بالمئات ولا حتى العشرات، ولكن ما زال الحاصل النهائي رقمًا لا بأس به أبدًا، سندات في السكك الحديدية، وأخرى في قناة السويس، ومناجم ذهب الشمال وغيرها وغيرها، عبر عن رضاه قائلًا:

- بالتأكيد سيكون هناك خسارة كبيرة عند البيع، فسنواجه بعض المعارضات، وسنضطر لبيعها بسعر منخفض، بغض النظر عن كل هذا، فالآن سأتمكن من أن أحيا كما يحلو لي وأحقق بعض أمنياتي المؤجَّلة.

- وباقي المستندات؟

- يمكنك أن تحرقها يا عزيزي، تلك الأوراق كانت ذات قيمة وهي بالخزنة، أما الآن فليس لها أي قيمة، أما هذه السندات سنحتفظ بها بعناية حتى يتسنى لنا الانتفاع بها في الوقت المناسب.

في اليوم التالي وجد (أرسين لوبين) أنه لا يوجد سبب يمنعه من الذهاب إلى منزل (أمبيرت)، فعزم النية على الذهاب ولكنه حين تصفح الجريدة كشف هذا الخبر المفاجئ:

«لودوفيك وجيرفايز أمبيرت اختفيا».

فُتحت الخزنة على مرأى ومسمع الجمهور، وجد رجال الشرطة بداخلها ما تركه (أرسين لوبين)، وهي أشياء بسيطة لا تكاد تُذكَر.

هذه هي حقيقة الأمر، التفسيرات كما ذكرها (أرسين لوبين) نفسه؛ لأنه كان مشاركًا في بعضها، كان يومًا بمنزلي، يقطع مكتبي ذهابًا وإيابًا وعيناه محمرتان، كان منهمكًا في التفكير بشكل واضح، قلت له:

- كانت هذه بالتأكيد أفضل أعمالك.

أجابني دون إعطائي ردًّا مباشرًا:

- هناك بعض الأسرار التي لا يمكن تفسيرُها، حتى بعد الحقائق التي أعطيتها لك، ما زال هناك الكثير من الغُموض الذي يصعب تفسيره، لماذا الهرب؟ لماذا

لم يستغلا الفرصة التي أعطيتها لهما دون إرادتي، كان من الممكن أن يقولا: إن الخزنة كانت تحتوي على مائة مليون ولكنها سُرِقت بأكملها.

- لقد فقدا عقلهما.

- نعم، بالتأكيد، ومن ناحية أخرى فهذه هي الحقيقة.

- ما هي الحقيقة؟

- كلا، لا شيء.

ماذا يعني هذا الاضطراب المفاجئ والتردد الذي أصابه؟ لقد كان جليًّا أنه يضمر شيئًا ما في نفسه، وأن هذا الشيء ذو أهمية كبيرة ليجعل رجلًا مثل (أرسين لوبين) يتردد أو يمتنع عن الحديث بحرية، سألته متخبطًا:

- ألم ترهما مرة أخرى أبدًا؟

- كلا.

- ألم يخالجك شعور بالشفقة تجاههما؟

صاح بحدة تلقائية:

- أنا الذي أشفق عليهما؟!!

فاجأني رد فعله المنفعل هذا، هل ضربت على الحديد وهو ساخن؟ أكملت أؤكد كلامي لأحثه على الحديث:

- طبعًا! فبدونك كانا سيكملان أهدافهما ويتجنبا الخطر، أو على الأقل سيخرجان من هذا المأزق وجيوبهما ممتلئة.

- آه! تريد أن تجعلني أشعر بتأنيب الضمير؟

- ربما.

اقترب مني وضرب المكتب بعُنف بكلتا يديه قائلًا:

- أهذا ما يجب أن أشعر به إذن من وجهة نظرك؟

- تأنيب ضمير أو ندم تستطيع أن تسميه كما يحلو لك.

قال بنبرة ساخرة:

- أندم من أجل أشخاص.....

قاطعته قائلًا:

- أشخاص سلبتهم ثروتهم.

- أي ثروة تلك؟!

- الحافظات المالية التي كانت تحتوي على السندات الأجنبية والمحلية كلها.

- نعم! الحافظات المملؤة بالسندات المالية! أنا من جردتهما من هذه الثروة العظيمة! هذه جريمتي أنا إذن! لكن اللعنة! ألم تخمن يا صديقي العزيز بأن هذه السندات كانت مُزيَّفة؟ مزيفة بأكملها! هل تسمعني؟

حدقت به في ذهول:

- مزيفة! خمسة ملايين مزيفة؟

- نعم، مزيفة، كل تلك السندات لم يكن لها أي قيمة، لا تساوي فلسًا واحدًا، لم أخرج من تلك المهمة ببنسٍ واحدٍ، وأنت تسألني هل أشعر بتأنيب الضمير؟! هما من يتوجب عليهما أن يشعرا بذلك، لقد خدعاني وتبعتهما بحمق.

كان هناك غضب هائل يسيطر عليه كأنه نابع من شرخ قديم بكرامته:

- لقد خدعاني منذ اللحظة الأولى، هل تعلم يا صديقي ما هو الدور الذي جعلاني ألعبه في خطتهما منذ البداية؟ (أندريه بروفوت)! لقد وقعت في الفخ الذي نصباه لي بكل سذاجة، وقد أدركت كل هذا في وقت لاحق، من خلال مقالات الصحف وربط بعض الأمور والمشاهد ببعضها البعض، اكتشفت بأنهما لم يكونا محتفظين بمنقذهما الشجاع الذي أنقذ أحدهما من مخالب أحد قُطَّاع الطرق إلا لسبب وجيه، لقد كانا يُشيران إليَّ بأني (بروفوت)، أليس هذا عمل باهر الذكاء؟ هذا الرجل الذي يسكن لديهما ويقيم بالدور الثاني في عُزلة دائمًا، أنا! أنا (بروفوت)! وبفضل الثقة التي تصحبها سُمعة السيد (بروفوت) تمكنا من أخذ القروضِ من البنوك، وحثا بعض المحامين على إقناع عملائهما بإقراضهما الأموال أيضًا بِناءً على هذه السُّمعة الطيبة، ياله من درس قاسٍ لمُبتدئ مثلي! أقسم لك أن هذا الدرس قد أفادني كثيرًا فيما بعد.

توقَّف عن الحديث فجأة، ثم اقترب مِنِّي مُمْسكًا ذراعي بقوة وقال بنبرة غاضبة: ولكني ميزت ما بها من سخرية إلى حدٍّ ما، أخبرني بهذه العبارة التي لا أستطيع محْوَها من بالي أبدًا:

- الأدهى من ذلك، أن (جيرفايز أمبيرت) ما زالت تدين لي بخمسة عشر ألف فرنك حتى وقتنا هذا!

لم يسعني وقتها إلا الضحك، بدا الأمر وكأنه مُزحة، فشاركني الضحك بدوره أيضًا، أخذ يقهقه بصوتٍ مرتفع ثم أردف قائلًا:

- خمسة عشر ألف فرنك! بِغَضِّ النظر عن أني لم أحصل على سنت واحد من مرتبي، لكنها اقترضت مني أيضًا خمسة عشر ألف فرنك، كل مدخراتي تقريبًا عندما كنت شابًّا، وهل تعرف لماذا؟ حسنًا، من أجل الفقراء! نعم، صدِّقني، من أجل الفقراء الذين تساعدهم في الخفاء دون عِلْم زوجها، لقد كانت هذه حجتها وقتذاك، وقد استجبت لها، أليست قصة فكاهية إلى حدٍّ ما؟

لقد قامت امرأة بسَلْب (أرسين لوبين) خمسة عشر ألف فرنك حقيقية مقابل أنه سلبها أربعة ملايين مزيفة! بالإضافة إلى كل تلك المجهودات والتخطيطات والوقت الضائع للوصول إلى تلك النتيجة العظيمة.

إنها المرة الوحيدة التي خُدِعت فيها على مدار حياتي، لا بأس، لقد استحققت هذه الخسارة بالفعل، ولكني عوضتها بعد ذلك بثمن أغلى بكثير.

اللؤلؤة السوداء

رنَّ جرس الباب عنيفًا مُوقظًا حارسة العقار رقم ٩ في الحي السكني «هوش» فأسرعت تفتح البوابة وهي تتمتم قائلة:

- أعتقد أن كل البشر قد عادوا إلى منازلهم، إنها الثالثة صباحًا على الأقل.

تذمر زوجها قائلًا:

- ربما هي زيارة عاجلة للطبيب.

وبالفعل انطلق صوت سائلًا بعصبية:

- دكتور (هايل)، في أي طابق من فضلك؟

- الثالث على اليسار، ولكن الطبيب لا يعمل في هذا الوقت.

- سيتوجب عليه أن يزعج نفسه قليلًا.

عبر الرجل الردهة، وصَعِد الطابق الأول ثم اثنان آخرانِ، لكنه لم يتوقف عند الطابق الثالث عند دكتور(هايل)، أكمل حتى وصل إلى الطابق الخامس، أخرج مفتاحين، جرَّب الأول، فانفتح الباب ببساطة ثم تمتم قائلًا:

- يا للروعة! من أبسط المهام على الإطلاق، لكن قبل المغادرة عليَّ تأمين نفسي، لنرى، هل يعدُّ هذا وقتًا كافيًّا لأكون قد قرعت جرس الطبيب وقام بطردي؟ لا، ليس بعد، فلنصبر قليلًا.

وبعد عشر دقائق تقريبًا هبط إلى أسفل وارتطم بباب غرفة البواب متذمرًا من الطبيب، فتح البواب له باب البناية وصَفَعَه خلفه بإهمال موليًّا ظهره، لكن هذا لم يغلق الباب تمامًا، فقد أسرع الرجل قبلها بوضع قطعة حديدية طويلة تحُول بين الباب ولسان القفل حتى لا يُغلق، وبعد قليل عادَ بهدوء إلى الداخل دون عِلْم البَوَّاب، صعد الطابق الخامس بسلام ودخل إلى غرفة الانتظار الخلفية، على ضوء المصباح الكهربائي ألقى معطفه وقبعته على أحد الكراسي وجلس على آخر، واستبدل حذاءه الجلدي الطويل بخُفٍّ منزلي من الصوف السميك.

- أوف! يا إلهي! أهذا كل شيء؟ أحيانًا أتساءل لماذا لا يختار الجميع وظيفة اللص المريحة، فقط القليل من التفكير والمهارة، لا يوجد شيء أكثر سِحْرًا من هذا، فهي وظيفة هادئة، تُناسب ربَّ أسرة، سهلة جدًّا حد الضجر.

ثم أخرج خريطة مُفصَّلة للشقة متفحصًا إياها.

- طبقًا للخريطة أنا في الردهه المثلَّثة الآن، على جانب الشارع يوجد الصالون والمخدع وغرفة السفرة، من غير المجدي إضاعة الوقت بالوقوف هنا، من الواضح أن الكونتيسة لديها ذوق رفيع، وليس فقط مُجرَّد جوهرة للزينة؛ لذا فلنذهب إلى الهدف مباشرةً، آه! هنا مدخل الممر، هذا الممر يقود إلى الغرف، على بُعْد ثلاثة أمتار يجب أن أجد باب خزانة الملابس المرتبطة مباشرةً

بغرفة الكونتيسة.

طوى خريطته وأطفأ المصباح، وبدأ بالمشي في اتجاه الممر وهو يعد الخطوات، متر.. متران.. ثلاثة، هذا هو الباب، كل شيء مخطط بدقة.

- يا إلهي! مزلاج صغير فقط يفصلني عن غرفة النوم، والأدهى أنني أعلم أن هذا المزلاج يرتفع مترًا ونصف المتر فوق الأرض، فبالحفر البسيط حوله يمكنني التخلص منه بسهولة.

أخْرَجَ من جيبه الأدوات اللازمة، وفجأة طرأت في رأسه فكرة أزعجته:

- ماذا لو لم يُنتزع هذا المزلاج؟ لا بد من المحاولة، فالأمر يستحق العَناء.

أدار بهدوء المزلاج ففتح الباب.

- (لوبين) أيها الشجاع! فالحظ حليفك دائمًا، ماذا سوف تفعل الآن؟ أنت تعرف تفاصيل هذا المكان وتعرف المخبأ السري الذي تخفي به الكونتيسة اللؤلؤة السوداء، فعليك أن تتصرف بمهارة، تتفوق بهدوئك على الصمت، وتصبح غير مرئي أكثر من عتمة الليل لتحصل في النهاية على جوهرتك الثمينة.

قضى (أرسين لوبين) نصف ساعة كاملة لفتح الباب الثاني، وهو باب زجاجي يطل على غرفة نوم الكونتيسة، ولكنه في النهاية فتحه بدقة فائقة، فحتى لو لم تكن الكونتيسة نائمة لا يمكن أبدًا لهذا الصرير الخافت أن يُقلقها.

وفقًا لخطته كان عليه المشي بمحازاة الأريكة، التي تقوده بدورها إلى كرسي كبير بذراعين، ثم إلى منضدة صغيرة بالقرب من السرير، على هذه المنضدة صندوق صغير يحتوي رسائل البريد، مخبأ بداخله اللؤلؤة السوداء بكل بساطة.

جثى بركبتيه على السجادة وتتبع الأريكة، ثم توقف لتهدئة ضربات قلبه العنيفة، على الرغم من عدم وجود شيء يفزعه ولكن من الصعب التحكم في مثل هذا النوع من التوتر الذي يصيبنا في وجود مثل هذا الصمت المُخيف، وقد فاجأه هذا التوتر لأنه مرَّ بلحظات أكثر رهبة دون أي عاطفة تذكر، لا خطر يهدده الآن فلماذا إذن ينبض قلبه بهاذا العنف مثل الناقوس؟

أمن الممكن أن يكون تأثر بحضور هذه المرأة النائمة إلى هذا الحد؟ تابع إيقاع تنفسه محاولًا تنظيمه قليلًا، ثم مدَّ يده يبحث عن الكرسي الكبير زاحفًا إلى المنضدة بحركات صغيرة، حتى لامَسَ ذراعه الأيمن إحدى أرجل الطاولة، لم يبقَ سوى أن ينهض ليأخذ اللؤلؤة ويذهب بعيدًا، لكن بسبب قلبه الذي بدأ في القفز داخل صدره مرة أخرى مثل وحش هائج؛ وبوجود مثل تلك الضوضاء بدا له من الصعب ألَّا تستيقظ الكونتيسة.

نجح في تهدئة نفسه بإرادة مدهشة، ولكن بينما كان يحاول النهوض اصطدمت ذراعه اليسرى بشيء ما على السجادة، وقد تعرف عليه فورًا، شمعدان نحاسي مقلوب، وبجواره شيء آخر أيضًا، ساعة صغيرة من تلك

التي تستعمل في أثناء السفر لها غطاء جلدي، ما هذا؟ ما الذي يحدث؟ هذا الشمعدان وهذه الساعة! لماذا تلك الأشياء مُلقاة هكذا على الأرض وليست في مكانها المعتاد؟ ترى ماذا حدث في أثناء عتمة الليل هذه؟

وفجأة أفلتت منه صرخة فزع، لقد لامَسَ شيئًا ما، شيء غريب اقشعر له بدنُه، ولكن لا، لا، لقد أرْبَكَهُ الخوف ليس إلا، مرت عشرون ثانيةً ظل ثابتًا مُرتعبًا يتساقط العرق البارد فوق صدغيه، لقد احتفظت أصابعه بإحساس هذه اللمسة، وبجهد بالغ مَدَّ يده المرتجفة ليتفحص هذا الشيء الغريب مرة أخرى، شعْر، وجْه، جسَد بارِد حد التجمد، بقدر ما كان الأمر مرعبًا لكنَّ رجلًا مثل (أرسين لوبين) اعتاد على السيطرة على أي موقف يوضع به فور إدراكه؛ لذلك أضاء مصباحه بسرعة، كانت أمامه جثة امرأة مُلقاة على الأرض مُلطَّخة بالدماء، جسدها مشوه بجروح مروعة على الكتفين والرقبة، انحنى فوقها قليلًا ليتفحصها، كانت مقتولة:

- قُتلت، قُتلت! كرر مفزوعًا وهو ينظر إلى عينيها المحدقتين وفمها المُطبق، جسدها المتيبِّس الأزرق، كل هذا الدم الذي تجمد فوق السجادة، نهض مُسرعًا، أدار مفتاح الكهرباء فغمر الضوء الغرفة بأكملها، تمكن من رؤية آثار صراع شرس، السرير مُخرب بأكمله، البطانيات والشراشف مُمَزَّقة، الشمعدان والساعة على الأرض، وعقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقةً، كرسي مقلوب وبُقَع دماء لزجة في كل مكان، تمتم لنفسه: اللؤلؤة السوداء!

صندوق الخطابات في مكانه، فتحه بسُرْعة، وَجَدَ بداخله علبة الحلي الصغيرة ولكنها فارغة!

تمتم في غضب:

- اللعنة! لقد تفاخرت بنفسك مبكرًا عزيزي (لوبين)، الكونتيسة مقتولة، الجوهرة مفقودة، الوضع مُزْرٍ هنا، فلتهرب مُسرعًا قبل أن تتحمل مسئولية هذه الفوضى العارمة.

لكنه لم يبرح مكانه، أخذ يُحدِّث نفسه:

- أهرب؟ جبان آخر سوف يهرب مسرعًا، لكن (أرسين لوبين) لا يستطيع، لا بد من إدراك الحقيقة، فلنتمهل قليلًا ونعيد ترتيب المشهد مرة أخرى ليرتاح بالي، فلأفترض أنني رجل شرطة وجب عليه التحقيق، هذا الأمر يتطلب صفاءً ذهنيًّا، ولكني في حالة مُزرية.

ألقى بجسده على الكرسي الكبير واضعًا كلتا يديه حول جبهته الساخنة.

أثارت قضية شارع «هوش» جدلًا كبيرًا في الآونة الأخيرة، لم تكن لتحدث مثل هذه الضجة لولا إقحام اسم (أرسين لوبين) في الأمر، فالبعض يشك في تورطه، فمن لا يعرف المغنية القديمة (ليونتين زالتي) أرملة (كونت أنديلود)،

الذي أبهر ترفه باريس بأكملها، وأحدثت جواهرها المرصعة بالألماس ومجوهراتها التي لا تعد ولا تحصى صيتًا واسعًا في أوروبا بأكملها منذ قرابة عشرين عامًا؟ كان يقال إنها تحمل فوق أكتافها وحول رقبتها ثروة تعادل الكثير من خزائن البنوك المختلفة، وما تنتجه أعظم مناجم ذهب الشركات الأسترالية، كان يعمل لدى (آل زالتي) أعظم صناع المجوهرات، الذين كانوا يخدمون فيما مضى الأمراء والملوك، ومن أيضًا لا يتذكر تلك الكارثة حيث زالت كل تلك الثروة؟ ابتلعت الهاوية كل شيء، ومن بين تلك المجموعة الرائعة من التحف والمجوهرات التي بِيعت في المزاد العلني احتفظت الكونتيسة باللؤلؤة السوداء الشهيرة، فهي وحدها تعادل ثروة ضخمة عند بيعها أو التخلص منها، وهذا ما لم تكن ترغب فيه أبدًا، ففضلت أن تنعزل وتعيش في شقة بسيطة برفقة طباخها وخادمتها، بدلًا من أن تفرط في هذه الجوهرة الثمينة التي لا تُقدَّر بثمن، كل هذا لسبب لم تكن تريد الإفصاح عنه، هذه الجوهرة السوداء كانت هدية قيمة من إمبراطور ما، حتى لو أفلست وتحوَّلت حياتها إلى أكثر الأوضاع بؤسًا، ستبقى وفِيَّة إلى رفيق ذكريات أيامها الخوالي، دائمًا كانت تردد:

- ما دمت على قيد الحياة، فلن أتركها تضيع مني أبدًا.

كانت ترتديها من الصباح للمساء، وعند النوم كانت تضعها في مكان لا يعرفه غيرها، كل هذه الوقائع التي تداولتها الصحف العامة أثارت الفضول، قضية غامضة ومستعصاة الفهم إلا على أولئك الذين يجيدون حل الأحجية.

أُلقِي القبض على المتهم المزعوم؛ مما زاد هذا الخبر اللغز غموضًا وأربك الجمهور، فبعد يومين نشرت الصحف الخبر التالي:

«لقد أُلقي القبض على (فيكتور دانيجر) خادم كونتيسة (أنديلوت) بتهمة قتلها، فقد وُجِدت بقع دماء جافة على زيه الخاص بالعمل، والذي وجده السيد (ديدوا) في حجرته العلوية بين ألواح السرير الخشبية والمرتبة، بالإضافة إلى أن هذه السترة ينقصها زر مغطى بالقماش، وقد وُجِد هذا الزر تحت سرير الضحية، من المحتمل أن في تلك الليلة وبعد تناول العشاء بدلًا من أن يصعد (دانيجر) إلى غرفته العلوية، تسلل خلسة إلى خزانة فساتين الكونتيسة ومن خلال الباب الزجاجي رأى الكونتيسة وهي تخفي اللؤلؤة.

يجب التنويه على أنه لم يأتِ إلينا أي دليل يدعم هذه الفرضية، على كل حال بقيت هناك نقطة أخرى غامضة، ففي الساعة السابعة والنصف صباحًا ذهب (دانيجر) إلى متجر التبغ بضاحية (كورسول) بِناءً على شهادة البواب وبائع التبغ، من ناحية أخرى أكدت طباخة الكونتيسة ووصيفتها، وكلتاهما ينامان في غرفة آخر الرواق، أنهما عندما استيقظتا في الثامنة صباحًا كان باب المنزل والباب الخلفي للمطبخ أيضًا مغلقين بالمفتاح، ولمدة عشرين عامًا كانت هاتان السيدتان تعملان في خدمة الكونتيسة، فهما فوق مستوى الشُّبهات تمامًا؛ لذا نتساءل: كيف خرج (دانيجر) من الشقة؟ هل كان لديه نسخة من المفاتيح؟

نعتمد على التحقيقات لتوضيح حقيقة هذه الأقوال المتضاربة.

وعلى عكس ما كنا نتوقع لم تستطع التحقيقات تفسير أي شيء، فقط بعض المعلومات حول (دانيجر)، علمنا أنه مجرم خطير سيئ الخلق، مدمن على الكحول والبغاء، لا يستبعد عنه القيام بطعنة سكين أو سرقة، ولكن القضية نفسها كلما درسناها أكثر وجدناها محاطة بغموض وتناقضات صعبة التفسير.

أولًا، أعلنت آنسة شابة من «سنكليف»، وهي ابنة العم والوريثة الوحيدة للضحية، أن الكونتيسة قبل شهر من قتلها، باحت لها في إحدى الرسائل عن المكان الذي تخفي به اللؤلؤة، وفي اليوم التالي لتلقيها هذه الرسالة اكتشفت اختفاءها أو بالأحرى سرقتها، من فعل ذلك؟

أما البواب وزوجته، فقد أكدا على أنهما فتحا الباب لشخص ما صعد إلى الدكتور (هاريل)، والذي بدوره أكد أن ما من شخص قرع جرس بابه مطلقًا، إذن من كان هذا الشخص؟ أيكون شخصًا متواطئًا مع (دانيجر)؟ تبنى الجمهور نظرية الجريمة المشتركة هذه ممن يتابعون تطورات القضية، كما دعمها أيضًا (جانيمار) كبير المحققين دون سبب واضح، مُعلنًا للقاضي شكوكه بوجود (أرسين لوبين) في هذه الجريمة، وقد رد عليه القاضي قائلًا:

- تراه في كل مكان (لوبينك) هذا!

- أراه في كل مكان لأنه بالفعل في كل مكان!

- بل قل إنه يقفز في ذهنك فقط عندما يستصعب عليك فهم لغز ما، بالمناسبة عليك الأخذ في الاعتبار أن الجريمة تمت في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة مساءً، بينما زيارة الرجل الغامض الذي أقرها البواب لم تحدث إلا في الثالثة صباحًا.

غالبًا ما تتبع العدالة هذه الإدانات التي توجهنا إلى التفسيرات المنطقية الأولى، فالتاريخ المؤسف لـ(دانيجر)، المجرم الفاسق السكير، أثر في القاضي، فبالرغم من عدم حدوث أي مجريات جديدة تُدعم الأدلة الأولي التي وُجدت، لا شيء استطاع ثنيه عن اقتناعه.

استكملت التحقيقات وفي غضون أسابيع قليلة بدأت المرافعات. كانت المحاكمة مُحاطَة بالغموض، يقودها القاضي بحماسٍ فاترٍ، بينما بدأ رئيس النيابة الهجوم بهدوء، في البداية لعب محامي (دانيجر) دورهً جيدًا، حيث أظهر أوجه القصور في الأدلة، فلا يوجد أي دليل مادي يُدِين موكله، من نسخ المفتاح؟ أين مفتاح باب المنزل الذي لا يمكن بدونه لـ(دانيجر) أن يوصد باب الشقة مرتين بعد خروجه؟ أين يوجد هذا المفتاح؟ من رأى سكين القتل؛ أداة الجريمة؟ أين هي الآن؟

في الختام أنهى المحامي كلامه قائلًا:

- إن موكلي هو من قُتِل بنسب مثل هذه القضية البشعة إليه، في حين أن من

ارتكب جريمة السرقة والقتل هذه لم يكن سوى هذا الشخص الغامض الذي صعد في الثالثة صباحًا، عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة؟ ما الغريب في هذا؟ ألا يستطيع أي منا تغيير عقارب الساعة إلى الوقت الذي يريد؟

بعد هذه المرافعة واستنادًا إلى هذا الدفاع العريض، أُطلِق سراح (فيكتور دانيجر).

وفي أمسية من إحدى ليالي الجمعة، خرج (دانيجر) من السجن بعد ستة شهور أمضاها في عُزْلة واكتئاب شديد داخل إحدى الزنزانات الفردية، قوانين السجن الصارمة، المرافعات، الوحدة، جلسات استماع هيئة المُحلِّفين، كل هذا ملأه بخوفٍ مَرَضِيٍّ، ففي الليل تطارده كوابيس مروعة عن منصة الإعدام، كان يرتجف من الحُمَّى والرعب، استأجر غرفة صغيرة فوق أحد مرتفعات «مونمارت» تحت اسم مستعار (أناتوه دوفو)، وبدأ في اكتساب رزقه من بعض الحِرَف العشوائية، ولسوء حظه العاثر تعرف عليه ثلاثة رؤساء عمل في أماكن مختلفة ففُصِل على الفور مرة بعد أخرى.

غالبًا ما كان يشعر أن أحدًا ما يتبعه، أحد رجال الشرطة أو المُخبرين بالتأكيد، من هؤلاء الذين لم ييأسوا من محاولة إيقاعه في فخٍّ ما؟ لقد كان يتوقع في أي لحظة أن يلقى هذا الكف القاسي على كتفه، ويُقاد من قميصه مرة أخرى إلى الزنزانة.

في إحدى الأمسيات بينما كان يتناول عشاءه في أحد المطاعم المحلية، جلس شخص ما في مواجهته، رجل في الأربعينيات من عمره يرتدي معطفًا أسود غاية في الأناقة، طلب حساءً وطبقًا من السلطة ولترًا كاملًا من النبيذ الفخم.

وأثناء تناوله الحساء، رفع عينيه ناحية (دانيجر)، وأخذ يتأمله بنظرة مُتفحِّصة، شحب لونه، بالتأكيد كان هذا الشخص أحد هؤلاء الذين يتبعونه منذ أسابيع، ماذا يريد منه؟ حاول أن ينهض ليغادر ولكنه لم يستطع القيام بأي حركة، بدأت يده ترتعش وأحس بتوتر شديد، سكب الرجل النبيذ في كأسه ثم ملأ كأس (دانيجر) قائلًا:

- فلتشرب يا صديقي.

تلعثم (فيكتور) قائلًا:

- نعم، نعم في صحتك.

- في صحتك أنت يا (فيكتور دانيجر).

انتفض من مكانه قائلًا:

- أنا؟ لكن أقسم أنني لست...

- تُقسم بماذا؟ بأنك لست خادم الكونتيسة؟

- خادم مَنْ؟ اسمي هو (دارفور)، بإمكانك سؤال المدير.

- (أناتول دارفور)، صحيح، هذا ما يعلمه المدير، ولكن القضاء يعرفك باسم (فيكتور دانيجر).

- غير صحيح، غير صحيح بالمرة لقد خدعوك.

أخرج الرجل من جيبه كارتًا شخصيًّا وأعطاه لـ(فيكتور)، الذي قرأه مرتجفًا:

- (غريماودان)، مفتش سابق في الأمن قسم المعلومات السرية، ثم تمتم سائلًا، هل أنت شرطي؟

- لم أعد كذلك، لكني أحب مهنتي وأكملها بطريقة أكثر رِبحًا، أميط اللثام من وقت لآخر عن بعض القضايا، وأعقد بعض الصفقات الذهبية مثل خاصتك هذه؟

- خاصتي؟

- نعم، صفقة ذهبية إذا أردت أن توليها بعض الاهتمام.

- وإن لم أكن أرغب؟

- سوف ترغب، أنت في موقف لا يمكنك فيه رفض أي شيء.

توجَّس خِيفةً ثم سأل:

- أي موقف، تكلم أرجوك؟

- حسنًا، لنُنْهِ هذا الأمر في كلمتين، أنا مُرسل إليك من قِبل الآنسة (سنكليف).

- (سنكليف)؟!

- الوريثة الشرعية الوحيدة للكونتيسة (أنديلوت).

- وماذا بعد؟

- لقد أولتني مهمة استرداد اللؤلؤة السوداء منك.

- اللؤلؤة السوداء؟

- نعم، تلك التي سرقتها.

- لكنها ليست لديَّ.

- لديك.

- لو كانت لديَّ، إذن فأنا القاتل.

- نعم، أنت القاتل.

بذل (دانيجر) جهدًا ليضحك ضحكة ساخرة:

- لحُسْن الحظ سيدي العزيز، لم تكن محكمة الجنايات لها نفس الرأي، فهيئة المُحلفين بأكملها وجدوني بريئًا كما سمعت، لا بد أن يكون لدينا احترام وثقة لقرار اثني عشر رجلًا من القضاة النبلاء.

أمسك المحقق بذراعيه في صرامة قائلًا:

- لا مزيد من الكلام، اسمعني جيدًا وانتبه لهذا الحديث فلن أُكرِّره، قبل ثلاثة أسابيع من ارتكاب الجريمة، سرقت من المطبخ مفتاح الباب الخلفي وصنعت نسخة فيه عند محل «أوتارد» للأقفال ٢٤٤ شارع «أومبيركف».

صاح (دانيجر) بِحِدَّة:

- غير صحيح، لا وجود لهذا المفتاح أبدًا، لم يرهُ أحد.

- ها هو.

بعد فترة صمت استغرقها (دانيجر) محدقًا بالمفتاح، استأنف (غاريماودان) قائلًا:

- لقد قتلت الكونتيسة بسكين صغير اشتريته من سوق الجمهورية في نفس اليوم الذي صنعت به نسخة المفتاح، سكين صغير به فص مُثلث ويده مُفرغة.

- يا لها من مزحة، تتحدث بعشوائية مطلقة، لم يرَ أحد هذا السكين أبدًا.

- ها هو.

رجع (دانيجر) إلى الخلف مستندًا برأسه إلى الحائط، بينما أكمل المحقق قائلًا:

- توجد عليه بُقع من الصدأ، أتريد أن تخبرني من أين أتت؟

- ماذا الآن!! بحوزتك مفتاح وسكين، من يستطيع إثبات أنهما لي؟

- صانع الأقفال أولًا وبائع السكاكين ثانيًا، لقد نجحت بالفعل في تنشيط ذاكرتها، فلن يخفقا أبدًا هذه المرة في التعرف عليك.

كان يتحدث بِحِدَّة وثقة مرعبة، وجد هذا الرعب طريقه إلى (دانيجر)، فلم يدقق القاضي ولا المحامي ولا المدعي العام في هذا الأمر عن كثب مثل هذا الرجل، تلك الأشياء التي لم يعرها هو نفسه الكثير من الاهتمام، وبالرغم من ذلك استمر في تمثيل دور اللامبالاة والإنكار.

- إذن هذه هي كل الأدلة التي لديك؟

- بقيت هذه الأخيرة، لقد غادرت بعد الجريمة بنفس الطريقة التي دخلت بها، ولكن بعد ارتكابك للجريمة وقفت في منتصف الخزانة مرتعبًا، فكان عليك الاتكاء على الحائط للحفاظ على توازنك.

تلعثم (دانيجر) قائلًا:

- كيف علمت بذلك؟ لا يمكن لأحد معرفة هذه الفعلة!

- نعم، في أثناء التحقيقات لا يمكن أن يخطر ببال أي من سادة القانون هؤلاء أن يضيء شمعة ويتفحص الجدار، ولكن لو قام أحد بذلك لوجد على ورق الحائط الأبيض بقعة حمراء فاتحة ولكنها واضحة للغاية، حتى إنه يمكننا رؤية بصمة إبهامك بينما كان مبللًا بالدم، ولا يغيب عنك طبعًا أنه في القسم الجنائي تُعدُّ هذه أحد أهم وسائل تحديد الهوية.

- كيف؟ كيف ذلك؟

كان يتلعثم بينما سالت قطرات العرق من جبينه على الطاولة، أخذ يحدق بعيون ملؤها الغل إلى هذا الرجل الغامض الذي تحدث عن جريمته وكأنه شاهد غير مرئي، نكس رأسه مهزومًا عاجزًا، لمدة شهور ظل يحيا مجاهدًا ضد الجميع، ضد هذا الرجل ها هنا وأمثاله، راوده شعور باليأس فلا شيء يمكنه فِعْلُه الآن.

ثم سأل بصوتٍ مرتجف:

- لو أعدتُ إليك اللؤلؤة كم ستدفع؟

- لا شيء.

- ما هذا؟ أتهزأ مني؟ أعطيك شيئًا قيمته آلاف بل مئات الآلاف بلا مقابل؟!

- هذه هي الحياة.

ارتجف (دانيجر) حانقًا، بينما أضاف (غاريمادوان) بنبرة رقيقة نوعًا ما:

- هيا يا (دانيجر)، فهذه اللؤلؤة ليس لها أي قيمة بالنسبة لك، أنت لا تستطيع بيعها أو الانتفاع بها بأي شكل، فما فائدة الاحتفاظ بها؟

- هناك تجار السلع المسروقة، ففي يوم ما سأتمكن من بيعها بأي ثمن.

- في يوم أو آخر سيكون الوقت قد فات.

- لماذا؟

- لماذا؟ لأن العدالة ستتمكن منك هذه المرة مع الدليل الذي سأقدمه ضدك، السكين والمفتاح وبصمة الإبهام، أنت مُنْتَهٍ يا رجلي الطيب!

أحاط (فيكتور) رأسه بكلتا يديه وأخذ يُفكِّر، شعر بالضياع، ضياع كلي لا يمكن الفرار منه، وفي نفس الوقت إنهاك شديد وحاجة هائلة إلى التخلي.

همس بقلة حيلة:

- متى تحتاجها؟

- الليلة قبل الواحدة.

- وإلا؟

- بخلاف ذلك سأضع بالبريد هذه الرسالة التي تدينك فيها الآنسة (سنكليف) إلى المدعي العام.

سكب (دانيجر) كأسين من النبيذ أفرغهما في جوفه بسرعة، ثم نهض قائلًا:

- ادفع الحساب وهيا بنا، لقد اكتفيت من هذا الأمر اللعين بأكمله.

أسدل الليل ستائره بينما سار الرجلان باتجاه شارع «لوبيك» متخذينِ طريق الضواحي الصغيرة في شارع «إيليوت»، كانا يسيران صامتين، (دانيجر) متحسرًا مُنحنيًا، وعندما أدركا منتزه «هوسو» قال:

- إنها بجانب المنزل.

- بكل تأكيد فأنت لم تخرج قبل اعتقالك إلا لتذهب لمتجر التبغ.

قال (دانيجر):

- ها نحن هنا.

سارا بامتداد بوابة الحديقة، وعَبَرا الشارع، وأمام ناصية متجر التبغ توقف (دانيجر)، كانت ساقاه تترنحان وقد خارت قُواه، وانهار على أحد المقاعد، سأله المحقق:

- ماذا بعد؟

- ها هنا.

- ها هنا! ماذا تقول؟

- إنها هنا أمامنا.

- أمامنا!! ثم صاح منفعلًا: تكلم يا (دانيجر) وكُفَّ عن هذا الهراء فورًا.

- سوف أكرر لك إذن إنها هنا.

- أين؟

- بين صخرتي الرصيف.

- أيهما؟

- ابحث.

صاح يكرر:

- أقول لك أيهما؟

لم يرد (فيكتور)، فاستأنف (غاريمادوان):

- أوه! تريد أن أرديك صريعًا يا رجل، أليس كذلك؟

- لا، لن أموت إثر ضربك ولكني سأموت من البؤس.

- إذن تبتزني، سأكون كريمًا معك، كم تريد؟

- ما يكفي ثمن تذكرة الباخرة للذهاب إلى أمريكا.

- اتفقنا.

- وورقة فئة المائة للمصاريف اللازمة للسفر.

قال بنفاد صبر واضح:

- لك مائتان، هيا أخبرني.

- عد الأحجار المرصوفة على يمين المجاري، إنها بين الحجر الثاني عشر والثالث عشر.

- عند جرف المياه؟

- نعم، أسفل الرصيف.

التفت (غاريمادون) حوله عدة مرات، مرَّ الترام والكثير من الناس، لا يستطيع أحد أن يشك.

فتح مطواة جيبه، وضعها بين حجري الرصيف الثاني عشر والثالث عشر.

- ماذا لو لم تكن هناك؟

- إن لم يكن أحد تبعني وقام بإخراجها فإنها ما تزال في مكانها.

- ما مدى عُمقها؟

- عشرة سنتيمترات تقريبًا.

حفر بحذر بطرف السكين في الرمل الرطب، ارتطم شيء بالسكين فأخذ يوسع الحفرة بأصبعه حتى رأى شيئًا يلمع، رأى اللؤلؤة السوداء، فالتفت ناحية (دانيجر) وقال بسرعة:

- خذ هذه هي المائتي فرنك، سأرسل لك تذكرة السفر إلى أمريكا قريبًا.

وفي اليوم التالي نشرت صحيفة «إيكو دي فرانس» هذا المقال القصير، والذي أُعِيد نشرُه في كل الصحف حول العالم:

«البارحة وقعت اللؤلؤة السوداء في قبضة (أرسين لوبين)، حيث استولى عليها من قاتل الكونتيسة (أنديلوت)، وخلال فترة قصيرة ستُعرض نسخ طبق الأصل من هذه الجوهرة الفريدة في لندن وسانت بطرسبرغ وكلنكا وبونيس أرييس ونيويورك، سيتلقى (أرسين لوبين) العروض التي سيقترحها عليه مراسلوه من راغبي الجوهرة».

- هذه هي الطريقة المثلى لمعاقبة الجريمة دائمًا ومكافأة الفضيلة.

اختتم (أرسين لوبين) كلامه بهذه الجملة عندما كشف لي خفايا هذه القضية، فتحت اسم (غريمادوان) المحقق السابق اختار القدر (أرسين لوبين) لمنع المجرم من الإفلات بجريمته.

ثم أضاف:

- عليَّ الاعتراف بأن هذه واحدة من أكثر المغامرات التي شعرت بالفخر بها، فالأربعون دقيقةً التي قضيتها في شقة الكونتيسة بعد قتلها تُعدُّ من أكثر الأوقات المهيبة في حياتي، بقيت لمدة أربعين دقيقة متورطًا في أكثر المواقف المُعقَّدة، قمت بإعادة ترتيب خطوات الجريمة، وبواسطة بعض الدلائل تأكدت أنه لا يمكن أن يكون القاتل سوى خادم الكونتيسة، فتوصلت في النهاية إلى أنه من أجل الحصول على اللؤلؤة السوداء، كان لا بد من القبض على هذا الخادم، فاختلست زرًّا من صدريته وتركته تحت السرير، وكان لا بد من إخفاء أي أدلة تثبت إدانته، فرفعت السكين المنسي من على السجادة، وكذلك نسخة المفتاح أيضًا، ثم محوت آثار البصمات من على حائط الخزانة، وكانت هذه من أهم الومضات العبقرية التي دلتني على القاتل، ثم لا بُدَّ بعد ذلك من تنفيذ القسمين الأهم في حل القضية وهما الاعتقال ثم البراءة، استخدام القانون لإخراج رجلي من السجن ثم مراقبته، أضعه في حالة من الحرية بعض الوقت قبل إيقاعه ببساطة في الفخ الذي نصبته من أجله.

- يا له من غِرٍّ مسكين!

- مسكين! فيكتور دانيجر! ألم تأخذ في اعتبارك أنه قاتل؟ بل ومن بجاحته أبقى اللؤلؤة معه كل هذا الوقت، عليه أن يحمد الرب أنني أبقيته على قيد الحياة.

- واللؤلؤة السوداء بحوزتك؟

أخرجها من أحد الجيوب السِّرِيَّة في محفظته، أخذ يتفحصها جيدًا وهو يديرها بين أصابعه ناظرًا إليها بانبهار، ثم تنهَّد قائلًا:

- من هو النبيل الروسي الذي سيمتلك هذا الكنز؟ إلى أيِّ ملياردير أمريكي يمكن أن تذهب قطعة الجمال الصافي هذه؟ التي كانت يومًا ما تُزيِّن الأكتاف البيضاء لـ(ليونتين زالتي)، كونتيسة (أنديلوت).

(شارلوك هولمز) يصل متأخرًا

- غريب جدًّا هذا الشبه الذي يجمعك بـ(أرسين لوبين) يا (فيلمونت)!

- هل رأيته حقًّا؟

- أوه! ليس تحديدًا، رأيته مثل أي شخص آخر، من خلال صوره الفوتوغرافية، لا يوجد صورة مماثلة للأخرى، ولكن كل منهما يعطي انطباعًا عن ملامح متطابقة

تقريبًا والتي تُشبه ملامحك.

بدأ (هوراس فيلمونت) مُستاءً إلى حد ما ولكنه رد بفتور:

- أليس كذلك عزيزي (ديفان)؟ صدقًا لست أنت أول من أشار إلى ذلك.

- أنا على صواب إذن، فلو لم تكن أنت الرسام الشهير الذي أبهرتني لوحاته بمناظرها الطبيعية الساحرة، ولو لم تكن مُرشحًا من قِبَل ابن عمي (ستيفان) لكنت قد أبلغت عنك رجال الشرطة بأنك موجود في «دبيب».

لقيت هذه المزحة ضحكات صاخبة، فقد كان هناك في غرفة الطعام بقصر «تيمبير ميسنيل» إضافة إلى (فيلمونت)، (جيليس) كاهن الدير ودستة من الضباط الذين كانوا يقومون ببعض المناورات بالجوار، وقد استجابوا لدعوة المصرفي (جورج ديفان) ووالدته، سأل أحدهم:

- ولكن ألم يُقبض على (أرسين لوبين) بعد واقعته الشهيرة على متن الباخرة من باريس إلى نيويورك؟

- هذا صحيح، منذ ثلاثة أشهر تقريبًا، وبعدها بأسبوع تعرفت على (فيلمونت) الرائع هذا في الكازينو، والذي شرفني من حين لآخر بزيارات خاطفة تمهيدًا لزيارة منزلية طويلة.

ضحكنا مرة أخرى ثم دخلنا صالة الاجتماعات القديمة، غرفة كبيرة جدًّا ذات سقف مرتفع، تشغل الجزء السفلي بأكمله من برج «غيوم»، حيث جمع جورج ديفان ثروته العظيمة التي تراكمت على مر القرون، أملاك «آل تيمبير ميسينيل»، مزينة بالخزانات والبوفيهات والشمعدانات والكراسي العملاقة، تتدلى على جُدرانها السجاجيد المُعلَّقة بين النوافذ الأربعة الزجاجية تلك المُصمَّمة على الطراز القوطي بنقوشات ملونة مؤطرة بالرصاص؛ بين الباب والنافذة على اليسار توجد مكتبة ضخمة ترجع لعصر النهضة، على قمتها نستطيع قراءة «تيمبير ميسينيل»، مكتوبة بحروف ذهبية وتحتها شعار العائلة الشهير «عِشْ كما تريد».

عندما أشعلنا السيجار، عاود (ديفان) حديثه مجددًا:

- فقط أسرع يا (فيلمونت)، إنها آخر ليلة تقضيها هنا.

- لماذا؟ ردَّ الرسام مُصِرًّا على استكمال الحديث في إطار المزاح.

كان (ديفان) على وشك الردِّ لولا إشارة من والدته، لكن رغبته في إثارة الاهتمام تغلَّبت عليه فواصل حديثه:

- يمكنني التحدث الآن بجرأة فلم يعد البوح يقلقني.

جلسوا ينظرون إليه بفضول شديدٍ، فقال وقد تملكته بهجة شخص يعلن عن خبر ضخم:

- غدًا في تمام الساعة الرابعة مساءً، (شرلوك هولمز) المحقق الإنجليزي الشهير الذي لا يستعصي عليه أمر، من فك رموز أغرب الألغاز التي سمعنا عنها على الإطلاق، الشخصية المدهشة التي تبدو وكأنها مستوحاة من خيال روائي ماهر، سيكون ضيفي.

صاح أحدهم قائلًا:

- (شرلوك هولمز) في «تيمبير ميسينيل»! هذا صحيح إذن، فـ (أرسين لوبين) موجود في تلك الأنحاء!

رد (ديفان):

- (أرسين لوبين) وعصابته ليسوا بعيدين عن هنا، فلو أغضضنا الطرف عن قضية البارون كاهورن، لمن ننسب عمليات السطو على «مونتيني» وقصر «وغروشيت» و«كراسافيل» إن لم يكن لِصّنا الوطني الشهير؟ والآن حان دوري.

سأل أحدهم: وهل هُدِّدت مثل البارون كاهورن؟

- نفس الحيلة لا تفلح مرتين.

- إذن؟

- إذن، ها نحن ذا، نهض مشيرًا إلى أحد الأرفف في المكتبة، حيث يوجد مساحة صغيرة فارغة بين مجلدين كبار، ثم قال:

- كان يوجد هنا مجلد ضخم يعود للقرن السادس عشر يسمى «أحداث تيمبيرميسينيل»، يحكي عن تاريخ القصر منذ أن شيده الدوق (رولون) مكان قلعة إقطاعية، احتوى هذا المجلد على ثلاث خرائط، الأولى: توضح شكل القصر بأكمله من الخارج، والثانية: تُوضح القصر من الداخل بكل غرفة، والثالثة: ـودعوني ألفت انتباهكم إلى هذاـ توضح القبو والممر السري تحت الأرض منذ نقطة بدايته من الخارج وحتى نهايته هنا، نعم، في نفس هذه الغرفة التي نُوجد بها، للأسف لقد اختفى هذا الكتاب منذ حوالي شهر.

هتف (فيلمونت):

- اللعنة! هذا نذير سوء بالطبع، ولكن هذا ليس كافيًا لإثارة اهتمام (شرلوك هولمز) ليتدخل.

- بالطبع هذا ليس كافيًا، لو لم تكن هناك واقعة أخرى مشابهة تعطي للأحداث التي أخبرتكم بها مغزى حقيقي، توجد نسخة أخرى من هذا المجلد التاريخي في المكتبة الوطنية، هاتان النسختان مختلفتان في بعض التفاصيل التي تخص السرداب، مثل المساحات والمسودات التوضيحية المكتوبة على هوامش الصفحات بخط اليد، لقد كنت أعرف هذه الأمور الخاصة، وأعرف أيضًا أنه لا يمكن الاهتداء داخل القبو أو إعادة ترميمه دون مقارنة دقيقة للخرائط،

ومع ذلك في اليوم التالي لاختفاء نسختي، استُعيرت نسخة المكتبة الوطنية من قِبَل قارئ أخذها وهرب بها، ولم يتمكن أحد من معرفة كيف وقعت هذه السرقة.

استطاعت كلمات (ديفان) أن تُثير ذهول الحاضرين فقال أحدهم باندهاش:

- هذه المرة الوضع أصبح جديًّا.

رد (ديفان):

- هذه المرة الشرطة مُستاءة للغاية، قاموا بعمل تحقيق مزدوج، ولكنه لم يسفر عن أي شيء.

- مثل كل قضايا (أرسين لوبين).

- هنا جالَ بخاطري الاستعانة بـ(شرلوك هولمز)، الذي أجابني بأنه متشوق تمامًا للتعامل مع (أرسين لوبين).

قال (فيلمونت):

- يا له من شرف لـ(أرسين لوبين)، ولكن إن لم يكن لصنا الوطني ـكما أسميته من قبلـ ينتوي سرقة قصر «تيمبير ميسينيل»، فلن يجد (شرلوك هولمز) أمامه سوى طقطقة أصابعه.

- هناك شيء آخر سيثير اهتمامه كثيرًا، وهو البحث عن مكان الممر السري تحت الأرض.

- ألم تقل لنا منذ قليل أن هذا الممر يبدأ خارج القصر وينتهي في هذه الغرفة؟

- أين؟ في أي مكان من هذه الغرفة؟ فالخط الذي يمثل الممر في الخرائط مرسوم على هيئة امتداد دائري مكتوب بداخله بخط كبير (ب.غ) مما يعني «برج غيوم»، من يستطيع تحديد من أي نقطة تبدأ الدائرة؟

أشعل (ديفان) سيجارًا آخر، وسكب لنفسه كأسًا من النبيذ بينما من حوله يُلِحُّون عليه بالأسئلة، ظل يبتسم سعيدًا بالاهتمام الذي أثاره، وأخيرًا أعلن:

- لقد فُقد هذا السر للأبد، لا أحد يعلمه، تناقلت أسطورة الممر من جيل إلى جيل، نقلها جبابرة اللوردات على فراش الموت إلى أبنائهم.

- ولكن الآن، بعد مرور قرن!! ألم يبحث أحد أبدًا؟

- بحثنا كثيرًا دون جدوى، أنا بنفسي عندما اشتريت هذا القصر من الكولونيل (ليربوغ)، قمت ببعض الحفر والاستطلاعات، توضح خريطة مجلد المكتبة وجود متتالية من أربعة سلالم تتكون من ثمانية وأربعين درجة، مما يوحي بعمق عشرة أمتار فقط، بينما توضح خريطة المجلد الآخر عمق مائتي متر، في الواقع المشكلة كلها تكمن هنا، بين هذه الجدران، هذا السقف وهذه الأرضية، ولأعترف لكم أنني متردد في هدمها.

- ألا يوجد أي دليل تبحث من خلاله؟

- لا.

اعترض الأب (جيليس):

- سيد (ديفان)، لا بد من توجيه الاهتمام للاقتباسين.

ضحك (ديفان) ثم قال موجهًا كلامه للحضور:

- سيدي الكاهن باحث في الأرشيف وقارئ متعمق للتاريخ، وخصوصًا قصر «تيمبير ميسينيل»، فكل ما يتعلق بماضي هذا القصر يسحره، لكن التفسير الذي يقدمه لا يضيف أي جديد بل يزيد الأمور تعقيدًا.

سأل أحدهم:

- وما هو؟

- أتريد المعرفة حقًّا؟

- بشدة.

- وهو كذلك، من خلال معرفته الغزيرة توصل إلى أنه كان يوجد ملكان فقط في تاريخ فرنسا يعرفان سر هذا السرداب.

- ملكان؟

- (هنري الرابع) و(لويس السادس عشر).

- إنهما ليسا أول قاطنيه، وكيف توصل الكاهن إلى هذه الحقيقة؟

- أوه! الأمر في غاية البساطة، في اليوم السابق لمعركة «أركي» جاء الملك (هنري الرابع) للراحة والمبيت في هذا القصر، وأثناء الليل تعرف على (لويز دي تانكرفيل) أجمل سيدات النورماندي، كان هذا اللقاء عن طريق السراب بالتواطؤ مع اللورد (أداجار) والذي بهذه المناسبة باح للملك بسر العائلة؛ اعترف (هنري الرابع) لاحقًا بهذا السر لوزيره (سولي) الذي روى هذه الحكاية في كتابه «اقتصاديات الدولة الملكية» دون إرفاقه بأي تعليق سوى هذه الجملة المبهمة:

«الفأس يدور في الفضاء، لكن الجناح ينفتح ونصل إلى الله».

ساد صمت عميق على الحضور، فقال (فيلمون) ساخرًا:

- إنه ليس واضحًا كفاية.

رد (ديفان):

- سيدي الكاهن يعتقد أن (سولي) أراد أن يكتب السر بهذه الطريقة الغريبة حتى لا يكشفه للناسخين الذين يملي عليهم مذكراته.

- الاستعارة بارعة.

- طبعًا، ولكن ما هي الفأس؟ وما هذا الطائر المحلق بجناحه؟ وماذا يُذهب إلى الله؟

- إنه لغز، ولكن ماذا بشأن (لويس السادس عشر)؟ هل كان أيضًا على موعد مع سيدة جميلة ففتح السرداب لها؟

- لا أعلم تحديدًا، كل ما يمكن أن يُقال إن (لويس السادس عشر) أقام فترة في قصر «تيمبير ميسينيل» عام ١٧٨٤، وأن خزانته الحديدية الشهيرة الموجودة في متحف اللوفر تحتوي على ورقة مكتوب عليها بخط يده: «تيمبير ميسينيل ٢-٦-١٢».

قال (فيلمونت) هازئًا:

- ها قد بدأ يتلاشى الغموض تدريجيًّا، معادلة سهلة، حاصل ضرب ٢ و٦ يساوي ١٢.

رد عليه الأب (جيليس) بثقة:

- اضحك كما تشاء، فإنني أؤمن بأن هذه المعادلة الحسابية السهلة تحتوي على حَلِّ اللغز، بالتأكيد سيأتي شخص في يوم من الأيام ويعرف كيف يُفسِّرها.

قال (ديفان):

- (شرلوك هولمز) أولًا، في حال لم يسبقه (أرسين لوبين)؛ ما رأيك (فليمونت)؟

وقف (فليمونت) ووضع يده على كتف (ديفان) معتزمًا استكمال المزحة حتى النهاية:

- أعتقد أن المُعطيات التي قدمها لي كتابك وكتاب المكتبة الوطنية كانت تنقصها بعض الأمور المهمة، وقد تفضلت بتقديمها لي فشكرًا جزيلًا لك.

- مثل؟

- الآن وبعد أن دارت الفأس وهرب الطائر واثنان ضرب ستة يعطي اثني عشر، فلا بد لي من الانطلاق فورًا.

سأل (ديفان) بصوتٍ ساخر:

- بهذه السرعة؟

- بدون إضاعة ثانية! هذا يعني أن عليَّ اقتحام قصرك اليوم قبل وصول (شرلوك هولمز).

- هذه هي الحقيقة، لم يتبقَّ لديك وقت طويل، هل تريد مني أن أقلك؟

- إلى ديبيب؟

- نعم، سأغتنم الفرصة وأذهب بنفسي لاستقبال السيد والسيدة (داندرول) وشابة صغيرة من أصدقائهما، سيصلون في قطار منتصف الليل.

أضاف (ديفان) مٌخاطبًا الضباط:

- سنلتفي هنا جميعًا غدًا أيها السادة لتناول الغذاء.

قُبِلت الدعوة، غادروا القصر، وذهب كل منهم في طريقه، وبعد لحظات كانت السيارة تنطلق بكل من (ديفان) و(فيلمونت) إلى دبيب، أنزل (ديفان) الرسام أمام الكازينو، وذهب إلى المحطة.

حوالي منتصف الليل نزل أصدقاؤه من القطار، بعدها بنصف ساعة اجتازت السيارة بوابة القصر، وبعد تناول عشاء خفيف في غرفة الصالون في الواحدة صباحًا تقريبًا انطفأت أنوار القصر تدريجيًّا، وغلف صمت الليل القصر بأكمله.

دقَّت الساعة الثانية، وبنادول الساعة يسحق الثواني في بُطْء وهُدوء، ثم مرت ساعة أخرى هادئة في ظلام الليل الثقيل، وفجأة دوَّى صوت نقر شيء معدني مثل هذا الصوت الذي يصدر عند التنبيه بمرور قطار، عندما ينفتح قرص الإشارة وينثني لأسفل، تسلَّل ضوء خافت في الصالة مثل مرور سهم سريع تاركًا وراءه أثرًا لامعًا، انبثق هذا النور من العمود المركزي الذي تعتمد عليه المكتبة، ثبت فجأة على لوحة مواجهة للمكتبة، ثم أخذ يتنقل في أرجاء المكان كله كمن يلقي نظرة خاطفة سريعة بقلق، بينما بدأت أجزاء المكتبة بالدوران حول نفسها كاشفة فتحة عميقة خلفها على شكل نصف دائرة، خرج منها رجل يحمل في يده مصباحًا كهربائيًّا، ثم رجل ثاني وثالث التفوا حوله وفي يدهم لفافات من الحبل الثقيل وأدوات أخرى مختلفة، فتَّش الرجل الأول المكان بحركة سريعة، ثم قال:

- استدعوا الرفاق؛ خرج من الفتحة ثمانية رجال ضخام بوجوه متحمسة نشيطة وبدءوا في العمل، وبحركات سريعة كان (أرسين لوبين) يتنقل من قطعة أثاث إلى أخرى، يقوم بفحصها وتحديد قيمتها، إما يتجاوزها أو يأمر برفعها.

وهكذا سُرق ستة كَرَاسٍ كبيرة طراز (لويس الخامس عشر)، وسجاجيد أبيسون، وشمعدانات من تصميم (جوثيير) ولوحات طبيعية للرسام (فراجونار) وبعض التماثيل الصغيرة، من وقت لآخر كان (أرسين لوبين) يمر أمام لوحة جميلة أو بوفيه ضخم قائلًا بأسف:

- يا للخسارة! كبير جدًّا وثقيل جدًّا، ويمضي مكملًا تفحصه.

خلال أربعين دقيقة أصبحت غرفة الصالون الكبيرة «نظيفة» حسب تعبير (أرسين لوبين)، أُنْجِزَ كل هذا بدقة مثيرة للإعجاب وبدون حدوث أي ضوضاء كما لو أن تلك الأدوات التي كانوا يستخدمها هؤلاء الرجال مبطنة بصوف قطني

سميك.

خرجوا من نفس الفتحة وقال (أرسين لوبين) لآخرهم الذي كان يحمل ساعة حائط ضخمة من تصميم (بول):

- لا داعي للعودة ثانية، مفهوم؟ بمجرد تحميل الشاحنة انطلقوا إلى مخزن غلال «روكيفورد».

- ولكن ماذا عنك سيدي؟

- سأستخدم الدراجة النارية، اتركها بالخارج.

عندما غادر الرجل أعاد (أرسين لوبين) الجانب المتحرك من المكتبة إلى مكانه، ثم بعد إزاله آثار الأقدام والحركة تتبع بابًا جانبيًّا في الغرفة من بعده رواقًا كان بمثابة نقطة الاتصال بين هذه الصالة وباقي القصر، في منتصف هذا الرواق كانت هناك فاترينة زجاجية مميزة، والتي بسببها لم يغادر (أرسين لوبين) مع أصدقائه.

كانت تحتوي على مجموعة فريدة من الساعات والخواتم وتُحف فنية صغيرة من أرقى التصميمات، باستخدام كماشة كسر القفل، انتابته حالة من السعادة الغامرة لنجاحه في الاستيلاء على هذه المجوهرات الثمينة من الذهب والفضة، هذه الأعمال الفنية العظيمة التي لا يُضاهِيها شيء.

كان قد علق في رقبته حقيبة قماشية كبيرة مُجهَّزة خصيصًا لمثل هذه الأشياء ملأها وملأ جيوب سرواله وسترته، كانت يده اليسرى تقبض على مجموعة من تلك الجواهر الثمينة التي تلهث وراءها الموضة الحالية بشغف، عندما تناهي إلى أذنيه صوت حركة خفيفة، أرهف السمع مرة أخرى فلم يكن مُخطِئًا، ازداد الصوت وضوحًا؛ فجاة تذكر، في آخر هذا الرواق يوجد درج يقود إلى غرفة لم يسكنها أحد قط، ولكن هذا المساء استقبلت هذه الغرفة الشابة الصغيرة التي ذهب (ديفان) لإحضارها مع أصدقائه من دبيب، وبحركة سريعة أطفأ المصباح بضغطة من أصبعه واختفى وراء ستارة، فتح باب الغرفة وخرج منه ضوء خافت أنار الرواق، تقدم الشخص خطوات تجاه الدرج، ورغم إحساسه بأنه غير مرئي كان يأمل أن لا يذهب الشخص أبعد من ذلك، ولكنه صعد الدرج وسمع اقتراب الخطوات تمشي في الرواق، أعقبها صرخة ذهول، لا شك بأن الشخص رأى الفاترينة مكسورة وثلاثة أرباعها فارغ، عن طريق العطر الذي انتشر في الجو أدرك أنها امرأة، بدا له أنه سمع دقات قلبها ينبض بعنف، وهي الأخرى استشعرت وجود شخص آخر حولها في الظلام، قال لنفسه: لا بد أنها ستغادر خائفة، لم تغادر، ثبتت الشمعة التي كانت تهتز في يدها ثم استدارت وترددت لحظة، بدا أنها تستمتع بهذا الصمت الثقيل، ثم فجأة سحبت الستارة!

- أنت! أنت! ... آنسة...! ردد (أرسين) مذهولًا.

كانت الآنسة (نيللي)، رفيقته في رحلة المحيط الأطلسي، تلك التي مزجت

أحلامها بأحلام الشاب الجريء خلال هذه الرحلة العجيبة، الشاب الذي شهدت اعتقاله، وبدلًا من خيانته وتسليم الدليل المادي ضده، قامت بهذه اللفتة اللطيفة بإلقائها آلة التصوير التي أخفى فيها الأوراق النقدية والمجوهرات في المياه، آنسة (نيللي)، هذه الفتاة المبتسمة التي طالما رافقته صورتها المبهجة ساعات طويلة داخل زنزانته في أثناء سجنه.

يا لها من صُدْفة مدهشة تلك التي جمعتهما في نفس المكان مرة أخرى وفي هذه الساعة تحديدًا! لم يتحركا، لم ينطقا بكلمة، بقيا مذهولين للحظات، ثم خارت قوى الآنسة (نيللي) المرتبكة بالعواطف واضطرت للجلوس على مقعد مجاور، ظل متجمدًا خلال هذه الثواني اللا متناهية، يحاول إدراك الانطباع الذي تركه لديها في تلك اللحظة، ذراعيه محملة بالحلي، جيوبه منتفخة، حقيبته ممتلئة، اجتاحه ارتباك رهيب واحمرَّ خجلًا من وضع اللص المُتلبس هذا، بالنسبة لها الآن مهما كان الأمر فإنه هذا اللص الذي يضع يده في جيوب الآخرين، الشخص الذي يقتحم البيوت ويتسلل ليلًا.

تدحرجت إحدى الساعات على السجادة، بعدها أخرى، بدأ المزيد ينزلق من ذراعيه، ثم اتخذ قراره فجأة، ترك الأشياء كلها تسقط على كرسي ثم أفرغ جيوبه وتخلص من حقيبته.

شعر براحة أكثر، ثم تقدم تجاه (نيللي) بضع خطوات عازمًا التحدث إليها، لكنها هزت كتفيها مذعورة ووقفت بسرعة، ثم ركضت خائفة تجاه غرفة الصالون الكبيرة، بابها الأساسي مغلق، بقيت واقفة هناك مصعوقة ومرتجفة عيناها تحدق في رعب إلى الغرفة المنهوبة.

قال لها على الفور:

- غدًا، عند تمام الثالثة، سيعود كل شيء إلى مكانه، سيعود الأثاث.

لم تُجب.. فكرَّر:

- غدًا، عند الثالثة أعدك، لا شيء في العالم يستطيع أن يمنعني من الوفاء بوعدي، غدًا تمام الثالثة.

خيَّم عليهما صمت طويل، لم يجرؤ على كسْرِه، سببت مشاعر خوفها لديه ألمًا حقيقيًّا، ابتعد عنها ببطء، دون أن ينبس بكلمة أخرى وقال لنفسه:

- دعْها تذهب، فكلما شعرت بحرية ذهابها، كلما أصبحت لا تخشاك؛ لكنها بدأت في التلعثم فجأة:

- اسمع..... خطي... اهرب.

- لا أستطيع سماع أي شيء.

- كيف؟ يجب أن تهرب، اهرب بسرعة.

- لماذا؟

- من الضروري أن لا تبقى.

ثم ركضت تجاه الباب الرئيسي المغلق، وأرهفت السمع، لا لم يكن هناك أحد، ربما كانت ضوضاء قادمة من الخارج، انتظرت ثانية اطمأنت ثم استدارت، لكن (أرسين لوبين) اختفى.

في اللحظة التي عرف فيها (ديفان) خبر اقتحام قصره قال لنفسه:

- إن (فيلمونت) من قام بذلك.

إن حديث المزاح الذي دار بينهما البارحة أكبر دليل على ذلك، وإنما استكمله (أرسين لوبين) لإضافة روح المرح على جو الحديث الجدي، مع أن من الصعب عليه تصديق أن (فليمونت) هذا الرسام البارع صديق ابن عمه (إستيفان) هو (أرسين لوبين) متنكرًا، فبقيت شكوكه قابعة داخله، حتى عندما أبلغ رئيس البوليس لم يذكر هذه الشكوك أبدًا.

في الصباح كان قصر «تيمبير ميسينيل» ممتلئًا برجال الشرطة وسكان القرية والبستاني وحراس الأمن، كانوا يملئون الممرات والحديقة حول القصر، ومع اقتراب مجموعات المناورات العسكرية، دوى صوت الرشاشات والبنادق في الجو فأصبح المشهد مثيرًا للإعجاب.

لم تتوصل التحقيقات الأولية إلى أي دليل، النوافذ لم تُكسَر، والأبواب لم تُحطَّم، لقد حدثت السرقة بلا شك عن طريق هذا الممر السري، مع ذلك لا أثر لأي خطوات على السجاد، ولا يوجد أي علامات تثير الشك على الجدران، شيء واحد فقط غير متوقع يشير إلي وجود (أرسين لوبين)، فمجلد «أحداث تيمبير ميسينيل» عاد إلى موقعه في المكتبة، وبجانبه مجلد مشابه لم يكن سوى نسخة المكتبة الوطنية المسروقة.

في الحادية عشرة وصل الضباط واستقبلهم (ديفان) بترحيب ومرح بغض النظر عن مشاعر الانزعاج بداخله، التي أحدثتها سرقة أشيائه الثمينة، ولكن ثروته الضخمة تمكنه من التعامل بشكل جيد دون سخط.

نزل أصدقاؤه السيد (أندردول) والآنسة (نيللي) إلى الطابق الأسفل، فقدمهما إلى ضيوفه، لم يحضر السيد (فيلمونت)، وغيابه أثار شكوك (ديفان) مرةً أخرى، ولكن عند الظهيرة بالتحديد ظهر (فيلمونت)، فهتف (ديفان) مُرحِّبًا:

- في الوقت المناسب تمامًا، تفضل.

- هل تأخرت؟

- قليلًا! من غير الممكن ألَّا تتأخر بعد هذه الليلة الصاخبة، لا بد وأنك علمت الأخبار.

- ما الأمر؟

- لقد سطوت على قصري ليلة أمس! قال مستكملًا مزاحه.

- ماذا؟

- كما قلت لك، لكن لا وقت الآن لذلك تأبط ذراع الآنسة نيللي أندردون الآن ودعنا نذهب للغذاء، فلتسمحي آنستي.

توقف متفاجئًا من إرتباك الآنسة، ثم تذكر فجأة:

- آه! هذا صحيح، بالمناسبة لقد سافرتِ مرة مع (أرسين لوبين) على متن «البروفانس» قبل اعتقاله، التشابه يفاجئك، أليس كذلك؟

لم تنطق بكلمة بينما كان (فيلمونت) يبتسم، انحنى ثم أخذ ذراعها برفق وقادها إلى مقعدها ثم جلس مقابلها.

أثناء الغذاء دار الحديث عن (أرسين لوبين) فقط، الأثاث الذي تمت إزالته، النفق تحت الأرض، (شرلوك هولمز)، وبعد الانتهاء تطرقوا إلى مواضيع أخرى، انضم (فيلمونت) إلى المحادثة وقد كانت مشاركته بليغة، كلامه مسلي وذكي، فكل ما قاله بدا كأنه بدافع إثارة اهتمام الآنسة (نيللي) فقط، ولكنها بَدَت شاردة لا يبدو أنها حتى تسمعه.

قُدّمت القهوة في الشرفة المطلة على الفناء الرئيسي، أمام العشب المديد، بدأت موسيقى الحرس الوطني في العزف، وتدفقت حشود الفلاحين والجنود في ممرات الحديقة المشجرة.

مع ذلك تذكرت الآنسة (نيللي) وعد (أرسين لوبين) «الساعة الثالثة سيكون كل شيء في مكانه، سألتزم بوعدي».. كانت عقارب الساعة الكبيرة تشير إلى الثالثة إلا ربع، فقد كانت تنظر إليها بالرغم منها طوال الوقت، وكانت تنظر أيضًا من وقت لآخر لـ(فيلمونت)، الذي كان يتأرجح على كرسي هزاز مريح بهدوء.

الساعة الثالثة إلا ثلاث دقائق بدأ صبر (نيللي) ينفد، شعرت بالاضطراب والتوتر، هل من المعقول أن يحدث هذا؟ أن تحدث هذه المعجزة في وقتها المحدد تمامًا؟ القصر يعج بالضيوف والشرطة وقاضي التحقيقات والمدعي العام يكملان تحقيقهما، رغم كل هذا فقد وعدها (أرسين لوبين) بكل جدية، قالت لنفسها بيقين متأثرة بجرأة وقوة هذا الرجل: سينفذ كما وعد، لم يعد يبدو هذا معجزة بالنسبة لها، إنما هو حدث طبيعي لا بد من وقوعه، التقت أعينهما للحظة، احمرَّت خجلًا وأشاحت بوجهها.

في الساعة الثالثة تمامًا، أخرج (فيلمونت) ساعة من جيبه نظر إليها ثم أعادها مرة أخرى.

مرت بضع ثوانٍ، ثم بدأ الناس يفسحون المجال حول العشب لعربتين تجرهما الخيول اجتازتا بوابة القصر، كانت من عربات الجيش المُجهَّزة لحمل أغذية الجنود وأمتعتهم توقفتا أمام الدرج الأمامي للقصر، وترجل الجندي المسئول عن القيادة طالبًا لقاء السيد (ديفان)، ركض (ديفان) هابطًا الدرج بسرعة،

وتحت القماش المشمع الذي يغطي العربة، رأى أثاثه ولوحاته وأشياءه الثمينة مُغلَّفة جيدًا ومُرتبة بعناية.

رد الجندي على أسئلة (ديفان) الموجهة إليه بأن أظهر له الأمر المكلف به هذا الصباح وهو التأكد من أن الأشياء التي وُضِعت عند مفترق طرق «هالوكس» في غابة «أرك» وصلت في تمام الساعة الثالثة إلى السيد (ديفان) مالك قصر «تيمبيرميسينيل»، توقيع العقيد (بوفيل).

أضاف الجندي:

- لقد وجدت كل شيء مجهزًا ومفروشًا على العشب تحت أعين المارة، بدا الأمر غريبًا بالنسبة لي، ولكنه أمر ووجب عليَّ التنفيذ.

فحص أحد الضباط التوقيع ثم قال:

- زُوِّر بمهارة فائقة.

توقفت الموسيقى، وبدأ الخدم بإفراغ الشاحنات وإدخال الأثاث، في خضم هذه الأحداث بقيت (نيللي) وحدها في نهاية الشرفة، كانت متوترة ومضطربة بالأفكار التي لا تجد لها تفسيرًا، وفجأة رأت (فيلمونت) يقترب، كانت ترغب في تجنب هذا اللقاء، ولكن درابزين الشرفة كان يحيطها من كلا الجانبين، ولم يترك لها صف أشجار البرتقال والبامبو أي ملاذ آخر غير الطريق الذي عبره الشاب، كان يتقدم ببطء بينما بقيت ثابتة لا تتحرك، حطَّ شعاع من ضوء الشمس فوق شعرها الذهبي، عندما اقترب منها قال بصوت خفيض:

- لقد أوفيت بوعدي هذه الليلة، لقد كان هو (أرسين لوبين) يقف بالقرب منها ولم يكن هناك أحد غيرهم، كرر بصوت خجول:

- لقد أوفيت بوعدي هذه الليلة.

كان ينتظر منها كلمة شكر، أو على الأقل أن تبدي اهتمامًا، لكنها صمتت وتجنبت النظر إليه، أثار هذا الازدراء حفيظته، ولكنه في الوقت نفسه أحس بعُمق الشرخ الذي حدث بينهما بعدما اكتشفت (نيللي) حقيقته، كان يودُّ أن يبرئ نفسه ويظهر كما كان من قبل جريئًا عظيمًا، ولكن تجمدت الكلمات في حلقه، وشعر بعبثية ووقاحة أي تفسير، ثم همس بحزن وغمرته الذكريات:

- ما أشبه الليلة بالبارحة! هل تذكرين الساعات الطويلة التي قضيناها معًا في عرض البحر، آه! في أول يوم رأيتك كنتِ تمسكين بوردة شاحبة مثل تلك التي في يدك الآن، لم أجرؤ على التحدث إليك، وبعد مغادرتك، وجدت هذه الوردة واحتفظت بها؛ لم تجب، بدت شاردة الذهن، واستأنف هو قائلًا:

- بحق هذه الذكريات، لا تفكري بي كما تظنين الآن، اتركي الحاضر يلحق بالماضي، دعي عينيك لا تحتفظ بذكرى ما رأيتِ أمس، ولكن بصورة الرجل على الباخرة، أتوسل إليكِ، ألم أكن أنا هذا الشخص أيضًا؟

رفعت عينيها كما طلب منها، ونظرت إليه، ثم دون أن تنبس ببنت شفة وضعت أصبعها على خاتم كان يرتديه في سبابته، لم يكن هيكل الخاتم واضحًا، كان يحتوي في منتصفه على ياقوتة رائعة على شكل قطة صغيرة، احمرَّ وجهه خجلًا؛ فهذا الخاتم يخص (جورج ديفان)، ابتسم بمرارة قائلًا:

- أنتِ على صواب، لطالما كان (أرسين لوبين) موجودًا بداخلي، ودائمًا سيبقى، لا يمكن أن يكون هناك شيء مشترك بيني وبينكِ ولا حتى ذكرى، سامحيني، كان ينبغي عليَّ الفهم أن مجرد وجودي بقربكِ لا يزيدني سوى ازدراء لنفسي.

تنحَّى جانبًا عن الدرابزين، ومرَّت (نيللي) من أمامه مُمسِكة بقبعتها، كان يريد أن يعترضها، أن يُوقِفَها، ولكن خذلته جرأته، وتبعها بعينيه كما حدث من قبل عندما كانت تبتعد على رصيف نيويورك، صعِدت الدرج المؤدي إلى باب القصر، ثم اختفى ظِلُّها بين الرخام ولم يعُد يراها.

مرَّت سحابة حجَبَتْ الشمس وراقب (أرسين لوبين) بلا حراك أثار خطواتها مطبوعة على الرمال، وفجأة لاحظ على صندوق الخيزران الذي كانت تتكئ عليه (نيللي) وردتها الباهتة، لقد نسيتها بلا شك، أتركتها عن عمد أم مصادفة؟

مسكها وقطف بتلاتها الثلاثة واحدًا تلو الآخر ببُطء وحسرة، تمتم لنفسه:

- لم يتبقَّ شيء لفعله، أظن أن عليَّ التفكير بالتقاعد، فإذا تدخل (شارلوك هولمز) سيصبح الأمر سيئًا.

تسلل إلى خارج القصر مُختفيًا بين الحقول، واتخذ طريقه إلى أقرب محطة، فلم يمشِ أكثر من عشر دقائق، عندما اعترض طريقه رجل في الخمسين من عمره تقريبًا، قوي، ذو وجه حليق، يرتدي بدلة على الذوق الأجنبي، يحمل في يده عصا ثقيلة، وحقيبة معلقة في رقبته، قال الرجل بلكنة إنجليزية:

- معذرة سيدي، أليس هذا طريق القصر؟

- نعم، مباشرة إلى الأمام. ثم اتجه يسارًا عندما تقابل سفح الحائط، أسرع، فهم متشوقون لرؤيتك؟

- ماذا؟

- نعم، أخبرنا صديقنا (ديفان) أمس عن زيارتك.

- حماقة كبيرة من ناحيته لو تحدث بأكثر من اللازم.

- على كل حال، يسعدني أن أكون أول من يلتقي بك، فلا يوجد معجب أكثر ولعًا بـ(شرلوك هولمز) أكثرَ مِنّي.

كان هناك نبرة تهكُّم واضحة في صوت (أرسين لوبين)، والذي ندم عليها عقب إتمامه الجملة، ألقى (شرلوك هولمز) نظرةً ثاقبةً عليه من أعلى رأسه حتى

أخمص قدميه، أحس (أرسين لوبين) بأنه ألقِي القبض عليه من قِبل البوليس الإنجليزي والتقطوا له عشرات الصور، ازداد صوت وقع الأقدام من حولهم، واقتربت أصوات خيول رجال الشرطة، فاضطر الرجلان للالتصاق بجانب بعضهما لتجنب ازدحام مرور الضباط، وعندما مرَّ آخر فارس، وقف (شرلوك هولمز) ينفض التراب عن ملابسه، ومرة أخرى التقت أعينهما، فلو رآهما أحد في هذا الموقف لأدرك من خلال هذه النظرات النارية مقدار القوة المتولدة التي أحدثها هذا اللقاء.

قال (شرلوك هولمز) بلهجةٍ صارمةٍ:

- أشكرك سيدي.

- في خدمتك دائمًا.

افترقا، فصار (أرسين لوبين) تجاه المحطة و(شرلوك هولمز) في اتجاه القصر.

كان قاضي التحقيقات والمدعي العام قد غادرا بعد بحث عبثي أجرياه، وكان (شرلوك هولمز) قد وصل القصر مُصيبًا المدعويين بخيبة أمل شديدة، بسبب مظهره كبرجوازي إنجليزي، الذي يختلف بشدة عن الصورة التي رسمها خيالهم، الشخصية القوية الغامضة التي تستحضرها سيرته الشهيرة.

ومع ذلك رحب به (ديفان) قائلًا:

- أخيرًا سيدي، ياللسعادة! لقد مرَّ وقت طويل حتى تحققت أمنيتي، إنه لمن دواعي سروري رؤيتك هنا الآن، ولكن بالمناسبة، كيف أتيت؟

- بالقطار.

- ياللأسف! لم تدركك سيارتي، لقد أرسلتها لاستقبالك في ساحة الوصول عند المحطة.

رد الإنجليزي متذمرًا:

- للإعلان عن مجيئي بشكل رسمي، مع وجود موسيقى ورقص وزفة كاملة، يالها من طريقة رائعة لتسهيل مهمتي!

هذه الطريقة الساخرة أزعجت (ديفان)، الذي قال محاولًا المزاح:

- لحُسْن الحظ، الوظيفة أصبحت أسهل مما كتبته إليك.

- لماذا؟

- لأن السرقة وقعت ليلة أمس.

- لو لم تعلن عن زيارتي سيدي، ما كانت وقعت الليلة الماضية.

- متى إذن؟

- غدًا، أو أي يوم آخر.

- وعندها؟

- لكان إذن من السهل إيقاع (أرسين لوبين) في الفخ.

- وأثاثي؟

- لم يكن ليكون نُهِب من الأساس، سيكون ما زال هنا.

- إنه هنا بالفعل.

- هنا؟

- أُعِيد اليوم في تمام الثالثة.

أطبق (شرلوك هولمز) القبعة فوق رأسه بعنف، وأمسك حقيبته ناهضًا، ولكن (ديفان) صاح:

- ماذا تفعل سيدي؟

- أنا ذاهب.

- لماذا؟

- أثاثك موجود هنا، و(أرسين لوبين) بعيد، لقد انتهى دوري.

- ولكني ما زلت بحاجة لمساعدتك سيدي العزيز، فما حدث أمس قد يتكرر غدًا؛ لأننا لا نعرف الأهم، الطريقة التي دخل بها (أرسين لوبين)، كيف دخل؟ وكيف خرج؟ ولماذا بعد ساعات قليلة أعاد هذه الأشياء؟

- آه! أنت لا تعرف!

فكرة وجود شيء غامض يستوجب الاكتشاف هدأت من روع (شرلوك هولمز).

- حسنًا، دعنا نبدأ العمل فورًا، وعلى انفراد لو أمكن.

كان يعني بكلامه المساعدين، دلف (شرلوك هولمز) إلى الصالون الكبير، بكلمات مقتضبة ولهجة جافة، سأله عن ما حدث ليلة أمس، وعن ضيوفه، وعن الخدم، ثم قام بفحص كلا المجلدين، وقارن بين خرائط الممرات الموجودة تحت الأرض، كرر له ديفان الاقتباسات التي وجدها الأب جيليس.

فسأله:

- هل ذكرت بالأمس لأول مرة هذين الاقتباسين؟

- نعم.

- أنت لم تبلغ السيد هوراس فيلمونت بهم من قبل؟

- أبدًا.

- سيدي، اطلب سيارتك.. سأغادر في غضون ساعة.

- ساعة؟

- نعم، لم يستغرق الأمر أكثر من ساعة أيضًا لـ(أرسين لوبين) لحل تلك الألغاز التي قدمتها له.

- أنا قدمتها؟

- نعم! فـ (أرسين لوبين) و(فيلمونت) شخص واحد.

- ياللمحتال! كنت أشك في ذلك.

- أمس في العاشرة مساءً، زودت (أرسين لوبين) بالعناصر التي يفتقر إليها، والذي ظل يبحث عنها لمدة أسابيع دون جدوى، وأثناء الليل فسر الأمر، وجمع عصابته واقتحم قصرك، وأظن أن لديَّ نفس السرعة التي أمتلكها لتفسير اللغز.

كان يتجول في الغرفة ذهابًا وإيابًا، يفكر ثم يجلس، ثم يعقد ساقيه الطويلتين، ويغمض عينيه، ظل (ديفان) يتساءل: هل استغرق في النوم أم أنه يفكر؟

انسحب (ديفان) ليعطي بعض الأوامر للخدم، ثم عاد للغرفة مرة أخرى، فوجد (شرلوك هولمز) جاثيًا على ركبتيه أسفل الدرج ومحدقًا في السجادة.

- ماذا هناك؟

- انظر، هذه بُقَع شمع.

- فعلًا، وتبدو حديثة.

- يمكننا أيضًا رؤيتها أعلي الدرج، وأكثر حول الفاترينة الزجاجية التي كسرها (أرسين لوبين)، أزال منها الحلي، ووضعها على هذا الكرسي.

- بمَ تفسر ذلك؟

- لا شيء، إنها تلقي الضوء على المسألة التي لا أملك الوقت للإجابة عنها، الممر السري.

- ما زلت تأمل أن...

قاطعه (شرلوك هولمز) بنبرة صارمة:

- أنا لا آمل شيئًا، أنا أعلم يقينًا، أليس هناك كنيسة على بُعد ٢٠٠ أو ٣٠٠ متر من القصر؟

- نعم، بقايا كنيسة صغيرة، حيث يقبع قبر الدوق (رولون).

- أخبر سائقك أن يلقانا هناك.

- السائق لم يعُدْ بعد، ولكن هل تعتقد يا سيدي أن الممر السري من داخل القصر يقود إلى الكنيسة؟ ما الدليل الذي....

قاطعه قائلًا:

- من فضلك أحضر لي سُلمًا ومصباحًا.

- آه! أتريد سلمًا ومصباحًا؟

- على ما يبدو، منذ أن طلبت منك.

قرع (ديفان) جرسًا فأُحْضِرت الأشياء بسرعة، كان (شرلوك هولمز) يُملي أوامره بصرامة ودِقَّة عسكرية:

- ضع هذا السلم على المكتبة، على يسار كلمة «تيمبير ميسينيل»، نفذ (ديفان) ما أمره به.

- إلى اليسار قليلًا، اليمين، نعم... توقَّف الآن واصعد، حسنًا، حروف الكلمة كلها بارزة، أليس كذلك؟

- نعم.

- هلا ضغطت حرف الـ(ت) من أجلي، هل يدور بطريقة أو بأخرى؟

- نعم! يدور إلى اليمين ربع دائرة، كيف عرفت؟

ودون أن يجيبه تابع (شرلوك هولمز):

- هل يمكنك من مكانك هذا ضغط حرف الـ (ر)؟ نعم، حرِّكْه عدة مرات كما لو أنك تفتح مزلاج باب.

حرَّك الحرف عدة مرات واندهش لوجود قوة دفع إلى الداخل مثل المزلاج فعلًا.

قال (شرلوك هولمز):

- ممتاز، كل ما عليك الآن هو تحريك السُّلم إلى الطرف الآخر، أي في نهاية كلمة «تيمبير ميسينيل»، جيد، الآن إن لم أكن مخطئًا، فسيُفتح حرف الـ (ل) كما تفتح النافذة.

استولت الدهشة على (ديفان) عندما فتح حرف الـ (ل)، ولكنه سقط فجأة؛ لأن الجزء الكامل من المكتبة الواقع بين الحرف الأول والأخير، تمحور حول نفسه، كاشفًا عن فتحة تحت الأرض.

سأله (شرلوك هولمز):

- هل تأذيت؟

- لا، لم أتأذَّ، ولكني مصدوم، هذه المكتبة! هذا السرداب؟

- ألا يتوافق هذا تمامًا مع مقولة (سولي)؟

- يا إلهي! كيف هذا؟

- أحد الحروف يدور والثاني ينبسط كالطير والثالث ينفتح، وهي الحروف الأولى لكل كلمة في الاقتباس، ثم تمتم ساخرًا:

- هذا ما سمح لـ(هنري الرابع) من استقبال السيدة (تنكرفيل) في ساعة غير عادية.

- لكن (لويس السادس عشر)؟

- كان (لويس السادس عشر) مولعًا بصناعة الأقفال، لقد قرأت له مخطوطة «رسالة الأقفال المختلطة»؛ لذلك فإن وريث الـ«تيمبير ميسينيل» تصرف كرجل بلاط جيد، وباح له بسر هذه التحفة الميكانيكية، وليتذكرها التاريخ ذكرها الملك داخل خزنته: «تيمبيرميسينيل٢ـ ٦ ـ١»؛ أي الحرف الثاني والسادس والثاني عشر.

- آه! لقد فهمت الآن كيف يمكن الخروج من هذه الغرفة عن طريق السرداب، ولكن لا يمكنني أن أفهم كيف دخلها (لوبين)، ضع في اعتبارك أنه جاء من الخارج.

أشعل (هولمز) إضاءة المصباح ونزل إلى أسفل.

- انظر، الآلية التي تدور بها الحروف كلها تظهر هنا، كأنها تروس ساعة كبيرة وكل الحروف مقلوبة، فما كان على (لوبين) سوى أن يفعلها بالعكس من الجانب الآخر.

- ما الدليل على ذلك؟

قال (شرلوك هولمز) بإعجاب مُوجِّهًا نظره لأسفل:

- دليل أكثر من ذلك؟ انظر إلى بقع الزيت هذه، توقع (لوبين) أن التروس ستحتاج للتشحيم.

- ولكنه يعرف المخرج على الجانب الآخر.

- كما أعرفه تمامًا، اتبعني.

- إلى جوف الأرض؟

- هل أنت خائف؟

- لا، ولكن هل أنت واثق مما سنقابل؟

- أغمض عينيك إذن.

هبطوا في البداية درجًا من اثنتي عشرة درجة، وبعده سارا اثنتي عشرة

خطوة، ثم شقا ممرًّا طويلًا، كانت أرضه رطبة، فأعقب (ديفان) بقلق:

- نحن سنغوص في الوحل.

انتهى الممر بدرج يتكون من اثنتي عشرة درجة، وبعدها ١٢ خطوة أخرى، فظهر أمامهما تجويف صغير مسدود بحجر كبير، صاح (شرلوك هولمز) بحنق:

- يا للشيطان! لا شيء سوى جدران عارية، لقد أصبح الأمر مُحبطًا.

- هيا فلنعُد، لا أعتقد أنه من الضروري معرفة المزيد، لقد اكتفيت.

لكن عندما رفع (هولمز) رأسه لأعلى، تنفس الصعداء، ففوق رأسهما مباشرةً تكررت الآلية التي كانت عند مدخل المكتبة، فما كان عليه سوى أن ينفذ معادلة الحروف مرة أخرى.

تحرَّكت الكتلة الصخرية من الجرانيت، وعلى الجانب الآخر كان قبر الدوق(رولون) منقوشًا فوقه الحروف الاثنا عشر البارزة، ووجدا أنفسهما داخل الكنيسة الصغيرة التي أشار إليها (شرلوك هولمز) من قبل.

قال وكأنه يُردِّد حِكمة محفوظة:

- «ثم نذهب إلى الله» أي إلى الكنيسة.

أعقب (ديفان) متجاهلًا حماس (هولمز) وفرحة النصر في عينيه:

- أهذا معقول؟ هل هذه المعلومات البسيطة كانت كافية لك لحل اللغز؟

- ياه! إنني بالفعل لم أكن بحاجة إليها، فالمجلد الذي يخص المكتبة الوطنية يحتوي على رسم تخطيطي لهذا السرداب تحت الصالون الكبير، مشيرًا بعلامة صليب متناهية الصغر تدل على مدخل الممر، والذي بدوره يرمز إلى كنيسة ما أو مُصلًّى.

قال (ديفان) مذهولًا لا يُصدِّق أذنيه:

- أمرٌ لا يُصدَّق، ولكنه بسيط أيضًا، كيف لم يتوصل أحدٌ إلى سِرِّ هذا اللغز من قبل عبر تلك السنين؟

- لأنه لم يقم أحد بتجميع العناصر كلها؛ المجلدين والحروف الثلاثة والاقتباسين، لا أحد باستثنائي أنا و(أرسين لوبين).

- أنا أيضًا، والأب (جيليس)، كلانا عرفنا هذه المعلومات.

ابتسم (شرلوك هولمز) بدهاءٍ قائلًا:

- ليس كل شخص قادرًا على حل الألغاز.

- لكني كنت أبحث في الأمر منذ عشر سنوات، وأنت حللته في عشر دقائق.

- أوه، بحكم العادة، والعمل أيضًا.

خرجا من الكنيسة، صاح الإنجليزي:

- هناك سيارة تنتظر.

- إنها سيارتي.

- سيارتك؟ لقد قلت إن السائق لم يعُد بعد.

سارا إلى السيارة، نادى (ديفان) السائق:

- إدوارد، من أمرك بالحضور هنا؟

أجاب الرجل:

- إنه السيد (فيلمونت).

- السيد (فيلمونت)؟ هل قابلته؟

- نعم، بالقرب من المحطة، وطلب مني أن أذهب إلى الكنيسة.

- لماذا؟

- قال بأنك في انتظاري سيدي، أنت وصديقٌ لك.

نظر (ديفان) و(شرلوك هولمز) إلى بعضهما البعض، ثم أردف (ديفان):

- لقد خمَّن بأن هذا اللغز سيكون لُعبة مسلية بالنسبة لك، ياله من جنتلمان لطيف!

ابتسم (شرلوك هولمز) بإعجاب، ثم أومأ برأسه قائلًا:

- إنه جنتلمان فعلًا، لقد حكمت عليه فور رؤيته.

- إذن لقد رأيته؟

- نعم، لقد التقيته.

- وهل كنت تعلم حينها أنه (فيلمونت)، أقصد (أرسين لوبين)؟

- لا، لكني كنت سريع التخمين؛ نظرًا لمفارقة ساذجة من جانبه.

- وتركته يفلت من أيدينا؟

- حظه من أفلته، لقد كان يمر بجانبنا فوج من رجال الشرطة.

- لقد كانت فرصة لا بد من استغلالها.

- ليس تمامًا سيدي، فعندما يتعلق الأمر بخصم مثل (أرسين لوبين)، فـ(شرلوك هولمز) لا يستغل الفرص، بل يصنعها.

صعدا إلى السيارة، جلس كل من (ديفان) و(شرلوك هولمز) في المقعد الخلفي للسيارة الليموزين المريحة، أدار (إدوارد) المحرك وانطلقوا، مرت

السيارة عبر الحقول والأشجار، فجأة لاحظ (ديفان) وجود مظروف مُغلف وموضوع بعناية في أحد جيوب السيارة، قال (ديفان):

- ما هذا؟ طرد؟ أوه! إنه لك.

استولت الدهشة على (هولمز):

- لي أنا؟

- نعم، اقرأ... «إلى السيد (شارلوك هولمز) من (أرسين لوبين)».

أخذ الإنجليزي الظرف من (ديفان)، فضَّه، فأخرج شيئًا ملفوفًا بين ورقتين، كانت ساعة. قال (شرلوك هولمز) بغضب:

- يا للشيطان!!

- ساعة، هل هذه مُصادفة أم ماذا؟

لم يجب (شرلوك هولمز)، فكان وجهه مُحتقنًا من الغيظ، وأعقب (ديفان):

- كيف تكون هذه ساعتك؟ (أرسين لوبين) يعيد إليك ساعتك؟ ولكن إذا أعادها فلماذا أخذها من الأصل؟ إنه لشيء مُضحك! (أرسين لوبين) يسرق ساعة (شرلوك هولمز) يا إلهي! اعذرني فهذا الموقف فوق تحمُّلي! وأخذ يقهقه ضاحكًا مهتزًا غير قادر على تمالُك نفسه.

وبعد فترة حين هدأ قليلًا قال بنبرة واثقة:

- يا لهُ من لص ظريف فعلًا!

لم يتفوه الإنجليزي بكلمة في أثناء الطريق إلى دبيب، كانت عيناه مثبتتين على الأفق، صمته عميق ونظراته حادَّة، وعند وصولهما، هبطا من السيارة وقال (شرلوك هولمز) ببساطة وبنبرة خالية من الغضب هذه المرة:

- نعم، إنه لص ظريف، رجل أود أن أربت على كتفيه بهذه اليد التي أمدها إليك الآن، وإنني واثق من أن (أرسين لوبين) سيلتقي بـ(شرلوك هولمز) مرةً أخرى يومًا ما، ولكن حين يكون هذا اللقاء....

لم يُكْمِل عبارته، وترك (ديفان) يسرح بخياله بعيدًا.

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات: